الأعمال الكاملة  زهدي الداوودي

الأعصار
الزنابق التي لاتموت
أسطورة مملكة النشيد

مجموعات قصصية





الأعمال الكاملة

١

زُهْديْ الداوُدِيْ

الأعصار - الزنابق التي لاتموت

أسطورة مملكة السيد

اسم الكتاب: الأعصار – الزنابق التي لاتموت – أسطورة مملكة السيّد

تأليف: زهدي الداوودي

من منشورات ئاراس، رقم: ٧٧٨

التنضيد: كاروان نادر + هڤال عبدالمجيد

التنقيح: أوميد البناء

الإخراج الفني: سَنگر عبدالقادر عثمان

الغلاف: مريم موتَقيان

الطبعة الأولى – ٢٠٠٨

رقم الإيداع في المديرية العامة للمكتبات العامة في إقليم كردستان: ١٧٦١ /٢٠٠٨

الباب الرابع

المدينة نائمة... والليل أسود قاتم كأنه فوهة عفريت يحاول إلتهام كل شيء... والريح تئن بأغنية كئيبة يخيل الى الإنسان إنها ترتل أناشيد البؤس بصفيرها الحاد... وحبات المطر الكبيرة تتساقط بقوة وسرعة وتغمر أديم الأرض الفضاء بمائها العذب...

وكان الكوخ الذي يقع في إحدى ضواحي المدينة الغنية بالنفط.. والذي يكتنفه الظلام العميق... كان يضم بين جدرانه القديمة المتداعية مخلوقين بشرين كبقية جيرانهما وأبناء محلتهما الذين يُعدون فقراء الناس...

لم يكن الكوخ بارداً رغم البرد القارس... بل كان دافئاً بعض الشيء ومريحاً... ولكن هذا الدفء وهذه الراحة الناتجة منه بدأ يضمحلان قليلاً قليلاً... لأن بقايا الشوك الذي حصدته الزوجة تحت سياط البرد في الخريف بدأت الآن تذوب رماداً تحت ألسنة النارالمتأججة... فقد مضى على الزوج أكثر من ساعة – لا بل أكثر من أيام – وهو يلقي بالشوك في الموقد بغية الدفء حتى أتى عليه ولم يبق منه شيئاً...

بينما كانت الزوجة التي تعاني آلام المخاض منذ يومين والتي التصقت بفراشها تراقب يد زوجها بأمعان... وتتذكر أيام كانت تستيقظ مع الفجر لتغادر بيتها للعمل في بعض البيوت... وهذا الشوك الذي يرميه الزوج في الموقد شيئاً... فشيئاً... إنها تتذكر جيداً كيف قطعته من جذوره بصحبة رفيقاتها على مقربة من الشركة.

أوه... وأولئك العمال الذين كانوا يشتغلون هناك... إنها تتذكر كيف كانوا يلقون لهن وخاصة هي... كلمات الحب والغزل:

– ولك هاي شلون جمال؟ ربك أشلون خالقها؟

– والله أجمل من مارلين مونرو...

هه... من هي مارلين مونرو هذه؟ من تكون؟... ولكن ما بالها تتذكر مثل هذه الأشياء؟... وما الذي يحدو بها ان تتذكرها؟... لا تدري... هي نفسها لا تدري... ومن يدري إذن؟...

وعادت إليها إغماءتها... وأطبقت جفونها لتهذي من جديد... لتقول كلمات غريبة...

... والله هذا الملعون الوالدين يريد يقتلني... هذا النذل عبالك فأر... حسن... حسن... حسن... شنو هاي الجنازة؟...

وصرخت برعب...

وقال حسن بقلق ظاهر:

– شصار؟... شصار؟.

وشعر بالوحدة القاتلة تخيم على قلبه وتعصره بحيث يكاد ينفجر بين يديها القويتين... وألتفت حواليه بخوف شديد وترآءت له الجدران في هيئة أشباح مخيفة... وأخفى وجهه بين كفيه كأنه يحيل دون رؤية الأشباح... ثم رفع رأسه يمعن النظر في زوجته وكانت قد غرقت في صمت عجيب... بينما غدا وجهها أصفر باهتاً تلتمع فيه عينان نصف مغمضتين... وأرتمى عليها يحركها بسرعة وخوف وقال وهو يمعن النظر في عينيها البراقتين:

– حمدية... حمدية... ليش هيجي تسوين؟... حمدية...

ولكنها لم تتحرك... ولاحظ أنها تحاول ان تتكلم من تحرك شفتيها بصعوبة إلا أنها كانت عبثاً تحاول... ونهض من مكانه مسرعاً نحو إبريق الماء... ويلل قطعة من القماش المتسخ ثم راح يبلل بها شفتيها... ويعصرها في وجهها الى ان أستطاعت ان تستعيد رشدها... وشعرت بالحرارة تسري إليها من يد زوجها... وأخذت تشعر بكل شيء بوضوح...

وسقطت فوق خدها قطرة باردة من الماء ترشحت من السقف وأنطفأ ما تبقى من النار في الموقد... بينما أخذت الريح الباردة تنفذ الى الكوخ حاملة معها رشاش الماء المتطاير... وبدأ سقف الكوخ يرشح ماءاً راح يبلل كل شيء وكان ثمة قطرات موحلة ممتزجة بهباب السقف بدأت تتساقط بصورة متتابعة فوق الأسمال التي وضعت فوق بعضها الآخر على الدكة المجوفة التي أنتصبت على محاذاة الحائط المقابل.

وقالت حمدية بصوت كسير:

– حسن... الجدة... يمتى تحكي؟

ولكن حسن كان ذاهلاً تراود مخيلته مئات الأفكار السوداء وقد وقف منتصباً في وسط الكوخ يحدق في الفراغ وذبالة الفانوس المتراقصة تلقي على قسمات وجهه القاسية نوراً باهتاً... إن الموقف حرج لايحل إلا بالفلوس... أو تستطيع (فطومة) ان تعالجها بكل سهولة... ولكنها مسكينة إن ولدها قد مات منذ أربعة أيام وهي عزاءها فكيف تستطيع القيام بواجبها؟

– هاي كلها... من حظنا الأسود...

وحزّ في قلبه عندما تذكرها... وأحس بعطف كبير نحوها... كيف يذهب إليها هي التي لم تجف دموعها بعد؟ وعزم ان يقطع الشارع الطويل الموحل تحت زخات المطر الى حيث مسكن القابلة (كاترينة) ويأتي بها الى زوجته بأي وسيلة كانت... وسرعان ما وجد نفسه بعد ذلك يسرع

الخطى تحت الأنوار الباهتة والمطر يبلل ثيابه التي راحت تنبعث منها رائحة مألوفة بفعل الرطوبة... ويرك من مياه المطر على صفحة الشارع تعترض طريقه بين فينة وأخرى دون ان يأبه بها... وأمتلأ حذاؤه من الماء... وراح البرد ينفذ الى أعماق عظامه... وشعر أن الباب يقترب منه وأن يده الجامدة تنهال عليه بطرقات قوية مزعجة ومن ثم ترتخي من تلقاء نفسها... لقد طرق كثيراً جداً... وليس من مجيب... أوه... من يخرج من بيته في هذا الليل الشتائي؟... أكل العالم مجنون مثله؟... من يترك فرشه الوثير الدافيء ليستقبل هذا البرد القاتل؟... لقد كلَّت قدماه وهو يكاد يموت من البرد والتعب... إنه الباب الثالث وكان جواب الباب الثاني نفياً قاطعاً... وأما الباب الثالث فكان جوابه:

– شلون أطلع...ويَ رجّال غريب... أبهالنص الليل... شمدريني وين يوديني؟.

وملأ اليأس قلبه وخيَّمت عليه كآبة شديدة... وذهبت به أفكاره مذاهب شتى وتراقص أمامه شبح فطومة... ولم يجد بداً من الذهاب إليها... مسكينة فطومة الانسانة الشقية... كم هي أمرأة طيبة أعظم من أي قابلة في المدينة بأكملها!... وإلا تنبأت بأن مولد الطفل يصادف هذه الليلة بالذات؟...

وتابع سيره تحت زخات المطر قاطعاً الشارع الممتد... ووصل الى الضاحية ودلف الى زقاق جانبي مظلم موحل حيث مسكن الجدة فطومة... ودق الباب الخشبي الكبير الرابع... ومن وراء الباب صدر صوت نسائي يغلب عليه النعاس:

– منو بالباب؟

– الجدة فطومة بالبيت؟

– لا. راحت أبيت حمدية قبل شوية...

أجل... إنها عظيمة حقاً... ورنت تلك الكلمة الجميلة في أذنه وهو أسعد ما يكون وشعر كأن البرد قد زال... وسار بخطوات متزنة دون ان يأبه بزخات المطر التي بدأت تشتد رويداً... رويداً...

١٩٥٦

القرية تحت الانذار

غابت الشمس وراء الأفق الأصفر الملطخ ببقع ملونة من السحب الطافية التي شكلت خطوطاً متوازية وراء ضباب كثيف من الغبار الخانق... خلفتها غابة من أقدام الأغنام التي تسحب نفسها فوق طبقة التراب اللزج تاركةً وراءها خطوطاً قصيرة... مع ذرات متطايرة ما تلبث ان تكون فوق القطعان خيمة من التراب... تشيع نوعاً من النشوة في النفوس الأغنام التي خفضت رؤوسها تسير بلا كلل... وبدأت... الظلمة تهبط شيئاً فشيئاً... وتتسرب الى زوايا القرية وطرقاتها المكتسية بالتراب... وتلاشت خيوط الدخان المتصاعد من البيوت وراء ستار الظلام الذي حجب المدينة التي تبدو من بعيد مع الجبل الذي يتمدد وراءها... وأشتد نقيق الضفادع على ضفتي الساقية الموحلة... التي تنقل مياه القاذورات من تلك المدينة البعيدة لتصبها في جوف أبناء القرية وحيواناتها... بينما خفتت الحركة... وأنقطع الضجيج فخيّم هدوء شامل ساكن أشبه بسكون النجوم التي تتلألأ في جوف الظلام فوق سماء القرية...

جدران البيوت الطينية المتشققة التي تكللت رؤوسها بالأشواك تحتوي على كتل بشرية متعبة... وأرجل خائرة... وأذرع قوية... مفتولة قليلة اللحم ينتشر في أعصابها تعب أيدي... ونفوس تشعر في أعماقها بحس جديد نحو الحياة... بحب غريب للأرض والمنجل...

الصمت يجثم على القرية لا يشوبه سوى نباح متقطع لكلبة عرجاء في زاوية ما... فتبدو القرية كما لو أنها مقبرة... مات من فيها منذ أمد بعيد... وأنقطعت عنهم دماء الحياة... الى غير رجعة... كل شيء صامت... حتى الضفادع... والأغنام والماشية... والكلاب... إنه شبح أسود جامد يبدو من خلال ظلام هائل... بعيد عن العالم الواسع الصاخب... وادع مثل الحمل لا يهمه حتى إذا أنقلبت الدنيا...

وهبت نسمة خفيفة ومرّت على الشبح الأسود الجامد... وألقت عليه ألسنة النار التي تتصاعد من جوف الأرض في زنبور، القابعة، داخل الجبل ظلالاً متراقصة كأنها تريد ان تثبت وجود القرية أمام الفراغ...

كان الماء يغلي محدثاً ازيزاً رتيباً في (الكتلي) الأسود الذي وضع فوق صفيحة مثقوبة الجوانب يتصاعد منها لهيب يتوزع تحت (الكتلي) ثم يصعد الى الأعلى ليحيطه في حلقة من النار... عيون تلتمع في الظلمة تصوب نظراتها نحو الكتلي الذي يعزف لحن الاسترخاء... لقد أمتلأت بطونهم

بالخبز وماء البامية الأسود... وأسترخت أعصابهم التي لم تزل بحاجة الى الشاي... فتمدَّدوا ينفثون الدخان بصمت...

كان الفانوس يرسل نوراً باهتاً يحاول توضيح قسمات وجه (علي) الهادئة... ونظراته التي تريه كأنه ينظر الى البعيد... ويفكر في شيء ما ويراه بعينيه العميقتين تحت حاجبين غليظين في وجهه الطويل الذي كسته لحية خفيفة... وأشعل لفافة... وبدأ يمتصها بشراهة وينفخ الدخان في الهواء بأتجاه أفقي وألتفت الى الجهة اليسرى وألقى أنفه ظلاً كبيراً على جانب وجهه وهو يقول من خلال دخان كثيف:

– صبرية... أنزلي الكتلي...

وأنتشى العجوز القابع في الناحية المقابلة وتململ سعيد في مكانه وهو يقلب صفحة أخرى من الكتاب الذي يكاد يلتصق ذقنه عليه... «فضّل معاوية إتباع سياسة اللين على الشدة إلا عند الضرورة...».

– ها أبني... ماذا في كتابك؟

– اللين والشدة بابا... قصة معاوية...

– هه... ناجح أبني إن شاء اللّه... ناجح...

وسحب من لفافته كمية أخرى من الدخان دون ان يفهم شيئاً من كلام أبنه الذي يعقد عليه آمالاً كبيرة... لم يبق سوى هذه السنة وبعد ذلك سيذهب ليدرس في المدينة... سيصبح (أفندي) في يوم من الأيام... ويرتدي ملابس جديدة... ويمشط رأسه مثل هؤلاء المعلمين الذين يأتون كل يوم الى القرية بالدراجات... خاصة وإن رشيد أفندي يمدحه كثيراً وقد كان الثاني في صفه في العام الماضي... ان كل شيء سيتحسن يوماً بعد يوم. وسيهتم هذه السنة أهتماماً كبيراً بأرضه... إنها ستصبح له... ملكه الخاص... يتصرف بها كيفما يشاء سوف لا يقتصر على زراعة الحنطة والشعير... سينوع زرعه... انه منذ أشهر، منذ ان كونوا الجمعية بدأ يسمع أشياء جديدة... ويختلط في المدينة بأناس يفهمون أشياء كثيرة.......................................

وصعدت رائحة الشاي... واحضرت صبرية الأواني بينما انتهت زوجته من حلب الأغنام...

– علي... لماذا لا نفتح مقراً للجمعية نجلس فيه كل يوم؟

– لقد نجحنا في تشييد مقهى وسنحاول جعل قسم منه مقراً للجمعية...

وسنطلب الحكومة بفتح صف ليلي. لأننا بحاجة الى القراءة والكتابة.

وأنتهى من شرب القدح الثالث من الشاي الأسود الثقيل ثم اعقبه بلفافة أخرى... كان شيئاً ما

غير أعتيادي يحدث في الخارج بحيث أثار الكلاب التي بدأت تعوي بشدة... وأنتبه الكل الى مصدر الصوت... وقفز الكلب الكبير القابع بجانبهم الى السطح... وقام الجميع من أماكنهم... وهرع علي نحو الباب... وعندما فتحه وجد أمامه ثلاثة من رفاقه الفلاحين وقد حمل أحدهم جهاز راديو يشتغل وقد مسك الثاني بالبطارية بينما الثالث يحمل عصا طويلة يحول بينهم وبين الكلاب الهائجة... وفي ضوء الفانوس أستطاع ان يتعرف على وجه حامل الراديو حمه جان ولكن لم يحدث ان جلب له هذا الراديو بهذا الشكل من قبل رغم ان هذه العادة جارية في القرية... وتعجب من الأمر وهو ينظر اليهم ببلاهة... ودفعه حمه جان بقوة وهو يقول بنبرات تقطعها الغصة:

– امش ايها الأحمق.. لقد قتلوا عبدالكريم...

وصعق علي... وأكتست وجهه صفرة غريبة وأنتصبت شعرات لحيته مثل سهام القنفذ كأنها تستعد للمعركة الفاصلة... معركة الحياة أو الموت... ومرت أمام ناظريه صور عديدة في شريط طويل... وبدأ قلبه يدق بعنف بحيث يكاد يقتلع من مكانه ويقفز من فمه... وعبثاً حاول تركيز ذهنه في كلمات المذيع التي أعقبها موسيقى عنيفة..

ولكن هل ينبغي ان يحدث كل هذا؟... ان يعيد ذلك العهد نفسه بكل سهولة؟... مستحيل... لا ينبغي الرجوع الى الوراء بأي ثمن كان... وأنقطعت الموسيقى العنيفة... وأطبق صمت ميت... الكل آذان مفتوحة حول الراديو الصغير... وقرأ المذيع بياناً باللغة الكردية... فهموه فهماً جيداً... وبدأت الدماء تصعد الى الوجوه... وحلّت محل التهجم إبتسامات لم تزل تخفي وراءها شيئاً ما... ولكن علي لم يزل صامتاً في مكانه... تكسي وجهه صفرة مخيفة... يتقطر الشر من كل جزء في كيانه... من عينيه الغاضبتين... من أسنانه المطبقة على الحقد، وقال من خلالها وهو لا يؤمن بكلمات الراديو:

– هكذا اذن... لقد سلبوا من عندنا الشمس التي تشيع الدفء في اجسادنا.

وأشتد نباح الكلاب في الخارج... وقال حمه جان:

– انهم قادمون... لقد علمت القرية بالخبر...

– أتركوا باب الحوش مفتوحاً...

قال ذلك وهو يحمل الفانوس الى الغرفة... وهناك بدل ملابسه بسرعة وحمل بندقيته الانكليزية ومسحها جيداً ثم حشاها ووضع الخنجر في سوطه.

لقد بدأ الشبح الأسود الساكن في جوف الظلام يتحرك... وأرتفع الضجيج من كل كوخ وبيت... وحتى الكلاب أخذت تعوي بشدة... وتستغرب من أستيقاظ الناس في هذا الوقت المتأخر بالنسبة للقرية... والتجوال في الازقة والدخول في هذا البيت وذاك... كانت الوجوه المتجهمة الغاضبة

تنذر بالشر... وتنتظر من يشعل الفتيل حتى ينفجر البارود... كانوا ينظرون الى (علي) الذي أكتسى وجهه بغضب مخيف وهو جالس القرفصاء مستنداً على بندقيته أمام الراديو... ومن حوله وقف عشرات الفلاحين تخيم عليهم الحيرة والتساؤل وخرج من بينهم شخص هزيل قصير ذو نظرات حادة... وقال بعصبية:

– هيا لنصفي حسابنا!... معهم...

– دعنا لنرى ماذا يكون الامر...

وقام علي من مكانه ببطء وهو ينظر حواليه ويتحس بندقيته التي اصبحت جزءاً من كيانه... انها أعز شيء لديه... انها حياته... حياة شعبه... وأجال بصره في العيون المتسائلة المصوبة نحوه... وشعر في نفسه بشيء غريب... بثقة كبرى تملأ قلبه... وقال:

– الآن أجلسوا ايها الأخوان... لنفكر في الأمر...

وجلس الجميع على الأرض حول الراديو في حلقة كبيرة... وخفت الضجيج ولفّهم صمت مطبق... كان علي ينظر الى الأرض يستعرض في ذهنه الكلمات التي كان يسمعها..................

المؤمرات... الأقطاع.... الرجعية... الاستعمار... لم يعد الآن جاهلاً كما كان من قبل... أنه يفهم كل شيء... وهو المرجع الوحيد لمشاكل القرية... وشعر بزهو يرفعه درجات وقال برصانة وهو يثق بما يقول:

– أخوان... أننا الآن... أمام مؤامرة كبرى... والجمهورية في خطر... وينبغي ان نضع الموت نصب اعيننا... اننا سنخوض معركة الحياة أو الموت...

وقال الرجل القصير ذو النظرات الحادة:

– ولكن الراديو يقول ان الزعيم قد نجا من الموت..

مروا ببيوت الجماعة وأبلغوهم الأمر... تجمعوا في المقهى بكامل هيئاتكم هيا بسرعة... وانت حمه جان... أفتح المقهى وأذهب بالراديو الى هناك حذار ان تغفل عن سماعه لحظة واحدة...

كان الكتلي الأسود فوق الصفيحة ذات الجوانب المثقوبة لم يزل يرسل ازيزاً كئيباً ومن تحته ينتشر اللهيب ثم يصعد الى الأعلى ليحيطه في حلقة من النار... والعجوز المكتوم يتكلم مع نفسه بأشياء غير مفهومة ويرفع يديه نحو السماء والسبحة الطويلة تتدلى من يده المعروقة... وأستطاع علي ان يحصل على قدح آخر من الشاي الأسود الثقيل ثم هم بترك المنزل مع ثلاثة من رفاقه الى حيث يجتمع أبناء القرية... في أنتظار ما يحدث من تطورات جديدة...

وكانت ألسِنة النار تتصاعد من جوف الأرض لم تزل ترسل ظلالاً متراقصة على القرية الثائرة التي وضعت نفسها تحت الانذار...

١٩٥٩

دماء... وزيتون...

وبكل خفّة وبساطة دفعه الشرطي الذي تسلمه من المأمور... الى داخل الفوهة الظلمة ذات القضبان الحديدية السود التي تتنفس بصعوبة كبيرة... منبعثة منها رائحة تخدر الانسان ممزوجة برطوبة عفنة.

كانت غشاوة ما قد أسدلت على بؤرة عينيه.. وكان يرى الأشياء على غير حقيقتها ويتصور ما لم يكن في الحسبان تصوره.. فقد ظن أول الأمر ان الشرطي الذي يسوقه انما هو مدير الشرطة الأبله الذي أهانه أمس..

لم يخف حين أستدعاه مرة أخرى... ولم يركز ذهنه في شيء معين كي يواجهه به... وحين وقف أمامه وجهاً لوجه أتسعت الغرفة به ثم ضاقت... وضاقت حتى لكأنه قد شعر ان الجدران تطبق عليه وضاقت ذرعاً لوجوده... وتصور الغرفة بيتاً للدمى... وان المدير الذي يتصدرها دمية كبيرة فارغة... فارغة تماماً... حتى الصورة الملونة المعلقة فوق رأسه هي صورة دمية كبيرة غالية حسب...

كان ملابسه المتسخة بالزيت... ويديه الخشنتين المسودتين... وقامته الطويلة... وهيكله العريض يتصور نفسه يطل على بيت الدمى... وكل شيء في الغرفة الكبيرة الواسعة هو دون قدميه حتى المدير نفسه... وتخيل حذاءه كبيراً الى درجة انه يستطيع ان يستوعب المدير بكرشه المتهدل بكل سهولة... حقاً انه ليستغرب من أمره... ان جميع حواسه قد تبلدت... ولم يعد يحس بأية عاطفة كالخوف أو الاضطراب... فقد دخل على المدير دون ان يُسلّم عليه ووقف كالتمثال يصوب نظراته الحادة المليئة بالتحدي والسخرية نحو عينيه المنتفختين... لابد انه قد قضى سهرة ممتعة في الليلة الفائتة... لقد ضاق ذرعاً بالغرفة القذرة... انها أرهب من السجن نفسه...

ورفع نظره الى وجه المدير بعد ان أطال التحديق في بزته الرسمية التي يبدو فيها كأحد الضباط الفاشست... كان ينظر اليه بنظرات خبيثة وقاسية وهو يقيسه طولاً وعرضاً بهزء وسخرية كما لو أنه أرتكب عملاً شنيعاً... لم تثره نظراته ولم تخفف من السخرية التي كانت قد أرتسمت على وجهه هو الآخر... مع لا أبالية ظاهرة... كان قد أعتاد على مثل هذه النظرات المعروفة وراح بدوره يقيسه بنظراته بكل تحد... وركز نظراته في عينيه... وبدأ يحدق فيها بعناد... كل ذلك قد حدث... وحدث بتحد واضح...

...

كانت يداه المكبلتان بالحديد قد أصبحتا تحت صدره... وارتطم وجهه بشدة عل الأرض... كانت دماء دافئة تسيل من أنفه... وشيء ثقيل يطرق رأسه بوحشية... كان لون الكمبار أصفر ذهبياً وحلقات بيضاء تتصاعد وتتسع من نقطة صغيرة... كانت تتسع وتتسع الى اللانهاية... ان جسده قد أصبح أشبه بكتلة من المطاط... يتلقى الضرب دون ان يشعر بالألم... الألم الذي خدّر أعصابه حتى العظام...

كانت ظلمة ما تخيم بهدوء على نفسه وشيئاً ما يجنح الى سكون... سكون ميت وكان الظلام سحيق لا قرار له... وفتح عينيه بصعوبة... ومن خلال غمامة شبه معتمة وجد نفسه في مكان مظلم... وهو ممدد على الارض... يقابله جدار رهيب لمح عليه آثار كتابة ممسوحة تركت تحتها عبارة «نحن أقوى من الموت» وثمة سلاسل ثقيلة تتدلى من السقف... وفتح عينيه جيداً واجالها في أنحاء الغرفة الرهيبة... وهو يتحسس بيده مواضع من جسمه... وراح يجهد نفسه واضعاً يديه على الأرض ليستطيع الجلوس... وجرًّ نفسه الى ان وصل قرب الحائط واتكأ عليه... كان الجو قائظاً... وكان العرق المترشح من جلده يلهب مواضع عديدة من جسده حتى لكأن هناك من يضع عليها جمرات النار... وشيئاً ما يحدث طنيناً حاداً في رأسه يلفه في دوامة من الصخب... كان شيء يحرك أعصابه ويهز كيانه وحقد أسود يدفعه الى الحركة... ولقد حاول ان يبكي... إلا ان البكاء كان ابعد من ان يصله... الدموع قد جفت في عينيه... ان رائحة عبقة بالرطوبة العفنة تجري عبر أنفه وتختلط بآلام حادة تنهش جسده... ونداء شرير من أعماقه يصرخ باليأس... هه اليأس... ولأول مرة يبتسم في أعماقه... كأن افقاً يترآءى له... لا شمس وراءه... بارد أجوف... كمن وراءه الموت... ولكن هناك خضرة... أشجار الزيتون ستخضر تحت أشعة الشمس... وكل شيء قد حدث تحت أشجار الزيتون... وبللت الأغصان الخضراء والجذوع الهرمة بالدماء الحارة التي كانت تغلي في مرجل كبير... لا يهمه هذا... أنه يعرف الجميع... يعرف الذين كانوا في المقدمة ولكنه يعرفها لنفسه فقط...

كانت الشمس قد توارت وراء الافق على ما بدا له مثل تلاشي الظلال التي كانت قد أرتسمت على الجدران... وخيمت على غرفته ظلمة ثقيلة زادته حقداً وتراءى له الرجال الذين لا يحملون قلوباً وهم يحيطون بهم من كل الجوانب مصوبين عليهم فوهات بنادقهم... كانت هتافاتهم أقوى من لعلة الرصاص... وأشد من حوافر الخيول التي كانت تمر على الجثث... لقد تساقط شباب وأطفال ولم يُجدِ الاختفاء وراء جذوع الزيتون... ولكن... آه... احمد... لقد قتل ذهب دون ان يعود... احمد الذي علمه كل شيء... علمه كيف يغلي الدم الاحمر... آه... يا إلهي... وندت عنه صرخة مكتومة... إن غرفته تضيق عليه الخناق... وقد إبتلعه الظلام في وحشة الزنزانة الكئيبة... ولم يعد يفكر في أي شيء... سوى التهيؤ لتحمل التعذيب المنتظر...

كانت هناك أقدام داخل أحذية ثقيلة تلطم الأرض محدثة ضجة تختلط بأصوات غير واضحة... وهي تقترب... وأنفتح الباب عن أشباح ثقيلة... ونظر اليه الشرطي بأحتقار وهو يجره من كتفه كما لو أنه خرقة بين يديه... وبعد ان شد يديه أدخله الى غرفة أخرى... كان ينتظره فيها معاون طويل أصفر الوجه... بدا له أنه مصاب باليرقان... وبعد ان مثل معه دور المدير بادره قائلاً من وراء أنفه:

– أحجي الصدك... جماعتك كلهم أعترفوا بجريمتهم...

كان ذهنه في مكان آخر... كان يتراءى له الافق الأسود... وصدى نشيد يطرق عواطفه... لا... لن يتكلم... لن يتكلم...

•••

ولم يشعر بعد ذلك إلا ورأسه يتدلى وجسده يتأرجح في الهواء... بصورة مقلوبة... وهو يتلقى الضرب من جميع الجهات... كان رأسه يدور... وبخار ألم حاد يتصاعد من أنفه... إن كل شيء يدور... يدور نحو شيء ما.

كانت الشمس ترسل حزمة من أشعتها القوية... من خلال الكوة الصغيرة... فتبعث شيئاً جديداً في زوايا السجن الأسود... ويبدد الثقل الجاثم على كيانه... كان شبح الشرطي الذي دفعه الى داخل الفوهة المظلمة لم يزل يتراقص أمامه... وهو يحدق في عيون الذين ألتفوا حوله.. وهم يبتسمون بكل براءة... ويهنئون لصموده... عند ذلك شعر بأنه ليس وحيداً... وسرت في كيانه قوة جديدة لم يعهدها من قبل...

صديقان

أعتدت ان أقضي أوقات فراغي في الصيد... وكنت أخرج إما مع أحد أبناء القرية أو وحدي... وبعد أن تعلمت بعض مبادىء الصيد كنت أفضل الخروج وحدي لأمتع نفسي بجمال الطبيعة وأستغرق في تأملاتي... دون أن يكدر ذلك مكدر... حيث أنسى غالباً الهدف الأساسي الذي خرجت من أجله... وأنا أجلس بين المروج أراقب الأزهار البرية الجميلة من صفر وحمر وبنفسجية... وقد كونت في البعيد قطعاً ملونة كأنها بسط زاهية فرشت بها الأرض...

وبينما كنت ألقي الدرس في الصف يوماً... وقد أستغرق الطلاب في صمت عميق إذ وقف أحد الطلاب فجأة في مكانه بعد أن رفع إصبعه وقال:

– أفندي... أنا أيضاً من هواة الصيد... سأكون سعيداً لو خرجنا معاً ذات يوم... وأستغرب الطلاب جرأته. وأتجهت الأنظار نحوه... وبعضهم يخفي أبتسامته... وقال أحدهم:

– أفندي.. أنه لم يبق شيء من الطيور في الزاب.

وقال آخر:

– بل أنه قتل قبل سنتين خنزيراً باعه لأحد المسيحين بأربعة دنانير...

ولم الاحظ أية علامة من علامات الفخر في وجه صاحبي الجديد... إلا ان عينيه الضيقتين في وجهه المستطيل الذي لفحته أشعة الشمس... وشعره الأشعث... ونظراته الهادئة كل ذلك يشعرك بأنه أكبر مما يبدو... وكان قد دخل المدرسة كبيراً... وقلت له بهدوء:

– حسناً... كما تريد... غداً سنخرج بعد الدوام... وقبل ان يجلس قال بخبث:

– أفندي... أرجو أن تكلف عبدالقادر بأخذ كتبي الى البيت.

وكان يسكن في قرية أخرى تبعد عن القرية التي فيها المدرسة بنصف ساعة وقلت له:

– كما تريد...

وفي اليوم الثاني كان كل واحد منا يحمل بندقية صيد مع عدة كبسولات... وحين طلبت إليه أن نسلك طريق «خرابه روت» حيث تكثر الغزلان... نظر إلي كمن يستخف برأيي... وقال بعد أن أشاح بوجهه عني:

– ولكن هل سبق لك ان ذقت طعم الصيد هناك؟

– لا...

– فلماذا تحاول إذن ان تذهب بنا الى هناك؟

– ولكن لم يسبق لي ان ذقت طعم الصيد حتى الآن!

– هذا لأن الذين كانوا يرافقونك دخلاء على الصيد...

– وأنت... ألست دخيلاً على الصيد؟...

ألتفت إلي وقد أنبطحت على وجهه أبتسامة ساخرة وقال:

– ستأتيك الاجابة بعد رجوعنا...

وسلكنا الطريق المؤدية الى سلسلة التلال الممتدة الخضر... و وقف فجأة وهو يشير الى الارض:

– هذه آثار قطيع من الغزلان... ولكن مسكينة هذه الغزلان إنني أشفق عليها كثيراً... لها أعداء كثيرون...

– فلماذا تذهب الى صيدها اذن؟ مادمت تشفق عليها.

– لو كان الأمر بيدي لما ذهبت.

– وبيد من إذن؟

– بيدك أنت!...

– وليكن الأمر بيدك... فلنرى الى أين تقودنا؟...

– اني أحب أن نذهب الى النهر لصيد الطيور لأنني أحقد عليها كثيراً...

– ولماذا؟

– لأنها هي التي كانت السبب في غرق والدي وموته...

قال ذلك متأثراً جداً...

– وهل مات والدك غريقاً؟... رحمه اللّه...

– نعم... كان المرحوم والدي صياداً ماهراً... وجميع أهل هذه القرى يعرفونه كان يصيد الخنازير ويبيعها للانكليز.. حتى أنهم كانوا يأتون اليه من الشركة ويسلفونه المبالغ... كان المرحوم يصطحبني معه دائماً...

وشهق شهقة عميقة... وهو يحدق في الفراغ... كأنه يلم شتات أفكاره... نعم... لقد يتّمني وأنا بعد في العاشرة من عمري.

– وكم تبلغ من العمر الآن؟

– أنا الآن في السادسة عشرة من عمري... ليتني لم أكن معه في تلك الساعة... ان ضميري يؤنبني دائماً لأنني لم أستطع أنقاذه من الغرق... وكثيراً ما أراه في الاحلام يسألني بوجهه الأسمر المجعد وعينيه البراقتين... لماذا لم تنقذني من الغرق؟

ولمحت دمعة كبيرة تتلألأ في عينيه...

– ولكن كيف كانت الطيور السبب في غرق والدك...

– كان زوج من البط البري قطع اللّه نسله في النهر... وكان الفصل شتاءاً... والمياه فائضة... أصابهما والدي بطلقة واحدة... وحين طفوا على سطح الماء ألقى والدي بنفسه في النهر... ولم أرى والدي بعد ذلك... ثم دفعت المياه جثته الى الشاطيء وأكلتها الطيور...

– ولكن لماذا لا تحقد على الاسماك فربما كانت هي التي أكلتها...

– لا... وليس في النهر سمك في أوقات الفيضان...

– وأين يذهب السمك إذن؟

– يخرج الى الجداول التي تصب في النهر لأن مياهها صافية ودافئة... أو تختفي في الحفر التي توجد في جوانب النهر والجداول... وعند ذلك تكون فريسة سهلة للسرطان الملعون... وهذا الشيطان يشتغل طوال الصيف في تهيئة الحفر ليصيد بها الاسماك في الشتاء...

وصمت برهة... وكنا نواصل السير عبر الطريق الترابي المؤدي الى نهر الزاب الصغير... وكانت حقول القمح والشعير تمتد أمامنا وتنتهي عند النهر الذي كون شريطاً ملتوياً تحت أشعة شمس الربيع... ومن خلفه كونت سلسلة الجبال الممتدة ظلالاً زرقاً قاتمة تضفي على المنظر جواً ضبابياً رائعاً...

كانت ثمة حفر صغيرة في جوانب الطريق... ولما سألته عنها قال وهو يردم بعضها بقدمه:

– انها حفر اليربوع... يحفرها خوفاً من الغربان والثعالب يحفر لنفسه ثلاث حفر... أثنتان منها مفتوحتان والثالثة أحتياطية قريبة من الأرض يمكن فتحها بدفعه واحدة من رأسه.

وبعد مسيرة غير قصيرة أقتربنا من النهر... وقال:

– اذا جعلتك تصيب طيراً كبيراً ببندقيتك فهل توافق على زيارة بيتنا؟ هذه هي القرية انها على خطوات منا... وسوف تسعد أمي كثيراً...

– وإذا لم اصب أي طير؟

– ما عليك سوى أتباع أرشاداتي وحينئذ ترى الطير مكتوماً على الأرض مهما كان (حَيالاً..) ولكنك إذا أصبت صيداً فمن المحال ان تترك الصيد... ستلازمك هذه الهواية حتى في الاحلام...

وأشار بيده الى الجهة اليسرى قائلاً:

– هيا بنا الى هناك... الى بركة تنبع منها المياه تأتي اليها طيور الكركي لصيد الضفادع.

وتقدمني دون ان ينتظر مني الجواب ثم حنى هامته... وأشار بيده إليّ ان أفعل مثله وهمس:

– هل ترى ذلك الشيء الابيض؟... انه طير الكركي... ولكن حذار ان يرانا ان عينيه أقوى من عين الذئب... إلا أن الأحمق ضعيف السمع.

وقلت بصوتي الاعتيادي:

– ما دام سمعه ضعيفاً فلماذا تهمس؟

قال وهو يحاول عبثاً ان يكتم غضبه:

– ابهذا السلوك تريد ان تكون صياداً؟ لا تدع الغنيمة تفلت من يدنا...

ثم نظر إليّ كمن يريد ان يستطيع تأثير كلامه... وأنبطح عل الأرض... وبدأ يزحف... ولاقيت صعوبة كبيرة في تقليده... ولما أصبحنا على مقربة من البركة جلس في مكانه وهيأ بندقيته وقال بهمس:

– صوب بندقيتك الى ما بين قدميه تحت بطنه... لا ترتبك انه لا يرانا... أقطع نفسك جيداً... وأضغط على الزناد...

وضغطت على الزناد... وأحدث دوياً هائلاً... وأرتبك الطائر المسكين وأرتفع دون ان يمسه سوء. إلا ان دوياً آخر أنفجر قربي... وخر معه الطائر الابيض الكبير... دون ان يقاوم...

وبعد ان ذبح الطائر بمدية قديمة التفت إليّ قائلاً كالواثق من نفسه:

– كنت أعتقد انك تصيبه ولكن لا بأس هيا بنا الى بيتنا...

– ولكنني أخطأت الهدف... فكيف يمكنني ان آتي الى بيتكم...

– أفندي... أرجوك... ان أمي ستفرح بك كثيراً... سأذبح لك أرنباً من أرانبي... وأريك ثعلبي الصغير وسترى كيف انه محتال نذل... الطائر خذه معك...

وكان الدم ما يزال يقطر من عنق الطائر المتدلي... ونحن نجتاز الطريق الضيق بين حقول القمح الى حيث بيت صديقي الجديد...

المطبقة

اليوم على الأقل تستطيع ان تثبت وجودها بين زميلاتها... هذه هي السنة الثالثة ولم يبق سوى شهر ونصف الشهر... وبعد ذلك ينتهي كل شيء... واليوم هو اليوم الذي قالت عنه مدرسة أصول التدريس بأن الدرجات لا تنفع فيه... وكم فرحت هي بتلك الحقيقة... لقد كانت تشعر بأنها مهملة والآن أعيد إليها أعتبارها كيف لا وقد بدأت العيون ترمقها بحسد وغيرة... هي الطالبة المغمورة التي أعتادت على نيل أوطأ الدرجات... ولم تهتم بالتعليقات والهمسات قدر أهتمامها بالمدرسة التي ستطبق فيها... فقد كانت المديرة قد جعلت المدرسة النموذجية من نصيب أحسن مطبقة... فستكون مدرسة (الوطن) من نصيبها إذن... هي التي قالت عنها مدرسة أصول التدريس أمام الصف بأنها «المطبقة النموذجية» وكاد هذا اللقيب يدفع بها الى مشكلة لا تحمد عقباها مع أحدى الطالبات... ولكنها أستطاعت ان تتخلص منها ببراعة زاجة بالمدرسة نفسها بالقضية مع تلك الطالبة.

وكان موقف المدرسة غريباً في الصف... فقد أنهالت على الطالبة الغيور بالضرب لأول مرة وهي تصفها بالموتورة... والحقودة... وعندما ساد الصمت كان لا يسمع وقع أقدامها وهي تزرع أرض الغرفة جيئة وذهاباً... وقد أمتلأت غضباً وحقداً... وأرنبه أنفها ترتجف... والاصفرار يعلو وجهها الذي حفرت عليه خطوط تنبيء أنها جاوزت الاربعين من عمرها... وقالت ،هي ترتجف من الغضب:

– ثلاث سنوات مضت وهذه الطالبة لم تحسد أية واحدة منكن لدرجاتها... بل ولم أرها أبداً تنطق دون ان يطلب منها ذلك... وفي نهاية هذه الاعوام الثلاثة حيث تتأهبن لأستقبال حياتكن العملية تظهر عند بعضكن مع الاسف اوقح العادات البدائية... أنكن غداً ستصبحن زميلات لنا... أبهذه الاخلاق ستقمن بتربية أطفالنا؟...

كانت لا تستعمل من قبل مثل هذه اللهجة مع الطالبات لذا فقد أستغربن منها هذا التصرف... وأستغربن في صمتهن وهن يشعرن بالندم.

وتململت عدة طالبات في مؤخرة الصف وهن ينظرن الى بعضهن البعض بنظرات غير خالية من المعاني... ورفعت طالبة بدينة – تجلس في آخر الصف – أصبعها وهي تتصنع الجد والوقار... فعلت ذلك بعد ان شعرت بأن المدرسة قد هدأت بعض الشيء... وحين سمحت لها بالكلام... وقفت في مكانها قائلة:

– ست نجيبة... الآن هل توافقينني على رأيي في ان الضرب ضروري في بعض الاحيان؟... أم مازلت على رأيك السابق؟

وأحدث كلامها في الصف موجة من المرح والتنفس... وصمتت ست نجيبة برهة وكأنها تؤيدها في كلامها ثم قالت:

– على كل حال... كنت أتمنى ان لا أودعكن الى التطبيق بهذا الاسلوب وأنا أعتذر لموقفي... ومضت فترة صمت لم تلبث ان كدرتها دقات الجرس... وتركن الصف في ضجة وصخب... وكن قد أصطحبن معهن في ذلك اليوم دفاتر خطة التدريس فقط.. إذ كان ذلك اليوم هو بداية فترة التطبيق التي تنتهي بها السنة الدراسية الأخيرة... وهو عن كل الى المدرسة التي نسبت للتطبيق فيها.

ورغم ما حدث فان مزاجها لم يتكدر بل شعرت بشيء من السمو والاستعلاء... وكانت تشعر كما لو أن قدميها لا تحسان الارض خفيفة مرحة مثل بالون عائم... ومما زاد في بهجتها ذلك الصباح الربيعي المنعش الذي كان يثير في كيانها نشوة مخدرة وملأت رئتيها بأريج من طيب حمله النسيم... كأنها تعوض عما تشمه يومياً من الروائح الكريهة في بيتهم الصغير القذر الذي يقبع في أحد أزقة محلة الشاطرلو الضيقة... وعندما بلغت مدرسة الوطن كان الأطفال الصغار من بنين وبنات يدخلون الدرس الثاني بضجة وصخب وهم يتدافعون ويتصايحون... وأزاء المعلمات اللواتي كن يرتدين أفخر الملابس ويدخلن الصفوف شعرت بضعة ويتقزز... لم تدرك كنههما...

وقدمت نفسها الى المديرة... وكانت أمرأة بدينة تضع عينيها نظارة سميكة... وعندما بالغت المديرة في تقديرها شعرت بوجودها وعادت اليها ثقتها وأجتازت درجات السلم الى الطابق الثاني... ودخلت الصف الرابع...

أنه عالم جديد تدخله لأول مرة... مزيج من الطلاب والطالبات حشروا في الصف حشراً... تطلع اليها عيون صغيرة قلقة... كأنها تقيس جسمها النحيل المتوسط الطول... وتقرأ مدى بأس عينيها السوداوين العميقتين في وجهها الشاحب المدور... لأجل هؤلاء إذن قضت ثلاث سنوات بين جدران صف كهذا؟

شعرت بأحساسات غريبة... بحب غريب نحو هؤلاء الاطفال الصغار... وأجتاحتها رغبة في ان تضمهم واحداً واحداً الى صدرها... وأستغربت فيهم ذلك الصمت العميق ولكنها أدركت بفطنتها ان هذا الصمت إنما هو علامة الاستطلاع ليس إلا... وخشيت ان تعقب هذا الصمت عاصفة من الصعب تهدئتها... وأجالت بصرها في العيون الصغيرة كأنها تريد ان تلقي سؤالاً... ولكنها قبل

ان تتفوه بأي شيء... فوجئت بحركة... أدركت فوراً أنها من باب جس النبض... وصوبت نظراتها نحو مصدرها بعدم أهتمام كأنها كانت تتوقع حدوثها في أية لحظة... وأرتسم على شفتيها الرقيقتين ظل ابتسامة خفيفة... حين وجدت طفلاً بديناً ملقى على الأرض عبثاً يحاول النهوض على قدميه... وحين وقف توجه اليها محتجاً..

– ست... هذه الطالبة دفعتني...

– لماذا دفعتك؟

– قالت لي... أسأل المعلمة عن أسمها... وحين أمتنعت دفعتني..

وأرتبكت الفتاة الصغيرة الجالسة بجنبه وقالت على الفور:

– لا لا... ست أنا لَمْ أقل ذلك...

وبدأ في عينيها القلقتين الخوف الغريزي الشديد... وحين أقتربت المطبقة منها... أعتقدت أنها ستنهال عليها ضرباً... وحزّ في نفسها كثيراً حين رأتها تخفي وجهها... وتمد يديها الى الأمام بفزع ورعب كأنها تدفع عن نفسها الضرب... وشعرت نحوها بشفقة كبيرة تركت في قلبها أثراً عميقاً... ولم تدر لماذا ران على الصف صمت عميق... فقد كانت العيون الصغيرة السود لم تزل قلقة تتوجس الخوف... وهي ترقبها بحذر وأهتمام كأنها تريد ان تقرر مصيرها معها بصورة قاطعة دون ان تترك مجالاً للمساومة... أن أحداً من أصحاب العيون الصغيرة لا يريد ان يكون ضحية في الموضوع... إلا أنهم أبدوا أستغرابهم الشديد حين رأوا خصمهم الجديد يتقرب من الطالبة التي دفعت ذلك الطالب البدين فبدلاً من أن تنهال عليها بالضرب الموجع تمسح رأسها بحنان وتقول:

– لماذا تخافين؟.. أنا لا أضربك... أنا لا أضرب أحداً... وإذا أردت ان تعرفي أسمي... فإن أسمي (سعاد)...

– ست سعاد... عالية أحمد تقول ان المعلمة قريبتي... قالت ذلك تلميذة نحيلة ذات عينين ضيقتين وهي تبتسم...

– أنا لست قريبة عالية فقط.. أنا قريبة هذا الصف كله...

وأجاب تلميذ صغير يبعث رأسه الكبير البيضوي على الضحك:

– وهل أدور حنا أيضاً قريبك؟

– قلت كلنا في هذا الصف أقارب... من الآن فصاعداً سنكون أقارب... وسرت الحركة في كيان الصف... حركة مبعثها ثقة من الصعب ان يوليها أي صف بهذه السرعة لأي خصم قادم... وقامت

تلميذة أخرى لتطرح سؤالها... كأنها نادمة على فرصة أفلتت عبثاً:

– ست سعاد... لماذا لم تأتنا من أول السنة... أين كنت طيلة هذه المدة؟

وشعرت بحرج أزاء هذا السؤال... هل تصرحهم بأنها ليست معلمة حقيقة... وأنها ليست سوى طالبة مثلهن ولكن كبيرة... جاءت الى هنا تتمرن على التعليم... تتعلم طريقته في هذا الصف؟... أم لماذا؟... ولكن... لا... أنها لا تريد أن تخدع هؤلاء الصغار الأبرياء...

– أنا؟... أنا لست معلمة... أنا طالبة مثلكن كنت أداوم طيلة هذه المدة في دار المعلمات... وسوف أكون معلمة في السنة القادمة؟

– وهل ستأتين الينا في السنة القادمة؟

– ذلك ليس بيدي... أنهم هم الذين يرسلوننا الى المدارس التي يختارونها.

وأرادت التلميذة ان تسألها أشياء أخرى أبعد وأعمق من أن تتصورها مخيلتها الصغيرة... إلا أنها شعرت بخيبة أمل لم تدرك سببها...

وشعرت المطبقة كأن تلك الحركة المرحة المفاجئة التي أجتاحت كيان الصف قد خبث جذوتها... وعاد الى العيون الصغيرة قلقها وحذرها مرة أخرى كأنها تستعد لامتحان آخر... وأمتلكها شعور مفاجيء لهذا الانقلاب في الصف... وتذكرت حادثة الطالبة الغيور... وموقف المدرسة منها... وحسد بعض الطالبات لها... ترى هل ستخيب ظن الست نجيبة فيها؟... أنها تريد ان ينطلق الصف... أن يمرح الأطفال بلا خوف... ويحدثوا ضجة تصم الآذان... أنها تريد أن تتعرف الى ميولهم وطبائعهم من خلال الضوضاء... ولكن ما الذي دعاهم الى الأستغراق في هذا الصمت المريب؟... هل هم متأدبون الى هذا الحد؟... أنها تشك في ذلك...

وبدأت تذرع أرض الغرفة جيئة وذهاباً وهي تفكر في إيجاد مخرج تكسب به من جديد ثقة هؤلاء الصغار الشياطين بصورة طبيعية... دون ان يلفت من يدها زمام الصف.

١٩٦١

في الطريق إلى القرية

وأخيراً أستطاع أن يعرف أين تقع قرية «م»... وقد أستغرق ذلك منه حوالي أربع ساعات وهو يتنقل بحقيبته القديمة بين هذا «الكَراج» وذاك باحثاً عن قرية مجهولة لا يدري في أي مكان تقبع من أطراف اللواء... وكلما سأل أحدهم عنها تلعثم ونسي اسمها... فيلتجيء إلى الأمر الاداري ليبحث عن الأسم... وبعد ان كلت قدماه... وكادت تشل ذراعه استطاع بعد السؤال من هذا وذاك ان يصل إلى القهوة الشعبية التي أعتادت سيارة القرية أن تقف أمامها يومياً... وبعد أن قدم نفسه للسائق وتسلم هذا الحقيبة منه أتفقا أن يحضر إلى القهوة في الوقت المناسب... وبعد ثلاث ساعات كان قد أتخذ مكانه قرب السائق وكانت السيارة قد امتلأت بالفلاحين وكان بعضهم يتحدث اليه كما لو أنه يعرفه من قبل... وكانت الوجوه التي لفحتها أشعة الشمس رغم قسوتها تبدو طيبة تعكس ما في قلوبهم من بساطة وسذاجة... وأقترب منه رجل تكسو وجهه لحية خفيفة وقد لف رأسه بيشماغ عتيق:

– أفندي... أنت معلمنا الجديد... أليس كذلك؟

– نعم...

– أرجو أن تكون سعيداً في قريتنا... لقد كان معلمنا متذمراً في العام الماضي...

– وهل هو الآن هناك... في قرية؟.

– لا... ان مدرستنا فتحت في العام الماضي... ولا تزال القرية تنتظر معلماً حتى الآن ...

– هل قريتكم جميلة؟

– في نظري انها جميلة... رغم إننا نشرب الماء المالح من البئر!...

وتحركت السيارة القديمة المثقلة بالكتل البشرية... وراحت تجر نفسها جراً في الشوارع المزدحمة ... وفي بعض الأحيان كانت تميل ميلاناً مخيفاً... بحيث كان يضع يده على قلبه... ويخشى إن تنقلب بما فيها ويفارق الحياة قبل أن يبدأ المرحلة الأولى من حياته العملية... وكان ضجيج المحرك يسيطر على حواسه وأفكاره... وهو يتأمل الأفق الأزرق... والابراج المتناثرة على جانبي الطريق... وألسنة اللهيب التي تنبعث من جوف الأرض... كان نسيم منعش يهب على وجهه فيوقظ في نفسه ذكريات عزيزة كانت تنسيه المتاعب والهموم... وكانت صورة حبيبة الى نفسه تتراقص أمام ناظريه عبر الفراغ بعينها السوداوين العميقتين... وشعرها الأسود ووجهها الذي يستغرق أبداً

في عالم من التأمل... إنها خيال بعيد على كل حال... يشع هناك... في بغداد... مدينة الأضواء... ولا يدري لماذا كان تفكيره يدعوه إلى ان يتشاءم من القرية ويصورها تصويراً مشوهاً... فقد خيل اليه أن أهلها غلاظ الطبع... قساة... لا يعرفون العاطفة... يشمئزون من إنسان غريب دخيل على حياتهم الرتيبة... وتصور بأنه سوف يتحطم في وحدته ووحشته... وقفزت إلى ذهنه فجأة مشكلة أخرى... أنه لم يجلب معه الفراش... وليس ثمة معلم في القرية... أين ينام؟... أنه لا يعرف أحداً فيها... وفيما هو مستغرق في تفكيره العميق... يتأمل الأفق... لكزه السائق بمرفقه... وهو عريف متقاعد لا يبدو عليه أنه عمل في الجيش عشرون عاماً كما يدّعي هو... قال وهو يبتسم إبتسامة ماكرة:

– أفندي... أنظر هذه هي القرية لقد وصلنا... تلك هي فتاة حسناء تنقل الماء من البئر... هل سبق لك أن رأيت مثلها في مدينتكم؟... أوه... ولكن فتيات المدن يشبهن الدجاج البري!... ولم يستطع أن يرده سوى بأبتسامة مماثلة لإبتسامته الساذجة... وكانت القرية تقبع خلف مرتفع يتبعه منخفض عميق تمر منه سيول الشتاء لتصب فيما بعد في الزاب الصغير واستغرب حين وجد أمام كل كوخ رقعة صغيرة من الأرض فسيحة تتخللها سيقان القصب وبعض الشجرات... وبدت له تلك الخضرة في تلك اللحظة بمثابة عين من الماء العذب في صحراء لا ماء فيها... واهتزت السيارة وترنحت وبعد أن أحدثت أصوات مزعجة توقفت عن السير أمام باب كبير أرتفعت أمامه شجرة كالبتوس. وحين أطفئ المحرك خيل اليه أن خلايا النحل قد تلاشت في مخه... وعندما ترجل تجمع حوله القرويون و بدأوا يصافحونه و يستبشرون بمقدمه... كأنهم كانوا على موعد معه وكانت الشفاه تبتسم... والعيون تنم عن طيبة عميقة... عند ذلك علم بأنه قد أخطأ في ظنه في الطريق... وأخذت الحقيبة من يده إلى البيت ذات الباب الكبير... ثم تقدم رجل يناهز الخميس والابتسامة تعلو شفتيه وقال كالمنتصر الواثق من نفسه موجهاً كلامه إلى الواقفين:

– ألمْ أقل لكم ان الحكومة لابد ان ترسل لنا المعلم... ثم وجه كلامه اليه:

– انهم يجعلون انفسهم اغبياء... كأنهم لم يروا الدنيا... ويدّعون بان الحكومة ستغلق المدرسة... وقال احدهم:

– ان هذه الدعاية لم ينشرها سوى كوخا نجم... ولم يشعر الا وهو يدخل مع ذلك الرجل إلى البيت ذي الباب الكبير... وكانت الشمس قد اختفت وراء الافق... وبدأت الظلمة تلف القرية ... وعرف ان صاحب البيت هو رئيس الجمعية الفلاحية في القرية... وكان يتحدث بطلاقة واثقاً من المعلوماته الأولية عن مبادىء الثورة... كانت الغرفة صغيرة بعض الشيء، لصقت على جدارنها مختلف التصاوير والجرائد القديمة... وكان يشعر ببعض الارتياح لهذا الجو الذي لم يعهده من قبل.

فقد كان في الطريق يفكر تفكيراً عميقاً في حياته المقبلة في القرية... وكيف يعيش؟... كيف تمضي أيامه الطويلة التي اعتاد ان يقضيها بالتسكع في المقاهي والسينمات والشوارع... كان يعتقد ان الفراغ الذي ينتظره في القرية سيبتلعه لا محالة... وهل يمكنه ان يترك امه واخوانه الصغار الذين لا يطيق مفارقتهم؟... كانت الافكار تضطرب في ذهنة وتجره إلى مختلف الاتجاهات... تارة يتذمر... ويثور في نفسه على هذا المصير الذي هو فيه أين كان وما الذي اتاه القرية... وكيف يستطيع العيش هنا في هذا العالم الذي يبدو كما لو أنه في اوائل القرن السابع عشر؟... وتارة اخرى كان يشعر بالهدوء ينتشر في اعصابه و بأنه سيعيش هنا هادئاً بعيداً عن صخب المدينة وضجيجها ولا يدري لماذا كان القلق يتسرب إلى كيانه حين كان يتذكر المدينة.

كان كل شيء هادئاً ساكناً وكانت الظلمة قد خيّمت على القرية... وجاءت فتاة رشيقة سمراء واشعلت المصباح النفطي فأخذ يرسل نوراً باهتاً خلال ذبالته المتراقصة... وبعد قليل جاء طفل يناهز التاسعة يحمل ابريقاً وصحناً وبدأ يصب الماء على يديه وقال المضيف بعد ان انتهى الضيف من غسل وجهه و يديه:

– افندي انه خادمك... وأحد طلابك... ورفع نظره اليه قائلاً:

– في اي صف أنت؟

– الصف الثاني... وكنت الثاني في الصف...

– أحسنت... هل تستطيع ان تنشد نشيداً ما؟ وتلاشى الخجل من وجه الصبي وقال:

– هل تريدني ان أنشد الآن؟

– هيا ابدأ... وبصوت رقيق بدأ الطفل ينشد نشيداً كردياً... وقاطعه دخول رجل مهيب ذو لحية بيضاء تتدلى من يده سبحة طويلة وعلم انه إمام جامع القرية... وبدأ يصافحه ويرحب به... ويؤكد مراراً بأستبشاره بقدومه ثم تلا ذلك قدوم رجال آخرين... كان يشعر أنه غير الانسان الذي كانه من قبل... وشعر أن هؤلاء الذين يحيطون به اناس بسطاء غير الذين تصورهم من قبل... انه ليشعر بالحب العميق تجاههم لأول وهلة... وتذكر غضبه الشديد حين علم بتعيينه في هذه القرية البعيدة... ومقابلته لمدير المعارف واحتجاجه لهذا الاجحاف بحقه... وطلب منه الالتحاق ثم الاعتراض بعد ذلك وكان متأكداً من تعيينه بعد الاعتراض في قرية تبعد نصف ساعه بالدراجة عن بلدته... ولم يدر كنه تلك القوة السحرية التي دفعته في تلك الليلة إلى ان يقرر في نفسه عدم الاعتراض على هذا التعيين... وان يبقى هناك يخدم ابناء القرية مهما كانت الامور... وبعد حديث غير قصير، وكان الجوع قد اخذ منه مأخذاً كبيراً... جيء بعدة صحون من الرز... تتخللها دجاجة محمرة تتصاعد منها رائحة نفاذة... وأكل بشهية لم يعدها من قبل... وحين بدأ الاصدقاء الجدد

يغادرون المكان واحداً تلو الآخر طلب منه صاحب البيت ان ينام ويستريح... إلا انه قبل ان ينام خرج لقضاء حاجة... كانت السماء رائعة جداً... النجوم تتلألأ بقوة... والقمر الشامخ يسطع في اعماق الظلام... شبهه في تلك اللحظة بوجه حبيبته... ذلك الوجه الذي يرى أنه يضيء ظلمات حياته وينشر في جوانبها الدفء والحرارة... وتساءل في نفسه... ترى ماذا تفعل هي الآن؟... اتراها تتأمل نفس القمر... ربما هي لا تشعر بحبه... ولا تدري بما يضطرم في قلبه... وذهب إلى فراشه وكان وثيراً بعض الشيء... ونام... نام نوماً عميقاً... وحلم حلماً جميلاً... في تلك الليلة الصافية المقمرة... ولأول مرة رأى وجهها المضيء في الحلم... انه كتلة من الضياء... ولا يدري بعد ذلك كيف كانت السعادة تغمر قلبه وكيانه...

الاعصار

بمحاذاة الوادي الطويل الممتد... وعلى الطريق الضيق الترابي الذي يشق كتلاً من الحشائش... والذي يبدو مثل شريط طويل على شفة الوادي المتآكلة... كانت قدماه تتركان آثاراً واضحة تند عن بطء الخطوات التي يمشيها صاحبها... فكأن ثقل المعطف الأسود الكبير الذي القاه على كتفيه يحول دون أن يسرع في خطاه... ثمة نسيم بارد يحرك ذيل معطفه ويشيع موجة من رجفة غير طبيعية في جسده رغم اعتدال الجو... وحتى اذا غابت الشمس التى ترسل اشعة صفراء دافئة فان الجو سيبقي معتدلاً... ولكنه رأى ان يسرع الخطى قبل ان تغيب الشمس سيما وانه قد ابتعد عن القرية... وعلى ربوة بالقرب من الآبار المالحة كان قد اجتمع اطفال يقرؤن بصوت عال... وعرف انهم يعملون ذلك من اجل ان يثبتوا لمعلمهم مدى اهتمامهم بدروسهم... وانطبعت على شفتيه الممتلئتين ابتسامة عريضة... إلا ان تلك الابتسامة لم تستطع ان تبدد ذلك الضجر الذي كان يلف قلبه... ويعصره بيديه القويتين... انه نفس الطريق الترابي الضّيق الذي اعتاد أن يتمشي عله في كل مساء... وكثيرا ما كان يشاركه احد ابناء القرية في مشيته هذه الا انه يحب ان يخرج وحده يستعيد ذكرياته . ويمضغها دون ان يعكر عليه أحد صفو تفكيره... او في احيان كثيرة يخرج ابعد بحيث تتلاشى معالم القرية خلف الوديان الكثيرة... ويبدأ بالتحدث من تلقاء نفسه بصوت عال... ان نفسه لتبدو غريبة عنه... وكل شيء في ذاته يكاد يختلف و يتخذ طابعاً جديداً... ورغم شعوره بالوحده القاسية في بعض الاحيان فان الضجر اليائس لم يسبق ان اجتاح كيانه ولم يشعر بالتمرد في ذاته فكأن قوة خارقة قد وهبته نوعاً من القابلية او شيئاً اشبه بذلك... بحيث تحول دون ان ينتفض على نفسه... انه يشعر رغم كل شيء ان يومه يسير بصورة اعتيادية رتيباً مملاً... واجتاز المرتفع نحو بيوت العرب... ثمة درباً يؤدي إلى كوخه من بين البيوت الطينية الملتصقة بالأرض حيث بيوت الاكراد. إلا انه لا يستطيع ان يمر من هذا الدرب لوجود كلاب شرسة لا تعرف الرحمة... فيضطر إلى ان يدور حول مجموعة من البيوت ماراً بالمدرسة ليصل إلى مسكنه... والتقى بجماعة من اهل القرية. وراح يستفسر عن احوالهم عجيب أمره بين هؤلاء المساكين البسطاء... هذه المخلوقات التي تدعى بشراً... انهم يعتبرونه انساناً عظيماً... عظيماً من جميع النواحي... يعرف كل شيء... كل العلوم... حتى ان يفهم ويعرف اكثر من الحاج قادر إمام جامع القرية... كيف لا والملا نفسه قد اعترف بذلك؟... ان ذلك لأمر غريب... ولكن ماذا يضير ذلك اذا كان هؤلاء يحسدونه على راتبه... راتبه اليتيم الذي لا يدري كيف يطير من بين يديه قبل ان ينتصف الشهر... هيه... افندي...

كيف تصرف كل هذا الراتب؟... اننا نعمل عاماً كاملاً بلا توقف ولا نستطيع ان نجمع راتباً واحداً من رواتبك المستمرة...صحيح... انهم يتكلمون الحقيقة... وتلك مسألة ينبغي التفكير فيها تفكيراً عميقاً... ويتشعب تفكيره إلى نواحي متعددة... ويستولي عليه تفكير آخر اعمق يدعه يتخبط مرة أخرى في لجة من الفوضى الفكرية... وهذا السكون الذي يجمد الزمن في هذا المكان... إنه مرتع خصب للشرود الذهني والتأمل... احياناً يبدو له ان الزمن قد اضرب عن الحركة... وفي احيان اخرى يشعر ان الزمن يدور بسرعة جنونية يكاد يلتهمه التهاماً.

انه يثق بقابليته الغريبة في تحريك الزمن او تجميده... يستطيع ان يصنع الفراغ... كما ويستطيع ان يمحي كل اثر للفراغ ولكنه لا يدري عما اذا كان كل انسان مثله في هذا التفكير؟... وهبت نسمة حركت ذيل معطفه... وكانت العتمة قد لفت القرية... وضباب من الغبار الذي خلقته اقدام الأغنام ارتفع فوق البيوت... وكانت جارته المرأة الخرساء تحييه وتبتسم له... وتأتي بحركات تنم عن شكرها له... لأرساله ابنها الوحيد إلى الطبيب وأنقاذه من الصرع... وطلبت منه ان ينتظر كي تريه الحبوب التي وصفها له الطبيب... وعندما أتت له بالحبوب ظهر زوجها الشيخ الأطرش من خلف الباب المتكون من الصفيح الصدىء بعينيه اللتين أكلتهما التراخوما... وآثار ابتسامة شاحبة تبدو بصعوبة على وجهه الذي كسته لحية بيضاء خفيفة... ومد يده إلى ذقنه ثم أعادها إلى فمه يلثمها وقال بصوت مرتفع:

– أفندي... حفظك اللّه من كل سوء وكثر أمثالك... لقد نجا خادمك من هذا المرض الخبيث والحمد للّه... انه وحيدنا ليس لنا غيره.

وكانت الخرساء تضحك من كل قلبها وتأتي بحركات غير مفهومة... وقبل ان يتخلص صالح أفندي منها جاءت خادمه العجوز وهي تجر نفسها جراً وتقود اغنامها إلى البيت و وقفت معهم وهي تلهث... ورفعت عينيها الذابلتين بصعوبة من تحت اجفانها المتدلية... وقربت شفتيها الغليظتين المفتوحتين من أذن الشيخ الاطرش وصاحت:

– لماذا لم تجلب الدجاج للافندي؟ وفَهِمتْ الخرساء قصدها وحركت رأسها بالأيجاب وهي تضحك... وشعر صالح افندي بحرج شديد... وتغيّرت تعابير وجهه بسرعة شديدة وهو يحدج العجوز بنظرات شزرة... وتقلصت تعابير وجه الخرساء والشيخ إلى نوع من التساؤل الغريب ممزوج بشيء من الخوف وتركهم صالح أفندي إلى مسكنه... ودفع باب الحوش بعصبية بطرف عصاه... ثم فتح غرفته بمفتاحه الخشبي ليستقبله الظلام... وكان النور الذي يتسرب من الكوة الصغيرة الوحيدة عبثاً يحاول ان ينشر الضياء في وسط الغرفة... والقى معطفه على سريره... ورمى عصاه بعيداً في زاوية مظلمة... ثم ألقى بنفسه على السرير... كان شيء ثقيل قد جثم على قلبه... وفكر انه اذا بقي هكذا في مكانه يحدق في السماء من خلال الكوة الصغيرة فان ذلك

الثقيل سوف يمنعه من ان يأتي بأية حركة... وقام من مكانه بسرعة يبحث عن الشخاط... واشعل المصباح الزيتي وكان قد مسح زجاجه قبل خروجه من البيت وملأه بالزيت... ثم اشعل المدفأة و وضع عليها الكتلي... واتكأ على وسادته... وقبل ان يستغرق في التفكير مدَ يده إلى مذياعه الصغير وسحبه نحوه ثم فتحه... الكلام حول لومومبا... الكونغو... البلجيك ... الجزائر... الجيش السري الفرنسي... وداخله شعور بالندم وشعر بغلالة من الحزن تحيط بقلبه... وانه تافه لا قيمة له. وان الحياة كلها تافهة وسخيفة... له فكرة العيش سخافة كبيرة لا معنى لها... وفكر في نفسه ان كل من يعيش في هذا العالم مجنون... وما هذه الحركة الموجودة فوق الارض سوى مهزلة كبرى... أليس من السخف ان يموت الآلاف من الجوع؟... ان يملك انسان واحد مصير ملايين البشر؟... وادار قرص المذياع ليسكت الصوت... وترك الصوت في رأسه اثراً من الاضطراب... انه يشعر بالضيق والحزن كلما سمع شيئاً من هذا القبيل انه يشعر بشيء يضيع عبثاً فيأسف له ولا يدري كنه أسفه... ويجتاحه الندم لعدم استطاعته القيام بأي عمل تجاه ما يقع... وعند ذلك يتعمق اعتقاده في ضعفه... فيرى نفسه يميل إلى العزلة والهدوء والابتعاد عن الناس في بعض الأحيان... ولكن ذلك لا يمنعه من الحنين الى مخالطة الناس والجلوس معهم والتعرف الى مشاكلهم والتحدث عن مشاكله هو اليهم... وجد أن تفكيره يجره إلى نوع من المناقشة الذاتية التي ستؤدي به حتماً إلى نوع من الاضطراب الذهني فرأى أنه من المستحسن ان ينشغل باعداد شيء من الطعام للعشاء... فحار في أمره... ماذا يأكل ؟... لقد ملّ البيض... وفيما هو في تفكيره ذاك... دخلت العجوز وكانت تمشي مثل البط وقالت بأرتياح:

– ها... وضعت الكتلي على المدفأة؟... حسناً... انك توفر لي كثيراً من العناء... أنت دائماً نشط خفيف العظم... ان الفتاة التي ستتزوج منك سترتاح كثيراً لابد أنها محظوظة وعند ذكر أسم الفتاة شعر بنوع من الارتياح... وشرد ذهنه بعيداً وأراد أن يقول لها شيئاً إلا أنه آثر الصمت... وقالت وهي ترفع بعض الأواني لتغير محلاتها:

– أعرف انك اليوم تأثرت مني... ولكن لا داعي لهذا التأثر...

– أنت تسببين لي الحرج في بعض الأحيان ...

– ولكنني لم أقل شيئاً اكثر مما قلته قبل قليل...

– وهل ما قلته كان كلاماً قليلاً؟... انك تتخذين مني وسيلة للتسول...

– أوه... ان هذا ليس تسولاً ان لك عليهم فضلاً لا يعوض... أنت تفقد نور عيونك من أجل أولادهم وتقضي النهار كله بين ضجيجهم ولغوهم فماذا يضيرهم لو جاؤوك بدجاجة بين حين وآخر؟ ثم انك أنقذت أبن الأطرش من الموت... ان ملا شريف يطلب منهم كل شيء بنفسه وبقوة... فلماذا ترفض انت كل شيء؟...

– انا لست ملا... ان راتبي يكفيني... ولا ضمير لمن يطمع في اموال هؤلاء الفقراء؟...

– انا لم اسمع مثل هذا الكلام من قبل ...

– اسمعيه جيداً اذن...

– حقا انك لانسان عجيب وطيب... انك ستوقف في حياتك... انا عرفت ذلك عند اول رؤيتي لك... على كل حال انا المخطئة...

– المهم ان لا يتكرر الخطأ مرة ثانية... والتفت العجوز حواليها... فلم تر شيئاً جاهزاً للأكل وقالت:

– والآن ماذا تأكل؟ لقد طبخت شيئاً من البرغل مع البصل المشوي والدهن الجيد... لا ادري هل يعجبك ام لا ؟... أن له مذاقاً جيداً قبل شرب الشاي...

– طالما هو موجود فأحضري لي منه شيئاً... ولكنني لا استطيع ان آكل منه اكثر من ملعقتين... اغسلي الصحن جيداً... وشعرت بالنصر قائلة:

– لا توجد في القرية امرأة تستطيع ان تطبخ البرغل مثلي...

– طبعاً... طبعاً... لقد قالوا لي ذلك قبل ان اصل إلى القرية... وخرجت من الباب الصغير بسرعة وقال من ورائه:

– ننه[1] ... لا تسرعي انا لست مسؤولاً اذا وقعت في الحفرة... وجاء صوتها من الخارج:

– كم مرة قلت لك احضر طلابك الكبار ليملأ وا هذه الحفرة... انك ستدفنني يوماً فيها وأنا حية...

– لا تخافي... لا تخافي... ان الموت اجبن من ان يقترب منك...

•••

وجلست العجوز مثل البوم وراء المدفأة بينما تمدد هو على سريره مستنداً على الحائط والمصباح الزيتي المعلق على الجدار قرب رأسه يرسل نوراً متراقصاً فيبدو جانب من وجهه المدور مضيئاً ذا قسمات كئيبة... وكانت الغرفة شبه معتمة وظلال كبيرة تسقط على الزوايا... ومويجات من النور تتكسر على السقف الأسود الذي يشبه جوف الظلام الخالي من النجوم...وشعر بشيء ثقيل يعصر قلبه... وبكآبة تلفه لفاً محكماً... كل الأماسي التي تمر به ثقيلة مضجرة... ولكن هذا المساء يبدو له اثقل واضجر... حتى الراديو والمطالعة لا يفيد انه في التخلص من هذا الضجر... وصبت له العجوز قدحاً من الشاي وقدمته له... قائلة:

– انت دائما صامت... لماذا لا تتحدث؟. ان السكوت يضر الانسان...

---

(١) الجدة

– فيم تريدينني أن اتحدث ...

– تكلم في كل شيء...

– حتى بالكلام الفارغ؟...

– الكلام الفارغ احسن من ان نجلس كأننا في عزاء...

– ولكن ماذا افعل إذا كنت لا احسن ترتيب الكلام الفارغ؟

– ابني انا لست صغيرة... ان حفيدي على الأقل سيتزوج هذه السنة... انا رأيت الدنيا... واعرف الكثير... واعرف جيداً ماذا تحمل في قلبك من الكلام... ان الكلام سيرفه عنك... تكلم بحرية انا مثل امك... وابتسم في قرارة نفسه لفطنة العجوز وقال:

– حقيقة ان قلبك لم يزل شاباً رغم كبر سنك...

– انا لست غبية يا ابني... الذي يأكل مقدار كيلو من الخبز يملك على الأقل أوقية من العقل...

– انت عظيمة يا ننه...

– انا اعرف يا ابني... ان لك مشكلة تخفيها عني... تكلم... قد استطيع ان اضع حلاً لمشكلتك انا مثل امك... وفي الحقيقة كانت له مشكلة كبيرة تقف كجبل شامخ امام آفاق تفكيره يحول دون ان يرى ابعد من ذلك ... بل وانصهرت جميع مشاكله الاخرى في بوتقة تلك المشكلة التي اصبحت مدار تفكيره... وشعر ان المشكلة قد تجسمت اكثر فاكثر وان مبعث ذلك هو هذه الوحدة التي تلف حياته... وكان يبحث عن شخص يفهمه فهماً جيداً... ليتحدث اليه عن مشاكله... لابل اصبحت عنده رغبة جارفة في افراغ ما يجيش في صدره لأي شخص كان... واعتدل «صالح» في جلسته وهو يرتشف الشاي المتبقي في قاع القدح...والقى نظرة خاصة على العجوز... نظرة جديدة... فكأنها قد توصلت إلى طرف الخيط الذي ضاع في اعماق وجدانه وفكر في ان لهذه العجوز تجارب في الحياة وخبرة غير قليلة قد تستطيع ان تساهم ولو بقسط قليل في حل مشكلته... وقال لها:

– ننه... انت اذن تعرفين الشيء الكثير...

– حتى وان لم اعرف الشيء الكثير... فانني على الأقل عشت اكثر من سبعين سنة...

– عمر طويل... ولكن يا ننه ان النساء لا يقلن الحقيقة عن اعمارهن فكيف تقولين انت الحقيقة...

– انا لست امرأة يا ابني... انا رجل...

– لماذا تتبرئين من جنسك يا ننه... هل المرأة مكروهة عندك الى هذه الدرجة...

– بل واكثر من ذلك...

– لالا... يا ننه... انت مخطئة في تفكيرك... المرأة اقدس مخلوقة على الأرض...

– ابني انت ما زلت شاباً... لم تتفتح عينك بعد على الحياة...انا اعرف انت تتصور المرأة ملاكاً نازلاً من السماء ولكن اعلم ان هذا الملاك ليس سوى شيطان قبيح...

– انت يا ننه تتهجمين اكثر من الازم على المرأة... خففي من تهجمك على الاقل من اجل نفسك

– إذا كان الانسان يا ابني يستحق شيئاً فَلينل جزاءه من ذلك الشيء... ولكن يظهر انك تعاند مثل ذلك الفلاح المسكين الذي قاسى ما قاسى على يد زوجته...

– ومن هو هذا الفلاح يا ننه؟ واعتدلت العجوز في جلستها كما لو ان امنية لها تحققت وقالت:

«... كان هناك في قديم الزمان فلاح مسكين طيب القلب لم ير اذى من المرأة... وكان ابداً يدافع عن جنس المرأة... وكيف انها طيبة وضعيفة في آن واحد... وكانت زوجته لا توافق على رأيه ابداً وتأتي له بأمثلة كثيرة علي‌شيطنة المرأة وحيلها فلم يفد كل ذلك في اقناع زوجها... بل كان يصر اكثر فاكثر بان المرأة مخلوقة طيبة وذات يوم ارادت الزوجة ان تلقن زوجها درساً قاسياً لعله يكف عن الاعتقاد بطيبة المرأة... فأشترت ثلاث اسماك واخذتها إلى الحقل حيث كان زوجها يحرث الارض... وفي غفلة منه اخفت الاسماك تحت طيات التراب ثم انتحت جانباً وانشغلت بمغزلها وعندما مرَّ عليها الزوج بمحراثه لتقليب التربة ظهرت الاسماك وهي تلمع تحت اشعة الشمس... واندهش الرجل لهذه النعمة التي ارسلها اللّه له في هذه الساعة... وصاح على زوجته ان تأخذ الاسماك الى البيت وتطبخها... وبكل هدوء حملت الزوجة الاسماك ووضعتها في الآنية التي افرغ الزوج ما فيها من الطعام... الى البيت... وفي المساء عاد الرجل الى البيت... وكان قد شحذ اسنانه لأكلة شهية... فقال لزوجته قبل ان يجلس ويستريح:

– هل طبخت الاسماك؟ وقالت بأسغراب كما لو انها لا تعرف شيئاً:

– اسماك؟... اية اسماك؟ وقال الرجل بعصبية كأنه يخاطب شخصاً ثالثاً:

– تقول اية اسماك؟... الاسماك التي خرجت من تحت الارض عندما كنت اقلب التربة.... وبدأت الزوجة ترفع رأسها وتصيح:

– يا ناس... يا عالم... لقد جن زوجي ... انه يريد اسماكه التي خرجت من تحت الارض... واحدثت ضوضاء مفتعلة... وهي تبكي وتولول... وتجمع الجيران حولها واقتنعوا بان الرجل قد اصابه مس من الجنون... واقتادوه بالقوة إلى ملجأ المجانين وهم لا يتورعون من ضربه كلما ابى الانقياد اليهم... وهنا تململ صالح أفندي في مكانه... وصر السرير... وأخذ ينصت بشوق زائد... وهو يضحك:

– وماذا حدث بعد ذلك؟ وقالت العجوز بأعتداد وهي تعتقد انها قد نجحت في ازاحة غلاف الصمت الذي كان يكتنف حياتها... هي التي تعودت على الثرثرة:

– وماذا حدث بعد ذلك؟... طلبت المرأة الابليسة أن يعيدوا لها زوجها فانها تستطيع أن تعيد اليه عقله... وعندما جاء الزوج المسكين الى بيته قالت له زوجته:

أما زلت تعتقد أن المرأة طيبة وضعيفة لا تعرف الحيل(١)؟

واضافت العجوز وكأنها استطاعت ان تقنعه بصحة رأيها:

– هذه هي المرأة يا بني... انها صورة من الشيطان... ولكنني أعرف انك سوف تسخر من كلامي وتقول ان هذه العجوز مصابة بالخرف... وأنها أعطيك الحق ، لأنك لم تذق بعد ضربة المرأة... ولم يجب صالح أفندي... وعقد يديه ووضعها تحت رأسه وتمدد في مكانه وهو يحدق في السقف الاسود... وأطال التحديق. وأخذ رأي العجوز بنظر الأعتبار... رغم عدم ايمانه المطلق به... الا أنه أقر في قرارة نفسه أن المرأة لغز من الألغاز... وانها أحياناً غامضة لا تفهم... وفيما هو يحدق في السقف الأسود، الذي بدأ يرافق حياته منذ مجيئه إلى هذه القرية... عادت به مخيلته إلى الوراء... كان ذلك قبل خمسة أعوام حين كان يسكن مع أخيه المتزوج في بيت صغير في أحد أزقة كركوك الضيقة... وكان البيت يحتوي على أربع غرف صغيرة يسكن هو في احداها وفي الثانية يسكن شقيق زوجته وهو جندي... والثالثة يسكن شقيقه مع زوجته... اما الرابعة فكانت قد أجّرتها إمرأة شقراء لعوب كان زوجها موظف في أحد المشاريع في الشمال وكان يزورها مرة في الشهر تقريباً... كانت غرفتها تطل على الشارع... وكذلك غرفته الصغيرة المثلثة التي كانت تحتوي على سريره بصعوبة... وكان يفصلها الممر المؤدي الى وسط البيت اذ كان البابان متقابلين...

كان اذ ذاك عاطلاً و يداوم في المتوسطة الأهلية ليلاً... وكان يعود إلى البيت حوالي الساعة التاسعة مساء من كل يوم، ويدخل غرفته بكل هدوء دون أن يلتفت يميناً او يساراً حيث عشاؤه البسيط الذي غالباً ما كان يتكون من الخبز والجبن... وقوري الشاي البارد ينتظرانه على المائدة المتهرئة... وبعد أن يتعشى ويشرب الشاي عقب تسخينه على المدفأة السوداء القديمة... كان يتمدد على سريره الخشبي ويحدق في السقف... تماماً كما يفعل الآن... الا ان ذلك السقف لم يكن أسود مثل سقفه الحالي... بل كان رصاصياً ذو إلتواءات غامقة أحدثتها الرطوبة... ومن ثم يغرق في مطالعة كتبه المدرسية أو كتاب خارجي الى وقت متأخر من الليل... وفي اليوم التالي كان يستقيظ متأخراً وبعد تناول الفطور كان يقضي معظم نهاره في القهوة مطلة على السوق، يجلس وحده في ركن منعزل يتأمل المارة من رجال ونساء و باعة متجولين حيث يتجمع النساء حولهم

(١) حكاية شعبية كوردية.

في حلقات... كم عذبته البطالة في تلك الأيام ... وكم كان يتمنى في تلك الأيام أن يعثر على عمل... وأي عمل... يكون مصدر رزقه ومفتاح مستقبله... وكم من أفكار غريبة كانت تجول في ذهنه وهو قابع في تلك القهوة يتأمل العالم بمنظاره الخاص... كانت حياته اذ ذاك خالية من كل مغامرة... يقوم بها أي شاب في مثل سنه السابعة عشرة... ورغم الأفكار التي كانت تجول ذهنه... الا أنه كان قد جعل الكبت رمزاً له... لولا أن المصادفات كانت تضطره أحياناً إلى أن يجرب جرأته... ويدخل في مشاكل قد يخرج منها منتصراً أو منهزماً... وهو يكتسب رأياً خاصاً تجاه المرأة... والآن حيث تصر العجوز على رأيها حول المرأة... تعود به ذكرياته إلى الماضي... وتنتصب صورة المرأة أمامه كلغز من الألغاز... لا يستطيع الانسان أن يحكم عليها برأي معين... كيف لا؟... وذات يوم من الأيام استيقظ كعادته في الساعة التاسعة... وبعد أن أعد الشاي بنفسه وتناول فطوره تمدد على سريره يتصفح مجلة قديمة، إذ دخلت عليه المرأة الشقراء وكانت ترتدي ثياباً قديمة وهي حافية القدمين تتهيأ للأستحمام بعد أن غسلت ملابسها وكانت زوجة أخيه قد ذهب إلى السوق... ولأول مرة شعر بقلبه يخفق خفقاناً غريباً... وصعدت الدماء الى أذنيه ووجهه... وحين رفع نظره إليها كانت تبتسم كما لو أنها إمام طفل... وانعقدت لسانه وأراد أن يتكم في أي موضوع... ولكنه لم يستطيع... كل ذلك يبدو له مثل الحكم... قالت له:

– ألا تستحم؟ وسرى شيء خفي – يشبه ثعباناً لزجاً بارداً في كيانه... وكانت خفقات قلبه تحدث غصة في حلقه بحيث تمنعه من الكلام وحين وضع المجلة على المنضدة. قال وقد خفض بصره:

– ولكن...

– ولكن... ماذا

– لا أستطيع أن استحم الآن...

– لماذا أنت خائف؟

– ومن يقول انا خائف؟...

– أنا أقول أنت خائف...

– هذا بالنسبة لك...

– أنت الآن لا تقل خوفاً عن فأرة مذعورة أمام قطة شرسة.

– أشكرك لقد جعلت مني فأراً...

– أبهذه السرعة يغضب الانسان؟...

– لا لم أغضب...

وتركت الغرفة... دون أن تتكلم... وشعر بشيء يهبط في قلبه إلى أعماقه... شيء يشبه الندم وتصور كأن طيراً عزيزاً غالياً قد أفلت من يده... وبقي مهبوتاً في مكانه لبرهة... وحمل دفتراً من دفاتره المدرسية وترك الغرفة... وصعد السلم إلى السطح ليتأكد من عدم وجود زوجة أخية في الطريق... ولما لم ير لها أثراً... نزل من السطح... كانت هي جالسة في الحمام تغسل الثياب وكانت ساقاها البيضاوان مكشوفتين... وقف أمامها مرتبكاً وهو ينقل بصره بين ساقيها ووجهها... وشعر باللعاب يتدفق من تحت لسانه... أبتسمت له وقالت بعد أن أخفت ساقيها:

– أنت ناقص الرجولة...

– أنا؟... وكيف تثبتين ذلك؟

– لا تغضب أنا أمزح معك...

– أنت غريبة الأطوار جداً...

– بالعكس... لأنك أنت الذي تغضب لأقل كلام ...

– من المستحيل أن أغضب من الكلام أنت... أليس من الحمق ان يغضب الانسان من كلام إمرأة مثلك؟...

– إذن فأنت الأحمق... ولم يستطع ان يكتم غضبه وقال بعصبية:

– لماذا؟... وقهقهت...

– أنت تناقض نفسك بنفسك... على كل حال... لماذا تعتبر الغضب مستحيلاً من كلامي؟...

– لأنك...

– ماذا لأنك... تكلم...

– لأنك أجمل من رأيت... وقهقهت مرة أخرى:

– أنت أيضاً تتغزل بي أيها الشيطان؟ وقال بارتباك وهو يخشى الفضيحة:

– ليس هذا غزلاً...

وابتسمت بمعنى... وشعر بشيء غريب في ابتسامتها... وكان في طرف لسانه كلمة، عبثاً كان يحاول أن يطلقها... الا أن عينيها العسليتين اللتين كانتا تتأملانه بعمق شجعتاه على النطق:

– رمزية... أنا... أنا أحبك... وكأن ذلك كان شيئاً اعتيادياً بالنسبة لها... وأبتسمت وبدت أسنانها البيضاء وقالت كما لو أنها تخاطب طفلاً:

– تحبني؟

– طبعاً... وأكثر من أي شيء في الدنيا...

– وحتى أكثر من حبك لأمك؟... وشعر بشيء من الحرج... إلا أنه رأى أن مصلحته تقتضي المساومة وقال:

– طبعاً...

– حسناً... تحبني وماذا بعد؟

وشعر في نفسه أنه ليس أقل من عصفور بليد في كفها تلعب به كيفما تشاء... ولم يدر لماذا وجد نفسه في تلك اللحظة في موقف مخزي وخجل من نفسه... وراوده شعور بالأثم... وبقي صامتاً في مكانه كأنه قد تسمر وبصورة لا ارادية جرته قدماه إلى غرفته... ووجد نفسه ملقى على سريره يحدق في السقف الرصاصي الذي كونت عليه البقع الغامقة أشكالاً مختلفة... وتبعته إلى غرفته وهي تضحك وقالت:

– لماذا أنهزمت أيها الصبي؟ أبهذه الحال تريد أن تحصل على ما تريد؟ ولم يتكلم... ذلك ما يترآءى الآن... ويترآءى بكل وضوح وإلى الآن لم يستطع ان يفهم لغز تلك المرأة... أو يفهم قصدها... وبعد يومين من ذلك الحادث... حدث شيء آخر... وبعد أن ألتفت إلى العجوز التي كانت منشغلة بلف لفاتها... بدأ يحدق في أعماق السقف الأسود... ومن خلال الأوراق اليابسة المكتسية بالسخام... ترآءت له صور ماضية... وبعد يومين من ذلك الحادث... وكانت الساعة تشير إلى حوالي التاسعة مساء عندما عاد من المدرسة متأبطاً كتبه... وعاتبته لعدم زيارته لها في غرفتها وهي تقول:

– أنت قليل الوفاء... واستغرب منها ذلك... وهو يتجاهل غرضها وقال لها بخبث:

– ولكن ماذا افعل عندك...

– تعال أجلس أمام النار وأقرأ دروسك...

– أقرأ دروسي؟ ومن يقول أستطيع أن أقرأ دروسي وأنت جالسة أمامي ؟...

– لماذا؟...

– لأنني سأحتار بين أن اتطلع في وجهك وأنظر في الكتاب...

– أهكذا أنت معجب بي؟

– واكثر...

– ولكن سبق وأن قلت لك إنك ناقص الرجولة... وأعقبت كلامها بضحكة خبيثة... واستفز ذلك شعوره بشدة... وقال لها وهو ينصرف إلى غرفته:

– حسناً... سأريك رجولتي... ودخل غرفته وأغلق الباب وراءه ونزع ملابسه بسرعة ووضع القوري علي المدفأة... وتمدد في مكانه وهو يمضغ قطعة من الجبن... كانت أفكاره كلها في تلك اللحظة تنحصر في شيء واحد فقط هو التفكير في رمزية هذه المرأة الشقراء الغامضة وهو يحدق في السقف تماماً كما يفعل الآن... وهو ممدد على سريره يحدق في السقف الأسود يفكر في نفس الشيء... والمصباح الزيتي المعلق على الجدار يرسل نوراً باهتاً... يعكس النور القوي الذي كان يرسله المصباح الكهربائي المتألق قبل خمس سنوات في غرفته الصغير المثلثة...

وبعد تناول عشائه كتب بعض واجباته المدرسية مكرهاً وبسرعة... كأنه على موعد هام... وشعر أنه ينجذب إلى رمزية تحت تأثير قوة خفية أو كأن تحدياً ما يوجد في الموضوع رغم حذره الشديد من زوجة أخيه...كانت الساعة حوالي العاشرة حين ترك غرفته... كان شقيقه في العمل وتأكد من إنطفاء النور... ان زوجة اخيه نائمة... وغسل أسنانه بالفرشاة... ولم يدر بالذات لماذا اهتم بغسل أسنانه في تلك الساعة وكانت الحنفية تقع قبالة غرفتها... وبعد أن وضع الفرشاة في مكانها ومسح يديه وفمه شعر برهبة تحيط بقلبه... وأن نفسه يضيق... وأطفأ المصباح... وأغلق الباب من ورائه برفق... ودفع باب غرفتها ببطء دون أن يحدث أي صوت وتسلل إلى داخل الغرفة مثل أي لص ثم أغلق الباب من ورائه تماماً كما فتحه... كان ضوء في غرفتها أقوي وهو يغمر الستائر البنفسجية المنسدلة على النافذتين المطلتين على الشارع... وكان السرير الواسع قد أحتل ثلاثة أرباع الغرفة... كان وثيراً ومغرياً... وكان قد نامت عليه اختها الصغيرة التي لا تجاوز الرابعة من عمرها... وفي الفسحة المتبقية من أرض الغرفة جلست هي قرب المنقلة وكانت جمراتها لم تزل متوجهة قوية تبعث الدفء في الغرفة... قال لها وكأنه يريد أن يدخل معركة ما :

– مساء الخير...

– اهلا... مساء النور... كانت هذه هي المرة الأولى التي يدخل فيها غرفتها ليشاركها في الجلوس لذلك بدت له غرفتها غريبة:

– غرفتك جميلة...

– لكنها لا تبدو لي كذلك..

– لأنك ترينها بصورة مستمرة...

– وهل يفقد الشيء جماله إذا رؤي بصورة مستمرة؟

– تقريبا...

– وكيف؟

– لا أدري... كم أنت مشتاقة الى الجري وراء الكلام؟

– أعتقد هذه هي المرة الأولى التي تأتي فيها إلى غرفتي ...

– لقد سبق أن جئت ذات مرة... وصلحت لك «بلاك» المصباح...

– ولكن ذلك لم يكن زيارة... أنت تستطيع أن تأتي إلى هنا كل ليلة... وتقرأ دروسك عندي... شعر أنها قالت ذلك ببراءة... إلا أنه كان قد صمم أن لا يفلت من يده أية فرصة سانحة دون أن يستغلها وقال:

– ولكنني لا أستطيع أن أفهم هنا ولا واحدة من دروسي...

– ولماذا؟

– وهل يستطيع الانسان أن يقرأ وأنت جالسه أمامه... إنه يحتار بين أن ينظر اليك أو ينظر في الكتاب... قال ذلك رغماً عنه... وسكتت هي وشعر أن جرأته تسانده بكل حزم

– الا تخافين وأنت تنامين وحدك في هذه الغرفة؟

– ولكنكم أنتم حولي ...

– أن الانسان يشعر احياناً بالخوف إذا وجد نفسه وحيداً في مكان ما... وخاصة في الليل...

– صحيح... وماذا أفعل...

– أنا لا أقبل أن تبقي وحدك في هذه الغرفة...

– واذا لم تقبل... فماذا تستطيع أن تفعل؟

– سأبقي وأنام عندك...

– وماذا يفيدني نومك عندي؟

– على الاقل سوف لا تتصورين أن شبحاً من الاشباح سيداهمك!...

– ان كثرة بقائي وحيدة عودتني على الشجاعة...

– الا تشعرين بالضجر من الوحدة؟

– لا أدري ...

– اذن تشعرين بالضجر...

كانا متقابلين وجهاً لوجه لا يفصلها سوى المنقلة... وقد تشابكت أيديهما فوق النار... بعد أن تلامست عدة مرات... شعر بحرارة يديها تشيع نشوة عارمة في جسده... وكان السكون الشامل يوحي اليه بأحساسات غريبة... وكانت جرأته قد وصلت إلى درجة لم يكن يتصورها من قبل...

وأدرك أنه قد سيطر عليها وكان الزمن يسير بسرعة فائقة... ونظر إلى ساعته... كانت تشير إلى الحادية عشرة... قالت له:

– كم الساعة؟

– الحادية عشرة..

– لقد جلسنا كثيراً...

– لم أشعر إننا جلسنا كثيراً... ان لهجتك توحي بالطرد...

– لا تفسر الأشياء بصورة مقلوبة...

– حتى إذا طردتني فانني لا أتركت هنا وحيدة... شعر في اعماقه بقوة تدفعه إلى الحركة وقام من مكانه وجلس على حافة السرير بالقرب منها إذ أنها كانت قد أتكأت على السرير... ووضع يده على كتفها وحين رأى انها لا تمانع قرب يده من عنقها ويدأ يلامسها... كانت النشوة قد غمرته حتى اعماق عظامه... ورفع يده إلى الاعلى ماراً بها وجهها... ثم مرر اصابعة بين جدائل شعرها الأصفر... وقال بصوت عميق :

– ما اجمل شعرك؟ كانت شبه مستسلمة إلا انها كانت كمن تنتظر نهاية ما وقالت:

– هل يعجبك شعري فقط؟

– يعجبني فيك كل شيء... كانت تشعر نحوه بشفقة الأم نحو ولدها... ولم تدرك كنه تلك القوة الخفية التي كانت تمنعها من أن تقاوم... ويلغت نشوته القمة... وحاول أن يقبلها ولكنها منعته وقامت من مكانها متباعدة عنه نحو زاوية الغرفة وهي تدفعه عنها قائلة:

– لا...لا...

– رمزية... انا احبك...

– لا...ليس الآن...

– لماذا؟

– اقول لك ليس الآن...

– لن اترك الغرفة هذه الليلة...

– اقول لك ليس الآن... نظرت اليه باستغراب... وكانت عيناها عميقتين وقالت له بأغراء:

– بعد منتصف الليل... وانزلق شيء غريب إلى قلبه... وفي تلك اللحظة شعر بطعم السعادة الحقيقية... وترك الغرفة... وأغلقت الباب من ورائه... لم يستطع ان ينام... ومرت عليه تلك الفترة الزمنية... بتثاقل... وأخيراً أشارت ساعته إلى النصف بعد منتصف الليل... وقام من مكانه...

وتسلل إلى خارج الغرفة وأصبح أمام باب غرفتها... ودفعه بخفة ولكنه لم ينفتح... وطرقه بظهر وسطاه عدة مرات فلم يسمع أي جواب ثم كرر الطرق... وهمس بأسمها من خلال ثقب المفتاح دون جدوى... وأعاد الطرق مرة أخرى ولكن بشدة... وفوجئ هذه المرة بشيء لم يكن يتوقعه ولطم صوتها العصبي أذنه بشدة:

– ماذا تريد... الا تدعنا ننام؟ ولم يشعر إلا وساقاه تطيران به إلى غرفته... وأندس في فراشه كاتماً انفاسه... وخشي أن تتطور المسألة ولكن لم يحدث أي شيء آخر... وعبثاً حاول أن يفسر هذا الأمر... ولم يستيقظ إلا في الصباح اليوم الثاني... وكان الخجل قد أثقل كاهله وهو لا يدري كيف يترك غرفته ويرى وجهها... وكانت دهشته شديدة حين قالت له اثناء خروجه من الغرفة وهي تبتسم:

– ها... ماذا كنت تريد مني ؟ وقال لها بعصبية:

– ألم تقولي تعالي بعد منتصف الليل؟ وقهقهت بخبث:

– يالك من شيطان عصبي... وفي تلك اللحظة كوّن في نفسه نظرة تجاه المرأة... واعتقد انه لن يثق بالمرأة فيها بعد إلى الأبد... أليست إذن تلك ضربة من ضربات المرأة؟... ان هذه العجوز اذن على حق...

– ها؟... اراك تنظر الى السقف... لعلك تفكر في أمر ما؟.

– لا... لم افكر في اي شيء...

– ئم م م... انا اعرف ... كنت تفكر في حيل المرأة...

– لا... انا لم ازل اعتبر المرأة مخلوقة طيبة...

– ابني... يظهر انك لم تقع بعد في فخ المرأة...وقال في سره:

– ومن يقول انني لم اقع في الفخ... وفخ معقد؟ وتابعت:

– ستقع ذات يوم في الفخ... ان لم تكن قد وقعت فعلاً... بدا له انها تريد ان تسترسل في الثرثرة... الأمر الذي يعكر عليه صفو تفكيره اذ هو يعيش بكل احساسيه، ماضيه مبتعداً عن هذا الواقع فلم يتكلم... واشعل سيكارة وامتص منها كمية من الدخان ثم نفخه باتجاه السقف وكون عموداً من الدخان ما لبث ان تلاشى عبر الفراغ... وكانت نجمة بعيدة تتلألأ... وتترآءى له من خلال الكوَة الصغيرة... كان كل شيء هادئاً... كهدوء المقبرة المرتفعة التي تطل على القرية من الناحية الشرقية... وكان السكون يوحي اليه بأفكار غامضة لم يكن قد شعر بها من قبل... تشبه نفس الأفكار التي تمر بمخيلته حين يخرج لوحده إلى خارج القرية تائهاً شارد الذهن بين حقول القمح والشعير يتأمل الأزهار البرية الملونة... ومجتمعات النمل التي عرضت ذخيرتها للشمس

الساطعة... وكانت الأفكار الغامضة السحرية تصل إلى الذروة حين بلغ سلسلة التلال الخضر ويصعد إلى قممها العالية... ويجلس هناك لوحده يتأمل السهول الممتدة من الجانبين حيث تتلاشي في البعيد عبر ضباب ازرق ويحيط به الرعاة من جميع الجهات وهم يتفثون آلامهم وآمالهم من خلال شباباتهم انغاماً حزينة كئيبة يصعدونها في حلقات نحو امل غامض يعيشون من اجله... لكم هي عجيبة حياة هؤلاء... ترى من اجل اي شيء يعيشون ؟... وحين يقارن حياته مع حياتهم يبدو له فراغاً عجيباً... ومع ذلك فانه يراهم سعداء... بتلك الأغنام... وبتلك الخضرة التي تكتسي وجه الأرض... وربما انهم يشعرون بالسعادة اكثر من أي انسان آخر... وكم من مرة روى له «رمضان» الفلاح الشاب مغامراته مع فتيات القرية... انهم اناس بسطاء حين تلقي عليهم للمرة الأولى يصادقونك وكأنهم انما التقوا بك منذ امد بعيد ولا يتورعون من اي ان يرو وا لك قصص حبهم ومغامراتهم بكل صراحة... تململت العجوز في مكانها... وانزلت الكتلي من على المدفأة وقالت:

– اعطني سيكارة... يظهر انك لم تزل تعتبر المرأة ملاكاً... وقذف لها سيكارة:

– طبعاً... انها ملاك نازل من السماء... وانطبعت ابتسامة على وجهها المتغضن:

– انها ملاك حين لم توقعك بعد في حبائلها... وحين تتأكد من أنك قد وقعت فعلا في الفخ ستنقلب عليك عنكبوتاً هائجة...

– كل النساء اذن عناكب؟

– كل النساء...

– وحتى انت؟

– انا العنكبوت... الكبرى

– استغفر اللّه... وامتصت كمية من الدخان ونفختها باتجاه افقي:

– حسنا سأروي لك حكاية اخرى اذن... سترى كيف ان المرأة تتفنن في حيلها... شعر برأسه يدور... وكأن شيئاً ثقيلاً يجثم على حواسه ويبعث ضجيجاً حامياً في رأسه... وشعر بألم في ركبته... وكانت مويجات من البرد تبعث الرجفة في كيانه... واراد ان يجلس على الأرض لكي ينصت اليها ولكنه لم يستطيع وقال:

– سوف لا انصت اليك إذا لم تكن اجمل من حكاية الفلاح والسمكة...

– الفرق كبير بينهما...

– لنر... وامتصت كمية اخرى من الدخان... وهي تشعر بالسعادة لأعتقادها أنها تستطيع ان

تبعث السرور في نفس الأفندي !... « كان هناك في قديم الزمان حكيم كبير فاهم لأمور الناس ... كان قد ذاق الأمرّين على يد زوجته... ولذلك عزم ان يجوب البلدان... ويجمع اخبار النساء ومكرهن في كتاب كبير ينشره بين الناس لكي يكونوا على علم بمكرهن وحيلهن... وذات يوم من الأيام مرّ ببلدة... ونزل في اول بيت صادفه ولم يكن في البيت سوى امرأة كان زوجها في الخارج... ورحبت به بالنيابة عن زوجها... واحضرت له الطعام... ثم سألت عن مهنته... ولما علمت انه يروم جمع اخبار النساء ومكرهن في كتاب كبير... سألته الامرأة عما اذا كان قد سجل في كتابه فناً– تعرفه هي – من فنون المرأة... وقال لها الرجل:

– وما هو هذا الفن؟ قالت:

– اذا كان هذا الفن يوجد في كتابك... فأنت عالم حقيقي... قال:

– ربما يوجد في كتابي... قالت:

– قم ادخل في هذا الصندوق!... وقام الرجُل ودخل الصندوق بنية صافية... واغلقت عليه بابه وقفلته... والرجل مندهش ينتظر المفاجأة وهو على امل ان يحصل على سر من اسرار المرأة... لعله يكتبه في كتابه الذي هو بحاجة ماسة الى مادة دسمة كهذه تصدر من امرأة حقيقية... وبعد فترة وجيزة جاء الزوج... واستقبلته زوجته هاشة باشة وقالت له:

– هل تعلم ماذا يوجد في ذلك الصندوق؟

– ماذا يوجد فيه؟ يالك من زوج غبي لا تعرف شيئاً...

– لماذا؟

– اما زلت اذن لا تعرف ماذا يوجد في ذلك الصندوق؟...

– ماذا يوجد فيه؟

– يوجد فيه انسان... وقال الرجل بدهشة:

– انسان؟

– نعم انسان... واذا كنت لا تعتقد بكلامي فخذ المفتاح وافتحه بنفسك... ورمت له المفتاح... والتقطه بانفعال وهو يهم يفتح الصندوق... وهنا قالت الزوجة بكل ثقة:

– قف... لقد خسرت الرهان... و وقف الرجل فجأة... كأنه تذكر شيئاً... ببرود وهو يرمي اليها المفتاح:

– نعم... لقد ربحت انت الرهان... وكانا قد تراهنا على ان يخسر احدهما دجاجة فيما اذا التقط من يد الآخر اي شيء ما لم يذكر بأنه لم ينس الرهان... وبعد فترة وجيزة قال الرجل وهو يهم بترك البيت:

– سأجلب لك اذن دجاجة سمينة... أنت تكسبين الرهان في كل شيء

– طبعا... وبعد تركه للبيت... هرعت زوجته الى الصندوق وفتحته... وكان الرجل المسكين يتصبب عرقاً وهو في حالة شبه غيبوبة و يرتجف مثل ورقة في مهب الريح وقد غدا وجهه اصفر مثل الزعفران... وقالت له:

– هل هذا يوجد في كتابك؟... اذهب وحافظ على نفسك من كيد النساء... وما كان من الرجل إلا أن مزق كتابه وداس أوراقه بقدميه وولى هارباً وهو شبه مجنون...» وسكتت العجوز... واعتدلت في جلستها... ورفعت رأسها كالمنتصرة كأنها قدمت برهاناً جديداً لرأيها... وصبت لنفسها قدحاً من الشاي:

– هل تريد أن أصب لك شاياً؟

– اغسلي الاستكان وصبي لي شاياً خفيفاً جداً... وشعر ان الحمى تحيط بكيانه شيئاً فشيئاً... وان موجة من البرد تسري في أعصابه مثل تيار كهربائي ... لم يكن يدري سبب ظهور أعراض الحمى في جسمه... فهو عند خروجه من كوخه... كان سالماً نشيطاً بحيث لم يلبس بلوزه ولا سترته بل اكتفي بأن ألقى معطفه على كتفه فوق سترة «البيجامة» وهام على وجهه في طريق الطويل الملتوي ... وعند عودته شعر بتلك الرجفة غير الطبيعية لعله قد أصيب بالحمي... أو الانفلونزا... لا يدري... المهم انه يشعر بأعراض مرض ما... وكيف لا يصاب بالمرض والماء الذي يشربه مملوء بالديدان العجيبة والاوساخ تحيط به من كل جانب وجيوش الذباب تنتقل من هنا وهناك كأنها اسراب القطا؟

ولأول مرة في حياته فكر في الموت... ان الناس هنا يموتون بكل بساطة... يموتون وهم بعد اطفال صغار تفوح من افواهم رائحة الحليب... او شباب يتطلع الى الحياة... ولكن سرعان ما تنطفيء فيهم جذوة الحياة... اقدر له ان يموت هنا وحيداً؟... بعيداً عن اهله؟... واعتدل في جلسته وافرغ قدح الشاي في جوفه ثم تمدد في مكانه وحدق في السقف... حقاً ان الانسان في مثل هذه الحالات... يتذكر كل شيء عن حياته الماضية بكل تفاصيلها... لا بل تتجسم تلك الحوادث امام عينيه... وتمر في شريط طويل واضح... أوضح من مرورها كطيف عابر... وآراء هذه العجوز القبيحة بالأخص تذكره بأشياء تكاد تلتقي معها في عدة نقاط...

– ها افندي... ماذا تقول ؟... ومع ذلك أتمنى لك فتاة لا تجد فيها عيباً... ولم يتكلم... ولكن... لو هذه العجوز الحمقاء تدري... لو تدري شيئاً قليلاً عما في قلبه... لصبت على رأسه وابلاً من فلسفتها... ولأحرجت موقفه بلا شك...كان مع مرور مويجات الحمى الباردة في كل خلية من أعضاء جسمه تمر صورة كاملة من صور الماضي والأمس القريب امام ناظريه... وكان السقف الأسود لا يبخل عليه بتلك الصور التي اصبحت تسد فراغه في هذه القرية.

وتراءى له وجه... الصغيرة ذات العينين السوداوين العميقتين تلك الصغيرة البريئة التي طَبعَ حبها في اعمق اعماق قلبه... كم هي عذبة في نظر... انها أشبه بزهرة متفتحة ندية تستقبل الحياة بنظارتها وروعتها... وشهق شهقة عقب تذكره بعض الاشياء... ومدَ يده الى حقيبة بجانبة... واخرج منها بعض الاوراق كان قد كتب فيها بعض المذكرات... وقرأ قسماً منها... ثم القاها جانباً... كأنه يريد أن يطرد من أمام ناظريه صورة ما... وحدق في السقف... وكانت الصورة تأبي إلا أن تلاحقه... وتتراءى له بصورة واضحة من خلال السقف الاسود... ولم يستطع ان يقاوم انحراف خياله نحو تلك الصورة... وأول ما ظهر له عيناها السوداوان العميقتان تحت حاجبين رائعين... ووجه متأمل ينم عن أشياء غامضة تعكس شيئاً مجهولاً في نفس صاحبته... هذا الشيء المجهول الغامض الذي يعشقه الانسان وهو لا يدري كنهه... لعله سر تلك الذات التي يظل الانسان يبحث عنها في فراغ عواطفه... فيعثر عليها في غفلة من الزمن... وهو لا يدري السبب الحقيقي لما حدث تماماً مثل العصفور الذي لا يدري كيف وقع في الفخ ولماذا؟ ألا يمكنه أن يخرج من هذا الفخ؟... هذا الفخ الذي احاطه من كل جانب... وكلما تملص منه لفه أكثر فأكثر... وما هذا الذي يدعونه بالحب؟... أليس هو العبودية بعينها؟... وعبثاً حاول أن يطرد صورتها من أمام ناظريه... انها تنتصب أمامه في كل يوم بل في كل ساعة... وتمتليء أحاسيسه بدفء صورتها... ثلاثة أعوام... وقبلها كان قلبه خالياً من كل احساس أو شعور بما يسمونه الحب... وبعد ذلك دخل إلى عالم آخر... عالم جديد... دافيء سحري مثل الخيال انه يتذكر الآن بكل وضوح تلك اللحظة التي نبض فيها قلبه لأول مرة لشيء جديد... كان ذلك في صبيحة يوم من أيام «آب»... وكانت هي غضة كالربيع تتفتح مثل البرعم... وكان قد رآها قبل ذلك وهي أصغر ما تكون لم يفكر في أنه سيحبها قط فيما بعد... كان بين اليقظة والنوم حين شعر بيد تلمس رجله بغية ايقاظه مع صوت يناسب كالأثير:

– قم... قم... لقد انتصف النهار... وحين أزاح اللحاف عن وجهه وفتح عينيه... كانت واقفه على رأسه وأشعة الشمس تغمر وجهها... وعلى شفتيها الصغيرتين ابتسامة غامضة... ان وجهها ليبدو في صورة جديدة... وشعر بتحول شيء جديد في كيانه، كان عذباً عذوبة الماء الصافي... ودافئاً دفء الشمس... في أيام الشتاء... وكان قلبه يخفق خفقاناً غريباً... لم يعهده من قبل... وقالت له بشيء من العتاب:

– تأتي إلى هنا... ولكنك لا تأتي إلى بيتنا... وقال بتلعثم:

– سأكون عندكم بعد قليل... هكذا... احبها... وكان الصمت يلف حبه... ومضت على ذلك سنتان وبعدها وجد نفسه يدخل الحياة العملية... ولم ير نفسه الا في قرية صغيرة بين واديين ينقلان مياه المطر في الشتاء الى الزاب الصغير... وتل يطل عليها من الناحية الشرقية... يدفن فيه أهل

القرية موتاهم... وأكواخ طينية ملتصقة بالأرض تعيش فيها مجاميع بشرية مع البهائم... وعندما يتساقط المطر ويقبل الشتاء... وتنفذ بقايا الذخيرة... تخرج تلك المجاميع البشرية للبحث هنا وهناك عن كمية من الشعير الأسود... لتهدئة الثعبان الأبدي الهائج الذي يجول في احشائهم ويثمن زهيد يبيعون بهائمهم ليتخلصوا من نفقاتها... وفي القرية حيث كل شيء هادئ... وبسيط... والفراغ يوحي بالتفكير المستمر في كل شيء... كان شيئان يحتلان فراغاً كبيراً في ذهنه... أولها ادراكه العميق بسبب ايمانه بأفكاره الخاصة التي نشأت مع البؤس الانساني بله انقاذ هؤلاء من مصيرهم... والنزول الى عالمهم ومشاركتهم في بؤسهم... فاخراجهم الى الطريق التي تؤدي الى الخلاص... وثانيهما سيطرة تلك الفتاة الصغيرة على حواسه ومشاعرة... لقد كانت تكاد تنسيه أحياناً الشيء الأول... الا ان حبه الشديد لها، كان يعمق حبه لتلك المخلوقات البشرية التي تحمل في طيات نفوسها مشاعر كمشاعره... وعواطف كعواطفه... فهو جزء منهم اذن... هذه المرة اخذت تتداخل الصور امام ناظريه... فكأن قشعريره الحمى التي انتابته... تأبى إلا ان تريه صوراً مشتتة متناقضة... ففي الوقت الذي ترآءت له صورتها... وهي ترمقه بعينيها العميقتين السوداوين بنظرات قاتلة... وابتسامتها... وتوديعها له في صباح الجميل... بين ملتقى شارعين تحيط بهما اشجار النخيل العالية... وبعد سنتين من حبه لها... شعر ان هدوء القرية يعمق حبه لها... كتعميق حبه لفكرته الخاصة... ووجد نفسه بين شيئين لا ثالث لهما... ولم يكن يدري شيئاً عما يدور في رأس تلك الصغيرة... أهي تحبه مثلما يحبها هو؟ أهي تحمل في رأسها نفس الافكار التي يحملها هو... كان ذلك قد أرقه من قبل... ولم يكن قد اعترف بحبه لها حتى ذلك الحين... ولم يتحمل السكوت فقد وصلت عواطفه الى الذروة... وكان يخشى ان تفلت من يده... وكتب رسالة مختصرة ليقدمها اليها في وقت المناسب... وبقيت عنده الرسالة حوالي الشهرين وهو يتأمل في كل كلمة وعبارة فيها ويعيش في جوها... وكأنه انما يقرر بها مصيره.

وحان الوقت المناسب وكان ذلك في عطلة نصف السنة... وترك القرية الى اهله ثم الى مدينتها... وبعد ثلاثة ايام اختلى بها... كان قلبه يخفق بشده... واصابعه ترتجف... وبصمت وضع الرسالة في يديها دون ان ينبسا ببنت شفة... ثم انسحب الى (الهول) وجلس هناك متعبا خائر القوى كأنه قد خرج من معركة حامية... وكان الصمت يطبق على جو البيت الكبير الواسع... بقى عندهم ثلاثة أيام أخرى... كان كل شيء يجري بصورة طبيعية كأن شيئاً لم يكن... أما هي فكان لا يراها... كأن الارض ابتلعتها.

وفي اليوم السادس أعلمهم بأنه سيسافر في اليوم الثاني... وفي وقت متأخر من الليل حين نام الكل... كانت امها وعمتها لا تزالان جالستين دون أن تذهبا الى فراشيهما... وعلم ان هناك شيئاً، كان جالساً على الاريكة ويجانبه عمتها... وكانت امها تجلس على اريكة اخرى، كان الصمت

يطبق عليهم وكان شعوره في تلك اللحظة غريباً لم يسبق له ان شعر بمثله من قبل... ابتسمت عمتها وقالت:

– كنت قد اعطيك لها رسالة وجاءت الينا وهي تبكي... انها صغيرة لا تفهم مثل هذه الاشياء بعد... ومع ذلك فانبا نقدر عواطفك وبالمناسبة هل أنت تريدها بنية صادقة؟...

– أنا؟... أنا اريدها... وأحبها والقضية ليست اعجاب... انني احبها منذ سنتين... وأنا مستعد لإنتظارها اكثر من عشر سنوات.

– أعتبرها من الآن فصاعدا لك... افرض انها زهرة متفتحة أنت مالكها وسنحافظ عليها الى أن يحين اليوم الموعود.

شعر في تلك اللحظة كأنه ولد من جديد... وكانت النشوة تطغي على كل جزء من كيانه... ومضى على ذلك حوالي السنة وهو يعيش في سحر الحب... في جو عامر بالثقة المطلقة بالنفس... كان احياناً يعتقد ان وجوده لا معنى له بدون ذلك الحب... كانت عمتها هي التي تراسله بصورة مستمرة.

وقبل أيام جاءته الرسالة المشؤومة... الرسالة التي ارادوا بها أن يضعوا حداً فاصلاً بين وجوده وفكرته... أن يجردوا مغزى وجوده عن ذاته... كانت حياته تتكون من خطين متوازيين مثل السكك الحديدية... وهو يسير بينهما نحو الغاية... أحد الخطين يمثل فكرته... والثاني حبه الذي يتجسد فيه طموحه وآماله الشخصية.

بكل بساطة... قرروا في الرسالة ان القضية فاشلة وذلك لاختلاف آرائهم مع آرائه كما بينوا فيها وتركوا له حرية اختيار أحد الشيئين... أما الفكرة أو هي... كان وقع الصدمة شديداً عليه... وكعادته أصيب بالحمى من شدة انفعالاته... ولكنه خرج منها وهو يشعر انه أكثر تمسكاً بالفكرة من أي وقت مضى... واجتاحت الحمى جسمه هذه الأمسية مرة أخرى وشعر بثقل جاثم على كيانه مثل الكابوس... وكان البرد قد أخذ منه مأخذاً كبيراً... وأخذ يرتجف وتصطك أسنانه رغم حرارة الغرفة... وطلب من العجوز ان تنصرف الى غرفتها لينام... وتركت العجوز الغرفة وهي تتمنى له الشفاء العاجل... وعبثا حاول ان ينام ويدأ يتقلب على فراشه يمنة ويسرة وهو يتلوي من شدة الألم... وفي وقت متأخر من الليل بدأ العرق يترشح من جسمه... وشعر بحرارة شديدة... كان الألم مثل ملايين المطارق تتهاوى على جسده من الداخل... وشعر كأنه نام قبل الفجر بساعة... ورأى فيها يرى النائم... رأى الثلوج قد اكتسحت كل شيء... ولونت سطح الارض باللون الابيض... وكأن اعصاراً أسود يهب بقوة وعنف ويقتلع الأشجار من جذورها... كانت جموع بشرية لا نهاية لها تسد الافق وتقف في وجه الاعصار... وكان هو بينهم يشعر بالخوف الشديد...

ورغم ان الاعصار كان قوياً يقتلع الاشجار ويحملها إلى أعماق السماء مثلها يحمل القش الا انه كان يمر عليهم كما لو انه نسيم هادئ... وكانت الصغيرة ذات العينين السوداوين تركض بسرعة والاعصار الاسود يتعقبها كأنه ثعبان هائج... وفتح عينيه على اثر طرقات على الباب... كانت الشمس قد اشرقت في الخارج.... وكان يشعر بشيء من التحسن في صحته... وجلس في مكانه... كانت مذكراته لم تزل بجانبه فوق الحقيبة الصفراء... اراد ان يكورها بيده ويلقي بها بعيداً ليطرد بذلك آثارها من ذهنه الى الأبد... ولكنه رأى ان يتمهل... فالصغيرة ذات العيون السود ليس لها أي ذنب... ولم يسمع رأيها بعد فهي كل شيء في الموضوع... وترآءت له حياته في خط واحد فقط.. وليس في خطين متوازيين... خط يمتد الى ما وراء الاشياء... بعيدا نحو غاية اسمى... خط الفكرة...

١٠ تموز ١٩٦١

١٨ مارس ١٩٦٢

الزنابق التي لا تموت

قصص ومسرحية

نزهة

لم تكن القرية التي نقلت اليها في ذلك العام تمتاز عن غيرها من القرى التي تنقلت بينها، سوى انها كانت تقع مباشرة على النهر الأبيض. وقد كنت اخشى أول ألامر ان يدب الملل في كياني، و يعصرني الفراغ شأني في القرى الاخرى التي كانت جرداء قاحلة، لذلك كان أول ما فكرت فيه عند وصولي القرية هو مدى امكانيتي في سد الفراغ.

اتضح لي في الاسبوع الاول، ان هذا النهر الذي ينساب بهدوء بين شريطين ممتدين من بقايا حقول المزروعات الصيفية سيبتلع معظم اوقات فراغي بما يحتويه من الصيد الدسم، وقد كنت في كل يوم، اكتشف شيئا جديداً على النهر، ميلان مخيف في أحد الاعمدة التي نحتتها عوامل الطبيعة، إلتواء هائل في اعماق الجرف، برك عميقة تحتوي على سلاحف كبيرة ترتعب منها الاسماك.

ذات مساء بينما كنت جالسا على الشاطيء، اتأمل الحصباء الملونة الصغيرة التي تحيط بها ذرات الرمل التي تندفع مع موجات من المياه الشفافة، جاءني «ملا أمين» إمام مسجد القرية كعادته، بعد ان توطدت الصداقة بيننا، وهو شاب ضئيل في صوته بحة، لا تبدو عليه سيماء رجال الدين. قال بعد ان تبادلنا التحية:

– استاذ.. يظهر انك مندمج مع الطبيعة.

قلت وانا احدق في عينيه الكبيرتين النافذتين اللتين تتحركان في محجريهما بشكل يوحي اليك ان صاحبهما مصاب بالصرع:

– نعم.. ان الانسان يشعر هنا بالراحة.

قال متأملا:

– ان روح الطبيعة تنام في النهار.. ومع ذلك تشعر بالراحة، ولكنها اذا استيقظت فان الراحة الحقيقية ستبلغ الذروة.

– ومتى تستيقظ روح الطبيعة؟

اعتدل في جلسته، فاركا شاربه الاسود الطويل:

– انها تستيقظ في اعماق الليل حين تكون الكائنات في سباتها العميق.

واسترسل في كلامه كما لو انه كان ينتظر منذ زمن بعيد من يفهم كلامه:

– عندما تجلس هنا في الليل، والقمر يرسل نوره الفضي الى الكون من فوق تلك الاعمدة التي تشبه الاشباح، والضوء يتكسر على صفحة المياه، يخيل اليك انك تطفو بعيداً في اعماق السماء. عند ذلك تشعر بالراحة – براحة حقيقية تخدر كيانك.

– ولكن قل يا ملا أمين، هل للطبيعة روح كسائر الكائنات الحية؟

وسحب من تحت ابطه كتابا ضخما اصفر وضعه على الارض، طالما كنت اراه يتأبطه وهو ينتقل بين المسجد و النهر، واحيانا يذهب بعيدا فيتوارى عن الانظار، قال:

– ان روح الطبيعة تختلف اختلافا كبيرا عن روح الكائنات الحية، فالطبيعة هي الاصل لأنها في حركة وتغيّر مستمرين بينما الثانية لا وجود لها سوى في رؤوسنا.

كنت احدق في يده التي كانت تمسح غلاف الكتاب الجلدي الخشن بعناية، ومن ثم تنتقل الى الارض لترسم على الرمل اشكالا لا معنى لها. وانا افكر في هذا «الملا» الذي لا يشبه زملاءه «الملالي» الذين طالما دخلت معهم في مناقشات طويلة، رغم معرفتي انه قد درس حتى الصف الرابع في المدرسة الثانوية الدينية، ثم فصل مؤيدا لبعض الاسباب، وما لبثت حكومة نوري السعيد في حينها ان ألغت المدرسة المذكورة وشردت طلابها، فقد كان فراش المدرسة لا يتوانى عن تقديم تقاريره الشفوية إليّ عن اخبار الناس و اعمالهم سواء طلبت اليه ذلك ام لم اطلب.

– يبدو لي يا ملا امين انك تقرأ كثيراً.

– ان الكتب التي تركها لي المرحوم والدي لا تحتوي سوى على الكلام الفارغ، ولكني استطعت ان احصل على بعض الكتب الجيدة بعد ان بعت عدداً من كتبه.

– وما هي تلك الكتب؟

– جميعها فلسفية!.

قلت وانا اريد اثارته:

– لكن الفلسفة يا ملا امين كلام فارغ.

نظر إليّ بعينين نافذتين وهو يبتسم مستهزءاً في اعماقه من ضحالة تفكيري:

– ان من لا يعرف شيئاً عن الفلسفة لا يعرف شيئاً عن الحياة.

كانت المياه التي تمر على الحصباء الملونة الناعمة، تنحدر في بعض الاماكن بسرعة، وخريرها الرتيب يختلط بأغاني الطيور التي كانت تحلق بعيدا فوق النهر. قلت في نفسي ترى هل يعتقد هذا الشخص انه قد سبر كنه الحياة؟

دفعني فضولي إلى معرفة المزيد من آرائه:

– هذا صحيح. ولكن قل لي كيف تثبت ان للطبيعة روحاً؟

– الم يسبق لك ان جلست مرة لوحدك في مكان هادئ في اعماق الليل تحت ملايين النجوم المتلألئة، بعيدا عن مواقع البشر؟.. ان السكون يبلغ عند ذلك الذروة. وان كنت شاعرا بجمال الكون وعظمته، فستسمع بكل وضوح همسات الطبيعة وهي تصب في اذنيك حكايات ملايين السنين، ويترآى لك الماضي بكل ابعاده. ستجد القمر، النجوم، الجبال كلها تهمس في اذنيك، ستمتلئ مشاعرك بلحن ازلي عظيم، تعزفه روح الطبيعة.

صمت برهة ثم تابع قائلا:

– لقد علمني والدي اشياء كثيرة يتضح لي زيفها كلما تقدم من العمر. علمني كيف اخدع الفلاحين لأعيش عالة عليهم، الأمر الذي جعلني احقد على اولئك الذين يدّعون الدين.

– لكنك من رجال الدين.

– لا مفر من ذلك.

قام من مكانه متأبطاً كتابه..

كانت الشمس تميل الى المغيب. وكانت الاعمدة والنتوءات الكثيرة تنشر ظلالها عبر وادي النهر. ونسيم بارد يهب بين فينة واخرى يذرو اوراق الصفصاف المتساقطة.

– الا ترجع إلى القرية؟ الجو اصبح بارداً. لقد جاء الخريف.

– انا ارتاح إلى الخريف.

– لكل فصل جماله الخاص. اني ارتاح إلى الشتاء ايضا، رغم ان كل شئ يتحول هنا إلى وحل.

– ان اجمل شيء هو ان يرى الانسان في الريف تعاقب الفصول الاربعة.

– لولا ذلك لكان الريف جحيماً لا يطاق.

وسرنا في اتجاه القرية. وحين بلغنا نهاية الممر الضّيق المدرج الذي يصعد المنحدر، ترآت لنا التلال الثلاثة عبر السهل الممتد.

– هل ترى تلك التلال؟ انها من صنع الانسان. من صنع اقوام كانت تسكن هذه المنطقة. اعتقد انهم دفنوا تحتها جثث ملوكهم. واما ذلك الجبل «أشار بيده إلى الجهة الغربية» حفروا نفقا عميقا لم يزل حتى الآن تنبع منه مياه صافية و يشاع ان ثعبانا هائلاً يعيش في هذا النفق. لكني لا اصدق هذا.

– وكيف تعرف ان هذا النفق من صنع النسان؟

– هذا شئ واضح، جوانب مدخل النفق مبنية بالحجر، ولكن هناك أعجوبة اخرى قام بها هؤلاء الناس، لو رأيتها لأستغربت اشد الإستغراب.

لقد شعرت اني انتقل إلى عالم آخر. عالم له روحه الخاصة تشبه روح الطبيعة التي يدّعي صاحبي وجودها، وتغيرت نظرتي إلى القرية. ان لها اذن جذورا عميقة في القدم. وابناؤها هم احفاد اولئك القوم.

– وما هي تلك الاعجوبة؟ وأين تكون؟

هز رأسه المفرطح الكبير مبتسماً، كأنه قد تذكر شيئا:

– انها الابواب التسعة، تلك الابواب التي اذا دخلتها لوجدت الماضي البعيد يقابلك وجها لوجه، وهناك تتجسم ايضا روح الطبيعة، انها تبعد من هنا قرابة الساعة مشيا على الاقدام.

– الابواب. وما هي هذه الابواب؟

– ان كانت لك الرغبة في مشاهدتها فستذهب اليها ذات يوم.

وعبثا حاولت ان اكون في مخيلتي صورة واضحة المعالم لهذه الابواب التي اخشى ان لا يكون لها وجود إلا إني تخلصت منه بأعذار موهومة.

قضيت ليلتي بالتفكير في التلال الثلاثة والنفق العميق والابواب التسعة وروح الطبيعة التي يؤمن بها صاحبي. كان بودي ان اذهب إلى ملا امين في تلك الليلة واطلب منه زيارة الابواب بدون تاخير. لقد كانت رغبتي ملحاحة لا تقاوم، وشعرت بعطف كبير تجاه هذا الانسان الغريب الذي ضاع في اعماق الريف.. ولا أدري متى نمت في تلك الليلة و كيف.

كنت متأكداً من ان المسافة التي قدرها صاحبي ستتحول بقدرة قادر إلى اكثر من ساعتين على اقل تقدير، ولذلك لم يكن الأمر غريبا بالنسبة لي حين اشرفنا على القرية بعد ساعتين من مغادرتنا لقريتنا، ورغم ان حمارينا كانا قويين وسريعين.

كم كانت دهشتي شديدة حين رأيت ستة بيوت تقبع بين سلسلتين من التلال الصخرية توازيان مئات السلاسل الصخرية، منها العالية ومنها المنخفضة وفي اسفلها بستان كثيف من اشجار التوت والصفصاف والتين وخمس نخلات بائسة بلا ثمر تثير الاستغراب لوجودها بين هذه الصخور. كان العطش قد سرى فينا، وبدا لي ان حمارينا كانا اكثر عطشا منا، اذ اتجها نحو البستان دون ان نقودهما إلى هناك، ولكنهما قبل ان يعكرا مياه النبع، سبقناهما إلى هناك. وقد لاحظت ان آثار التعب بادية على صاحبي بعد ان كنت اعتقد انه سوف يسخر من امكانيتي الضعيفة في تحمل اعباء الطريق. وبأرجل خائرة اتجهنا إلى احد البيوت الستة. استقبلتنا فتاة جميلة ترتدي ملابس سوداء تتهادى في مشيتها كأنها طائر القبج، شعرت بارتياح كبير يسري

في كياني، فرحت ارمقها بنظرات خاطفة، محاولا اخفاءها عن ملا امين. اقتادتنا إلى كوخ صغير كان يتصدره شيخ طاعن في السن، قام من مكانه بجمسه الهزيل ليرحب بنا بحرارة والابتسامة لا تفارق وجهه المتغضن.

التفت إليّ ملا امين قائلا:

– انه عم والدي؟

قلت في نفسي بعد ان هززت رأسي وهذه الزهرة لمن تكون يا ترى؟ نسيت كل شيء، نسيت ملا امين وفلسفته وابوابه التسعة. ان روح الطبيعة التي ذكرها انما تكمن هنا. وقد تجسدت في هذه النظرات القاتلة. كان دفء العاطفة قد غمر كياني وبدا لي الكوخ الصغير اروع ما يكون. لو كان بامكاني لتركت الابواب تذهب إلى الجحيم. وبقيت هنا استشف هذا الأثر النفيس الذي هو بلا شك من بقايا اولئك الملوك بناة الابواب التسعة.

كان ملا امين ينظر إلى الفتاة ثم يحول نظراته عنها ليحدق في الفراغ كأنه يعاني أمرا ما. لا أدري لماذا رثيت له في تلك اللحظة، وكانت الفتاة هي اخرى ترتبك حين تتكلم معه.

بعد الانتهاء من شرب الشاي طلب مني ان نتوجه إلى المكان المقصود وقال الشيخ:

– سنهيء لكم طعام العشاء عند عودتكم.

كان ملا امين يبدو وكأنه هو صاحب البيت، وقال:

– ونطلب منك يا عمي ان تهيء لنا ابياتا من «قتار اللّه ويسى».

– انا في خدمتكم يا ابني.

تركنا القرية ونحن ننحدر عبر الصخور نحو ممر انتصب على جانبيه كتل صخرية هائلة. وكانت مياه الينبوع هي الاخرى تنحدر الى اسفل القرية لتنتهي عند مجاميع من اعواد القصب التي تعانق الصخور. كان ملا امين يتقدمني وهو صامت لا يتكلم. وشعرت انه يعاني امراً ما في نفسه وبدت آثار ذلك واضحة على وجهة. ذهول مفاجئ، وتحديق مستمر في الفراغ. اردت ان اجس نبضه وافتح باب الموضوع:

– كاك أمين، قل لي هل يعيش عمك وحده مع ابنته في ذلك البيت؟

التفت إليّ شاهقاً وقال:

– استاذ. انت انسان طيب، وصديق يمكن الاعتماد عليه. لا أريد ان اخفي عليك شيئا. ان تلك الفتاة التي رأيتها هي خطيبتي منذ اكثر من اربع سنوات، انها..

لم يكمل كلامه.. تنهد بعمق واطرق برأسه. قلت:

- ماذا؟ تكلم..

- انها.. انها ليست عذراء.. وهذه حقيقة اصرح بها لأول مرة في حياتي، وامامك.. اني امام مشكلة تشغلني ليلا ونهارا اخشى ان تؤدي بي إلى الجنون لا أدري ماذا افعل؟ وانا لا استطيع ان استغني عن تلك الفتاة التي احبها.

كان يرتجف من شدة الانفعال ويتكلم مع نفسه ضاغطاً على اسنانه بشكل هستيري.. انذال، حقراء، سفله..

قلت وانا احاول ان اهدأه واعيد اليه ثقته بنفسه.

- انت انسان تؤمن بالعقل ومثقف سأحاول ان اساهم معك في حل مشكلتك بكل اخلاص.

- انها مخزية يا اخي، فظيعة، وفضيحة لا تحتمل. كم كنت اتمنى ان اموت ولا أرى هذه الحقيقة المرة.

كنا كلما تقدما في سيرنا ازدادت الطريق وعورة. وتعددت المسالك امامنا. مرت فترة صمت تعمدت خلالها عدم اثارته لعله يعود إلى حالته الطبيعية، وتأكدت انه ما دام قد بدأ بالموضوع فانه سينهيه حتما رغم تلهفي الشديد لمعرفة قصة تلك الفتاة وعندما وجدت ان صمتي قد طال واننا قد قطعنا مسافة غير قصيرة دون ان يتكلم، لم اتحمل الصمت، قلت:

- ان اي مشكلة مهما كانت معقدة يمكن للانسان ان يحلها.

- انها يا اخي مسألة اغتصاب. ان زوجة عم والدي كانت تعمل في بيت الاغا وكانت احيانا تصطحب معها ابنتها التي كانت لا تتجاوز الخامسة عشرة آنذاك، ولا ادري كيف خدعوها وذات يوم رجعت مع والدتها إلى البيت وهي غير عذراء. أتدري ما فعل الشيخ الذي رأيته قبل قليل؟ شنق زوجته ودفنها دون ان يعلم احد من افراد القرية. وهو يعتقد ان السبب الحقيقي هو الأم. ثم ترك عمي قريته البعيدة إلى هذه القرية ليقضي فيها بقية حياته مع ابنته. وها انذا قد تضامنت معهما عائشا في قرية قريبة منهما، لأنني لا استطيع ان اعيش بعيدا عن هذه الفتاة. ارجو أن تبقى هذه الحقيقة سراً فيما بيننا ولو لم تكن ثقتي عالية بك لما صارحتك بشيء.

- شكراً للثقة العالية. ولكن ما احب أن اقوله لك هو ان تتزوج من هذه الفتاة في اقرب فرصة ممكنة. انها شريفة والذنب ليس ذنبها. وتصور كأن شيئا لم يكن.

نظر إليّ كمن عثر على شيء عزيز فقده منذ زمن بعيد:

- ولكن ضميري، ان ضميري سيؤنبني إلى الابد.

- اقول لك لا تدع الافكار السوداء تدخل رأسك، هذه هي الحياة، يجب على المرء ان يتحداها دوماً.

اطرق برأسه غارقا في الصمت. بعد عدة خطوات وقف ملتفتا إلى اليمين ثم نظر إليّ مؤشراً بيده إلى كتلة صخرية مستطيلة هائلة:

– هذه هي الابواب التسعة، انظر..

كانت ثمة ابواب مستطيلة صغيرة اشبه بالنوافذ، حفرت على الكتلة الصخرية حفراً منسقاً. وبعد ان اجتزنا الدرج دخلنا من الباب الرئيسي، كانت الغرف مربعة صغيرة متناسقة تسع كل منها خمسة اشخاص، تربطها ببعضها البعض ممرات ضيقة. وكانت زوايا الغرف حادة وقد برزت منها اعمدة محورة على الحائط وكأنها تحمل السقف الذي نُحِتَ بشكل قُبَّة. وكم كان إستغرابي شديداً حين لمحت على جدار احدى الغرف كتابة ألمانية مذيلة بتاريخ ١٩٤١ وبجانبها كتابة انكليزية وتاريخ ١٩٣٨. وسألت نفسي ترى كيف وصل هذان الاجنبيان إلى هذه البقعة النائية التي ساقتني اليها المصادفات.

قال وهو يتأمل الاثر:

– هذا هو الماضي البعيد.

– حقا ان الانسان يشعر هنا وكأنه في عالم آخر.

– انه عالم الاجداد. حيث تراكمت عشرات القرون. اني حين اكون هنا احس بروح الطبيعة تنقلني إلى اغوار الازمان الغابرة.

وعبثا حاولت ان اعرف العهد التاريخي الذي يرجع اليه بناء هذا الاثر الغريب، وانا استعرض في ذهني المعلومات التي تعلمتها في المدرسة عن التاريخ القديم، الا ان صاحبي قد اخرجني من تفكيري حين قال:

– هل تدري لماذا بنوا هذه الغرف او بالاحرى الحصون؟.. كان ثمة اقوام تسكن ناحية ما، وكانت بين فترة واخرى تهجم بجيوشها الجرارة على هذه المناطق، وكان هؤلاء يعتصمون في هذه الحصون ويخفون كنوزهم الثمينة في هذه الغرف الصغيرة.

قلت:

– استنتاج جيد.

– وذلك المكان العالي فوق الكتلة الصخرية أليس هو برج المراقبة؟

– يا لها من حياة شاقة تلك التي عاشوها.

– وهل هناك حياة سهلة؟ تصور ان حب البقاء قد دفعهم إلى حفر الجبال.

– انها الحروب، المأساة التي لا يزال الانسان حتى الآن لا يأمن شرها.

– ولكن الا ترى ان ادوات الدمار كانت اخف وطأة اذ ذاك؟

– هذا من حسن حظنا.

كانت الشمس تنحدر نحو المغيب وتحولت الجبال في الافق الغربي إلى زرقة قاتمة تكاد تتحول إلى لون بنفسجي غامق، وهي تلقي ظلالها على مساحات شاسعة. قال:

– لنرجع..

– هيا..

سنقضي هذه الليلة في بيت عمي.

– اخشى ان نكون عبئا عليه.

– بالعكس، انه سيفرح كثيراً.

وسرنا فترة غير قصيرة، يجثم علينا الصمت. قلت:

– رأينا الابواب، كانت رائعة حقا، بقي ان نرى النفق.

– سنذهب إلى هناك في احد ايام الجمع. وسوف اريك اشياء اخرى مشوقة.

كان تلهفي شديدا للوصول إلى القرية. ان جوعا رهيبا يصرخ في دمائي يلتمس مجرد السكون إلى وجه مشرق من الجنس الآخر لكي يهدأ، فأي فراغ يمكن ان يسد بدون ذلك؟

عندما بلغنا القرية، كانت الشمس قد غابت وراء الروابي وسلسلة الجبال الممتدة، ولفت العتمة الكون.

كانت ثمة دجاجة بيضاء تركض امام ديك هائج عبر المزابل المنتشرة على طول القرية، ولما لم يستطع اللحاق بها اعتلى جدارا متهدماً وبدأ بالصياح.

قلت:

– يا له من ديك نحس، لعله الوحيد الذي لم يعد إلى مأواه.

– انه تائه مثلنا. حتى صياحه ليس في وقته.

وابتسمنا ببلاهة.

دفع صاحبي الباب الخشبي الثقيل، كانت الفتاة قد تمنطقت بشال ابيض شفاف والقت بطرفه على كتفها. وتركت المجال لعنقها البض ان يظهر اكثر من ذي قبل. كانت قد أعدت الشاي وفرشت المكان. والشيخ يتصدر نفس مكانه الاول. قام من مكانه مستقبلا ايانا بلطف و كانت الفتاة تتنقل بحركات رشيقة. جلبت ادوات الشاي مع صحن مليء بالبيض المقلي واقراص من

الخبز الرقيق الحار وباقة من البصل الاخضر. وبدأنا نلتهم لفات الخبز المحتوية على شرائح البيض الدسمة التي يقطر منها الدهن. وكانت هي جالسة قبالتنا وراء المنقلة تصب الشاي، وضوء الفانوس القريب منها يضفي على وجهها مسحة من الجمال الهادئ. كان ملا امين منشرحاً. نظر اليها من زاوية عينه قائلا:

– نورون، صبي لي شايا ثقيلا.

– حسنا..

التفت الي كمن يريد ان يثبت ان هذه الفتاة الجالسة، هي ملكة، وملكة الخاص فحسب.

قلت مازحاً:

– ما رأيك الآن بروح الطبيعة؟ امازلت تؤمن بها.

وقهقه عالياً، كان ذلك اول مرة اراه فيها ينطلق بهذه الصورة.

قال:

– انها هنا قابعة في هذه المنطقة وفي هذا المكان بالذات.

قلت مبتسماً:

– أمقتنع انت بذلك؟

– كل الاقتناع.

– اذن اسرع بانتزاعها من جسم الطبيعة والحاقها بجسمك.

– قريبا جدا سينتهي كل شي. ولكن عليك ان تلعب دورك.

– واذا اردت فسألعبه فوراً.

وفي تلك اللحظة كانت عصا الشيخ تتقدمه إلى داخل الكوخ وهو يسعل سعالاً حاداً، ثم اتجه إلى ركنه الخاص لأداء صلاة العشاء.

الذئاب

بلغ نهاية الممر بصعوبة، وبصورة لا ارادية مدّ يده إلى جيبه، واخرج منديله ليمسح العرق المتصبب من جبينه. هبت عليه نسمة لذيذة من جهة الغرب، قرص الشمس هناك اصفر باهت، تلفه هالة من الضباب الشفاف ومن بعيد كان يتصاعد دخان ازرق فاتح. لم تزل بعد امامه مسافة طويلة. سينحدر هذه المرة إلى السهل.

السير في السهل غير متعب، لا صعود ولا نزول

مرة أخرى مده بصره إلى الافق البعيد، الزاب يلتوي نازلا إلى الجنوب مثل ثعبان خرافي. فكّر، هل الزاب ايضاً يلقي الصعوبات مثله؟ هل يحتاج إلى الصعود والنزول؟ انه قد خرق لنفسه مجرى منذ الازل، يجتازه بكبرياء وصمود. واجداده هو ايضا، الم يتركوا له هذا الطريق الضيق الملتوي الذي إذا انحرف عنه عابر تاه بين الجبال والوديان؟. ولكن ما باله لا يمر من الطريق العام – الموازي لهذا الطريق – كسائر الناس؟. لا.. لا.. مجرد التفكير في ذلك يرعبه. انه لم يتعود على الطريق العام. انه رفيق الليل والطرق الخاصة التي لا يطرقها الناس العاديون. التفت إلى الوراء، لم ير أثراً لهم. انصرفوا اذن.. قبضته تشد بقوة على الزمام وكأنه يخشى ان تفلت البغلة منه:

لو كنت تعلمين ما تحملين يا ابنة العاهرة..

اشتهى سيكارة. مد يده إلى مؤخرته واخرج كيس التبغ وبدأ باللف. وقبل ان يدخن، وضع بندقيته على الارض وجلس بجانبها. شعر بظهره كأنه يكاد يتكسر.

– لقد تعبنا يا رفيقي الوحيدة. ولكن لا تيأسي، سنصل وسأعلق الآن العليقة على رقبتك لتشبعي انت ايضا. امهليني هنيهة ريثما آكل قليلا من الخبز والزبيب وادخن هذه اللفافة. اولاد الزنا لم يمهلونا حتى نأكل.

افزعه خاطر. وقبل ان يمضغ اللقمة قام من مكانه بخفة، و وضع العليقة على رقبة البغلة. وبدأت تأكل بشراهة.

– اكتفي الآن بالتبن. سوف تشبعين من الشعير ريثما ابيع التبغ.

هزت البغلة رأسها وهي تمد شفتيها إلى اعماق التبن كأنها تبحث عن شيء ما.

– لا.. لا.. لن تعثري على حبة واحدة من الشعير. ها انا آكل الخبز الاسود فماذا تريدين؟.

اتكأ على صخرة كبيرة، وراح ينفث الدخان. كان الألم يتبخر من مفاصله. شعر بتيبس في كيانه. الجو ليس دافئاً كما كان يتوهم. المشي المستمر هو الذي كان يبعث الدفء في جسمه اذن. وتمنى قدحاً من الشاي. انتفضت البغلة برعب وكاد الحمل يقع لولا انه شد شداً محكماً. دمدم مع نفسه:

– اولاد الزنا، ظهروا مرة أخرى.

حمل بندقيته متفحصاً اياها، ولف الزمام على ذراعه:

– لو لم تكوني بندقية صيد، لعلمت كيف اعامل هؤلاء الانذال.

حسب اطلاقاته من جديد. انها عشرة فقط والذئاب الباقية خمسة.

– هكذا في وضح النهار تتحدوني بصلافة.

بعد الظهر بدأ صراعه معهم. لقد اختفوا وها هم يعودون مرة أخرى.. لعلهم لم يشبعوا من لحوم الثلاثة الذين اسقطهم بنيران بندقيته. كم يبدو له جميلا حين يصيب احدهم فتهجم عليه بقية الذئاب، وتنهش لحمه.

– ولكن كيف تكون حالي اذا ظهرت قافلة اخرى وتضامنت معهم؟

عندما اصبح في سفح الجبل، اصبحوا هم في المكان الذي استلقي فيه بعض الشيء. كانوا قد وقفوا في صف واحد ينظرون اليه بشراهة.

– انزلوا إلى الاسف ايها الجبناء. لن افتح النار إن لم تكونوا على بعد خطوات مني. اطلاقة واحدة قد تشتري حياتي كلها.

بعد حوالي الساعة ستغيب الشمس، ومع الغروب سيكون قريباً من الطريق العام. ولا يمكن ان يعبره الا بعد ان يخيم الظلام تماماً على الكون، كل شيء محتمل.

وراح يحث الخطى.

لم تزل البغلة قوية بعد، رغم الجوع.

الذئاب اقتربت. انها تقترب بسرعة.

– يا له من ذئب صلف هذا الذي يتقدمهم، انه مسعور بلا شك.

اصبح الذئب الذي يقودهم على بعد خطوات منه. كان ينظر اليه بعينيه النافذتين وقد تدلى لسانه الطويل.

– هه.. يا لكم من خبثاء اتريدون ان تطوقوني من جميع الجهات؟ حسناً خذوا اذن.

كان قد وضع اطلاقة في الخازن، سحب الترباس، وانفجرت النار. وهجمت الذئاب على الضحية.

وقت آخر.

خيم الظلام. لم يبق سوى ثلاثة منهم.

النجوم ترتعش في اعماق السماء. البرد يلسع انفه ويديه. لقد اختفوا مرة اخرى، لعلهم يرسمون خطة اخرى او شبعوا. وذهبوا دون عودة ولكن هل تشبع الذئاب؟

كان الطريق الضيق يتراى له ابيضاً – تحت ضوء النجوم – يتلاشى عبر خطوة. علم انه قد اقترب من الطريق العام. لم يبق امامه سوى ان يعبر بامان وينتهي كل شيء. التفت يميناً ويساراً. لم ير اثراً لسيارة. في يساره يتلألأ شريط من اضواء مدينة بعيدة وفي اليمين محيط بلا قرار من الظلام.

ها هو الطريق المبلط بالاسفلت يلمع تحت النجوم الباهتة. ثلاث أو أربع خطوات ويعبر. ارتطمت حوافر البغلة بالاسفلت. واحدثت صوتاً رتيباً حادا عكر سكون الليل.

وانطلق صوت يهدر:

– قف.. قف.. لا تتحرك.

وسلط عليه شلال من الضوء انبعث من اعماق المحيط الاسود. كل شيء انهار في لحظة واحدة. ودمدم مع نفسه:

البندقية لا تفيدك هذه المرة رقعة النور اوسع من ان تنسحب إلى الظلام. كل شيء يضيع في هذا النور الذي يكاد ان يعمي عينيك على اي حال تستطيع ان تعيد الكرة مرة اخرى بشكل آخر.

حتى هذا الطريق الضيق السري عرفوه؟

اما زال الزاب يلتوي نازلا إلى الجنوب؟ لا.. لا.. هو نفسه بنوا امامه جدارا من الاسمنت واوقفوه عند حده. كل شيء في هذا الزمان يجري بغرابة.

النجوم ترتعش. وفي اعماقه تتساقط آلاف النجوم، وتترك فيها فراغا كبيرا باردا.

وفي الظلام كانت تلتمع عيون حادة نفاذة. لا شك انها كانت عيون الذئاب التي عادت من جديد.

الشجرة المقدسة

– كرزو.. كرزو.. كرزو.

وانطلق الكلب الابيض الكبير كالسهم. وعندما اقترب منهما حدَّب ظهره وراح يتقلب على الارض تحت اقدامهما ويمسحها بفروه. وركض آزاد خوفا من ان يلحس الكلب رجله، و وقف وراء شجرة الزعرور. وما لبث «كرزو» ان لحق به. و وضع رأسه بين رجليه وكانت نسرين قد اعتلت صخرة كبيرة وهي تقهقه ثم انطلقا نحوها – وعندما اقتربا منها، بدأ كرزو يحرك ذيله بسرعة قالت نسرين وهي تنظر بعينيها العسليتين العميقتين إلى آزاد:

– هل تدري ماذا يقول؟

– يقول لقد تعبنا.

– لا.. انت لا تفهم كلامه.

– ماذا يقول اذن؟

– يقول، لنستمر في اللعب.

– وهل تؤيدينه؟

– لم لا.

ولكنني جعت، الا تشعرين بالجوع؟

– لنذهب إلى بستان العم روبيتان. ونأكل العنب.

– الوالدة خديجة تخبز، لنأخذ منها قرصة خبز ثم نذهب.

ظهر الارتياح على وجهها الصغير الابيض المشرب بحمرة خفيفة. ومررت اصابعها الدقيقة في ثنايا شعرها الذهبي. وفي الوقت الذي تحدق في عيني كرزو، كان فكرها يسرح مع كلمات والدتها «اذا جئت إلى قصر المدير لا تأكلي شيئا. لا تدخلي الغرف. لا تلعبي بأي شيء وإلا قتلتك..»

كانت جائعة، في الصباح لم تأكل سوى قليل من الرز والعنب.

قال آزاد بإلحاح:

– هيا نذهب. لماذا انت واقفة؟

– اذهب أنت. أنا وكرزو ننتظرك هنا.

– هل تخافين من الوالدة خديجة؟ أنا معك، لا تخافي

– ولكنك لست معي في البيت.

– هل هي تضربك؟

– لا، ولكنها تهددني دائما.

– التهديد كذب. انا أيضاً تهددني والدتي دائماً.

– ووالدك، ألا تخاف منه؟

– انه يحبني كثيراً. وحين تحاول والدتي ضربي، احتمي به.

أنا أخاف من والدك، الناس كلهم يخافون منه.

تثاءب كرزو فاغرا فاه، وتدلى لسانه الطويل، ومد جسمه حتى كاد بطنه يمس الارض. قالت نسرين:

– هيا اذهب، ملّ كرزو من الانتظار.

وانطلق آزاد باتجاه البيت. واراد كرزو اللحاق به. ولكن نسرين منعته قائلة له:

– هيا بنا إلى بستان العم روبيتان.

سارا ببطء ثم لحق بهما آزاد. وكان كرزو لا يلوي على شيء. يسير بهدوء ورزانة ويلتفت بين فينة وأخرى يمنة ويسرة أو ينفض فروه الناصع البياض، أو يقف فجأة ناصباً اذنيه ينتبه لشيء ما.

كان بستان العم روبيتان يغطي مساحة واسعة من سفح الجبل «به روخ» الذي يشرف على القرية. وقبل أن يبلغا البستان وقفا هنيهة ينظران إلى الوراء.

كانا قد ارتفعا عن مستوى القرية. وتراءى لهما البيت المبني على مصطبة صخرية، ومن ورائه غابة البلوط الممتدة على مرتفع «سةر كةفري». وكانت بيوت القرية والسوق تتراءى واضحة مع مركز الشرطة والمدرسة وفي أقصى القرية يبدو المسجد مع البركة.

قالت نسرين وهي تنظر في عيني آزاد السوداوين:

– اجمل بيت في القرية هو بيتكم.

– بيتكم أيضاً جميل.

بيتنا يتكون من غرفتين صغيرتين و كل حوشنا هو سطح بيت العم روبيتان.

– لكنني ارتاح كثيراً في بيتكم

– ماذا يوجد في بيتنا حتى ترتاح اليه؟ انه فارغ.

– انه مملوء بالباستوق(*) والسمسم والبلوط.

نظرت نسرين إلى قرص الخبز الابيض التي يتأبطها آزاد، وهي تزدرد لعابها.

– كلها لا تساوي هذه القرصة.

تنهدت. كانت تتمنى أن تكون طليقة مدللة مثل آزاد، تدخل في أي بيت تشاء. انه يكرم في كل بيت يدخله. في بيت مأمور المركز والموظف الصحي وكاتب البلدية والحاج حسن وابناؤهم يتمنون صداقته، ولكنه لا يتردد عليهم ولا يصادقهم. وقد آثر صداقتهما على كل شيء وحتى في المدرسة كانا لا يفترقان. وإذا حصل في البيت على قطع الحلوى والبسكويت كان يهرع اليها يتقاسمها معها. وفي بعض الاحيان يقضي النهار كله في مسكنها، حيث تقدم له خديجة كل شيء تقع عليه يدها. وتمسد له شعره وتدلك ظهره ويرجوها هو أن لا تضرب نسرين، وان تسمح لها بالخروج معه إلى بستان العم روبيتان وغابة البلوط.

أفاقت نسرين من شرودها.

كان آزاد هو الآخر يفكر. عيناها جميلتان. شعرها جميل بلون الذهب. بيضاء مثل ندف الثلج الذي يتساقط في الشتاء ويكسو الجبال والوديان والغابة باللون الابيض، انه سيكبر، سيكون رجلا، سيشتري لها ملابس جديدة ملونة، سيبني لها بيتاً مثل البيت الذي يسكنون فيه، لقد قال له والده انك ستدخل الثانية عشرة من عمرك بعد ثلاثة أشهر. كم يراها لطيفة وجميلة، انها تشبه والدتها تماماً قالت:

– هيابنا، سوف نتأخر.

واتجها صوب البستان

– يوجد شيء في البستان، اما انه ثعلب أو أرنب.

– كيف تعرفين ذلك؟

– ألا ترى كرزو يركز نظراته في البستان ناصباً اذنيه؟

– يا لك من شيطانة. أنت تعرفين كل شيء.

– هذا شيء يعرفه كل انسان.

– نسرين، كم أحب أن أعرف ماذا يوجد وراء ذلك الجبل.

– انه عال جداً، لا أحد يستطيع أن يصل قمته.

(*) نوع من الحلوى يصنع من الزبيب والدقيق.

– واذا حاولنا، الا نستطيع؟

– ستغيب الشمس قبل أن نصل إلى حوض الثلج(**) وعند ذلك ستخرج علينا الذئاب.

شعر آزاد بالخوف وخشي ان يتعرض لهما ذئب في البستان، الا أنه أطمأن إلى وجود كرزو الذي يستطيع مصارعة أقوى الذئاب. وتذكر تلك الهاوية، وتخيل نفسه يقع في أعماقها ونسرين تصرخ.

قفز عم رويبتان من وراء شجرة تين وبيده عنقود من العنب وهو يضحك بفم خال من الاسنان:

– هلاو بالجيبين هلاو.

صاح آزاد راكضاً نحوه:

– عمي رويبتان.. عمي رويبتان..

واحاط به..

– هيا تعالا.. عندي شاي.

دخلا الكوخ الصغير الذي صنعه من أغصان البلوط تحيطه الكروم واللوز. كم يتمنى لو أنه لا يعود إلى البيت. يبقى مع نسرين والعم رويبتان وكرزو. أو يعيش في بيت «خهجه».

***

في اليوم الثاني ذهبا إلى غابة البلوط بعد الظهر. وتجولا بين الاشجار الهرمة والقبور القديمة، واشعلا النار، وعند أحد القبور وقفت نسرين. كان الحزن بادياً على وجهها، وسالت على وجنتيها المتوردتين خيوط رفيعة من الدموع..

– نسرين. ما بك؟

– انه قبر والدي. قالت ذلك بأسى. عبثاً تمنى لو يستطيع أن يبكي مثلها. تذكر قول ملا رشيد الذي يعلمه القرآن «إذا زرت المقبرة اقرأ الفاتحة». واراد أن يتظاهر بالحرص:

– نسرين. رددي معي سورة الفاتحة على روح والدك.

وقرأ الفاتحة. ثم تركا الغابة في اتجاه البيت و ورآءهما كرزو يسير بخطى وئيدة، منكس الرأس. بلغا شجرة البلوط المقدسة. قالت نسرين:

– لنقبل جذعها ونشد خرقة على غصنها. انها شجرة مباركة.

– كذب من قال ذلك؟

– استغفر الله. لا تقل ذلك. لو سمع ذلك ملا رشيد لذبحك.

– ملا رشيد أكبر كذاب. في النهار يعلمنا القرآن، وفي الليل يشرب العرق مع والدي والموظفين.

(**) حوض ضخم يدخر فيه الثلج للصيف.

- آزاد لا تقل ذلك.

كان أثر البكاء ما زال بادياً على وجهها.

كان سور من الاحجار الصغيرة التي وضعت فوق بعضها البعض بترتيب متناسق يحيط بجذع الشجرة. التقطت نسرين حجراً و وضعته على السور الصغير. ولكن آزاد ركل السور بقدمه فانهار. وتقدم كرزو ورفع ساقه وبال على جذع الشجرة. اتسعت حدقتا نسرين برعب، وقالت بصوت غريب:

- أنت كافر، كلكم كفار. ما هذا هل أنت مجنون؟ سوف لن أخرج معك أبداً.

وانصرفت إلى اتجاه القرية.

- نسرين، ما بك؟ انها مجرد شجرة صماء.

- روح والدي وأرواح الموتى كلها في هذه الشجرة. اذهب لا تتكلم معي مرة ثانية.

- ولكنني كنت لا أعرف ذلك.

سارت في طريقها دون ان تلتفت اليه، جرى وراءها وبجانبه كرزو، نظر اليه بحقد.

- نسرين، أنا لم أقصد شيئاً.

لم تتكلم، لحق بها و وضع يده على كتفها.

- لكن، غدا عندنا وليمة والوالدة خةجة وافقت على مجيئك إلى بيتنا.

دفعت يده بقوة:

- قلت لك لا تذكر اسمي مرة اخرى. اذهب إلى شأنك.

وقف في مكانه بألم، ثم اتجه نحو البيت، وفي حلقه غصة تكاد تخنقه. كان الباب مسدوداً، طرقه بشدة، وخرج والده قال واضعاً يده على كتفه:

- ها ابني، كنت أعتقد انك ذهبت مع والدتك.

- أين والدتي؟

- خرجت مع اخوانك لزيارة ام بدري. هيا الحق بهم.

وقبل ان ينصرف، اغلق الباب في وجهه. سمع والده يتهامس مع انسان ما وراء الباب. رأى والده يعانق «خةجة» و يقبلها بشراهة.

اغمض عينيه متقهقراً إلى الوراء، وقعت عيناه على القرية، كانت نسرين لم تبلغها بعد، بدا له الكون كأنه يدور، وشعر بهوة تنفتح في قلبه الصغير وتتوسع أكثر فأكثر.

وانفجرت من عينيه الدموع، وهو يسرع الخطى ليلحق بنسرين و يطوقها معتذراً منها قائلاً:

- به ختي خدي دا. (من أجل اللّه).

ليلة اعتيادية

الجو خانق في القاعة رقم واحد. الدخان يشكل سحابة كثيفة تحت السقف. الضجيج يصم اذنيه. رأسه يكاد ينفجر. أصابعه في الطريق إلى الاحتراق. لا يدري إذا كانت اعصابه باقية أم لا. قلبه يفور بغضب. الدماء تنتقل في شرايينه بسرعة جنونية. يريد أن يصرخ. أن يحطم كل شيء. ما معنى القاعة رقم واحد؟ ما مكانها في العالم؟ لماذا احتلت فراغاً بلا جدوى على الارض؟

الضوضاء تشتد. قهقهات هستيرية تنطلق من شلّة من السجناء غير السياسين، احتلوا أحد الاركان. انهم لا يستطيعوا ان يتحدثوا الا بصوت يمزق الآذان. وثمة قاطع طريق في الزاوية اليسرى يرتل آيات من القرآن الكريم بصوت كله نشاز. وهذا الرجل البدين الذي يقابله، عندما يتحدث إلى صاحبه، يخيل اليه انه ينفخ في البوق. وهناك على الحائط لافتة كتب عليها «أيها الزملاء، يرجى المحافظة على الهدوء».

يريد أن يقرأ، الا أن الحروف تتراقص امام عينيه وتتقطع الصور التي تكونها إلى أطياف مضطربة لا معنى لها. الدخان يكاد يخنقه. يريد أن يكتب، ولكنه عبثاً يحاول ذلك.

– ها ها ها.. ها.. ابن الزانية محكوم اربع سنوات وفرحان. يهجم على عشيق والدته بالخنجر ولا يقتله. يا له من قواد أصيل.

ويصدر صوت آخر كفحيح الثعبان:

– اسكت يا سارق الابقار، لست أشرف منه.

ثمة وجه جامد كالتمثال، يلتصق بالجدار. عيناه نائمتان. لحيته هلال، تتوسطه نجمة سوداء تحت شفته السفلى، هادئ، لا يتكلم:

– كل من سرق خروفاً صار حرامياً.

القاعة تتنفس ببطء. نور المصباح الهزيل المتدلي من السقف، يتضاءل في ثنايا الدخان الكثيف الذي يتصاعد بتثاقل. وطأة الثقل تشتد في رأسه. الفراغ يتقلص. الجدران تكاد تنطبق على بعضها البعض وتسحقه كأية حشرة تافهة.

– هه. يا ابن الزانية لا تقترب من زاوية السياسين. انهم اشرف من ان تدوس مكانهم بقدمك القذرة.

– لا. أبو حسون لا. كلنا اخوان لا فرق بيننا.

من فوق الهلال تتحرك الشفتان المدبوغتان في الوجه الجامد:

– ابني. نحن نختلف عنكم. نحن حرامية. قتلة.

الطنين الحاد يخفت في اذنيه. كان حادا، قويا مثل جرس كهربائي، كانت والدته تقول له عندما كان صغيراً. شعرت بطنين في اذنك فان أحداً في مكان بعيد يذكر اسمك.

انتبه إلى كلمات الرجل ذي اللحية الهلالية:

– نحن وحوش يا ابني. نقتل من أجل دجاجة واحدة.

لن تخفت الضوضاء. اعصابه تكاد تحترق. جسمه اشبه ببرميل من البارود. هنا نقاش. هناك جدال. ضحك. غناء.. دخان.. دومينو. محيبس.

– أنا العب. العب والعب. العب وأكسر. اكسر العظم.

القاعة، جوف غواصة تحت آلاف الاقدام من سطح المحيط.

– لا. لا. ابو حسون.. الذنب ليس ذنبكم.

تحرك الهيكل المحنط المنفرس كالوتد على فراشة، الذي تحول إلى لون السماد ببطء. رائحة نتنة تتصاعد من طبقة الصديد المتيبس على اللحاف. فغرفاه وارتسمت على وجهه الصخري دهشة بليدة:

– ما سمعت عنكم. أنا قضيت حياتي في الصحراء مع البدو بين العراق والسعودية.

تنهد بعمق محدقاً في الفراغ.

تراءت له الخيام السود المتناثرة على صفحة الرمال الذهبية المتموجة تحت وهج الشمس. والآفاق. وليل الصحراء. ونجوم الصحراء..

«او يلي يابه.. يباب.. وين الولف وين..؟»

الغواصة تنوء بحملها الثقيل. وتغوص أكثر فأكثر في أعماق القاع. كلهم في رحلة سديمية إلى شاطيء مجهول. ينتظرون أن تحط الغواصة رحالها في الشاطيء الابدي. الاكياس معلقة على الجدران بشكل مزدحم فظ، القيت عليها الملابس باهمال. كل شيء يبدو بشكل مؤقت. انها رحلة.

القاعة بدت تدور بعنف. درجة الصخب ترتفع نحو الذروة. الصداع النصفي اجتاح رأسه مرة أخرى. الماء يترشح من أنفه. رقبته تؤلمه، وكأن انشوطة التفت حولها.

الرجل ذو اللحية الهلالية يئن مواصلا اغنيته الصحراوية. القهقهات ترتفع بهستيرية. الجدران تتقلص. الغواصة تتحول إلى قبر خانق.

– ها ها ها.. احسب أبو حسن بدقة. كم؟ حسنا ٧٣٧٥ يوماً وعشر ساعات واربع واربعين دقيقة. الآن مرت دقيقة كاملة. تنتهي. لابد أن تنتهي.

وتتحرك الشفتان الغليظتان ببلادة. ويخرج الصوت مثل الصراخ:

– وانت كم بقى لك أبو فوزي؟

ويطفح وجهه النحاسي بابتسامة خبيثة.. أسنانه تلمع.

– أنا ساكون طليقاً بعد ١٢٩٦٠٠ دقيقة.

وينبعث همس مخنوق:

– يخرج ليزور الكمبيالات من جديد:

ويلتوي في مكانه بضجر كأنه زرق بمصل في شريانه.

انين الاعرابي ذو اللحية الهلالية يرتفع ليتحول إلى صراخ. متشرد باكستاني ملقى عند الباب كأي خرقة، وهو يهز لحيته الرمادية. الطنين يرن في اذنه بقوة. عيون اميرة، اخته الصغرى تطل عليه من خلال غمائم الدخان، تضحك، تمرح، تلعب. انها غمامة تلاحقه في كل مكان.

وترتفع قهقهة هستيرية متقطعة من ابي فوزي:

– ليذهب الكل إلى الجحيم. لقد عرفت كيف اسحب خمسة آلاف دينار من البنك على ثلاث دفعات. لابد اني سأخرج. وستشهد ليالي بغداد من أنا.

القاعة ضاقت الى درجة الصفر. سيختنق إذا لم يخرج إلى الساحة. القى الكتاب جانباً.

كانت عيون الاميرة العسلية تكسب خيوطاً من الدموع تشق طريقها عبر وجهها المتشنج إلى شفتيها الورديتين اللتين تقلصتا وتحولتا إلى بنفسجية قاتمة.

الغواصة لن تهدأ كي يجنح رأسه إلى السكون. رقبته تتخشب. الآلام تمتد عنيفة إلى تلافيف دماغه. القيء يصعد إلى حلقه. لحاف البدوي. لحية الباكستاني الرمادية. رائحة الزنج. الغواصة تسبح في بحر من الصديد، القيء، السيان اللزج، انها لا تستطيع ان تتحرك. تهبط إلى القاع. تركن إلى السكون. سكون الموت. القاعة تتقيأ. اجتاز الباب الضيق إلى القاعة الثانية. انهما قبران متداخلان. التصقت فيهما الاجساد البشرية مثل أكياس في مخزن للحبوب.

عبر القاعة الثانية إلى الساحة. الهواء ندى بارد. القمر يعوم في بحيرة من الظلام. ازهار المشمش البيضاء على الشجرة الوحيدة تهتز، تتراقص تحت شلالات من النور يكسبها القمر.

اصبح عالمه واحد غير جزء، وغمرته نشوة ذوبته وحولته إلى نثار. كل شيء نائم، إلاّ هو والحارس الذي يمشي بخطى وئيدة مملة على السطح.

السكون، عالم رائع بهيج، القطط بدأت تطارد بعضها البعض. مواؤها يرتفع بشهوة، ثمة وراء الشجرة يجلس السجناء العاديين. عيناه تلمعان كعيون القطط النعاس يجثم عليه. اتجه إلى قاعته بخطى ثقيلة. دخل جوف الغواصة الساكنة، الراسية في أعماق القاع بانتظار من يقع المرساة من أرض المحيط.

الكتل البشرية نائمة. السكون يفرض نفسه ببلادة. القمر لم يغب انه يرسل حزمة مذابة من الفضة عبر نافذة بالسقف.

وكان النائمون يحلمون بالاشجار والشوارع والنساء.

القطار والسور

الساعة الواحدة والنصف تماماً بعد منتصف الليل.

– طووووو... طوووو...طووت..

تمدد على فراشة البارد، دافناً رأسه في مخدته يحدق في النجوم. صفير القطار يأتي من جهة ما في أطراف المدينة، يحمله نسيم ينعش وجهه ويثير في نفسه احساسا غريباً، يطوي به مسافات لا حد لها. ويكون للحظات سريعة في حل من الشعور الاعتيادي الرتيب الذي يقيّد كل جزء فيه بقيود لا يستطيع التخلص من وطأتها. وشعر أنها تعصر منه في كل لحظة اشياء عزيزة تنساب عبثا في دورة مفرغة.

الصفير يمتد كئيباً، محبوطاً، حزيناً، طويلاً كالسكك التي تتلاشى عبر الافق.

– طووووو.. طوووو.. طووت..

نداء بعيد يأتي من وراء ستائر الليل، غامضاً مثل شريط من الندى يقتحم القيظ، ينفذ إلى اعماقه في مثل هذا الوقت من كل ليلة. ولكنه الآن غريب يفتح امامه رؤيا تشده إلى اشياء، كان يعتبر التفكير فيها ضرباً من الخيال. اشياء تتوالى على مخيلته، مسرعة ، متعاقبة، قريبة تكاد تلامسها يداه.

الباب الكبير القديم المغلف بالصفيح المثبت بمسامير ضخمة منسقة بشكل هندسي، تتوسطه مدقة تمثل يدا مضمومة. كان في صغره يقفز قفزات متتالية مثل ارنب صغير ويرفعها بصعوبة لتسقط على مسندها محدثة طرقات قوية، وتأتي والدته مسرعة لتفتح الباب ويضحك هو ويركض.

الباب ينفتح، يسمع صريره المعتاد المحبب إلى نفسه، تطل والدته من ورائه بخيفة وتوجس كعادتها دائما. وتحدق فيه وتطيل النظر. أحقاً هو؟ ويرمي الحقيبة ليتعانقا. وتحدث الضجة في ارجاء البيت. الضجة المألوفة التي يرتاح اليها احياناً ويثور منها اخرى. واول ما يبدو له غرفته إلى اليسار. ثم الغرفة الثانية التي تقابلها. وبعد خطوات خمس او ست لا يذكر بالضبط، سيكون في فناء الدار. لابد ان الاشياء قد تغيرت. لا تحتاج هذه المرة إلى الانحناء عند تقبيله أخته الصغرى. انها الآن قد كبرت. اربع سنوات اضيفت إلى عمرها. سيعانقهم كلهم بشوق وحرارة.

ان شجرة الكالبتوس في الحديقة قد ارتفعت الآن، ونشرت اغصانها لتظلل جانبا من الدار، تحيط بها شجيرات الرمان التي لابد انها قد اثمرت الآن.

هبت نسمة من ناحية الشرق. الثريا تغور في اعماق النجوم، تتعلق عمودية فوق رأسه وبنات نعش تزحف في كبد السماء بطيئة في حركة لا ترى. ثمة نجمة مضيئة تتسلق السور. القطار الليلي سيغير اماكن كل هذه الاشياء الثابتة حين يشق به المسافات. وعندما ينام على السطح في البيت ستزحف بنات نعش من وراء شجرة الكالبتوس. وتكون الثريا في مكان آخر. الليل اذ ذاك يكون اعمق. والنجوم اقرب إلى الارض.

سيكون موضوعاً دسماً لأحاديث اهل البلدة في ذلك اليوم. ان لم تكن قد ضاقت عليه بدلته الصيفية التي لم يلبسها اكثر من موسم واحد، فسيرتديها حسب الاصول ويستقبل بها المهنئين، فارضا كامل شخصيته التي لابد انها ستبدو ساحرة وغامضة. سيتخلص من «الكانة» وسيشبع من الاكلات الشهية التي تطبخها له والدته. وستسرى نكهة البيت في دمائه. ملابسه التي لم تغسلها يداها طيلة اربع سنوات سيتبدل ملمسها ورائحتها. ستغمره راحة حقيقية حين يرتديها.

المرآة الكبيرة ذات الاطار المذهب، الموضوعة على المنضدة الملاصقة بالحائط في الغرفة الملاصقة لغرفته، والتي هي من بقايا «جهاز» والدته ستستقبله كالمعتاد بغبارها الخفيف المتراكم على صفحتها. ولكن سيمسحونه جيدا. ويمسحون المزهريات المرصوفة امامهم بانتظام. ولابد ان ازهارها الاصطناعية قد تغيَّرت ووضعوا مكانها ازهارا جديدة. من يدري لعل شكل الحديقة قد تغيَّر ايضا. مهما يكن فان الدار لا تخلو من كآبة. بالنسبة اليه سيرى الكل ويعانقهم جميعاً. ولكن الفراغ الذي تركته جدته التي كانت تحبه كثيراً سيظل يحدق فيه بألم.

وسوف لا يرى سوى خيالها ينتقل امام عينيه، ترتسم على ملامح وجهها الذي تغطيه الغضون، ابتسامة تكشف عن اسنانها الاصطناعية وهي تتوسل اليه ان لا يتدخل في اشياء تعذبه وتجلب له المشاكل. وان الشيء الذي خلقة اللّه لا يمكن ان يغيره البشر. وتنتقل في البيت منشغلة بأمور صغيرة تسقي الحديقة. تجتث الأعشاب الطفيلية من جذورها، تقلم الاشجار، تغسل الأزهار من الغبار المتعلق، ثم تذهب بصمت إلى غرفتها تجلب المصحف، تنفضه وتبدأ بالتلاوة. وبعد الانتهاء من ذلك تتخذ ركنها لتنشغل بالتدخين واداء الصلاة في اوقاتها. ويلتف الصغار حولها يداعبونها ويخفون لفافاتها او يسرقون مسبحتها وولاعتها. ولا يمر يوم الا وتضيع منها الاخيرة عدة مرات، وحين تلوح لهم بالفلوس تعود اليها مفقوداتها. وكل واحد منهم يتظاهر بانه أحرص من غيره في البحث عن المفقودات.

«أصحيح أنها ماتت؟».

وتنهد بعمق. اربع سنوات؟.. انها ليست قليلة. ايصدق انها انقضت بكل فصولها وشهورها؟ ولأول مرة يفكر بالعالم الموجود وراء السور. وينتقل إلى هناك بكل افكاره. انها فترة ليست قصيرة مات كثيرون وكبر الصغار.

لم يبق سوى عدة اسابيع. ولكن، هل تنقضي؟ هل تدور نفس السرعة التي مرت بها الايام السابقة؟ ام تظل تزحف ببطء موازية بامتدادها كل الفترة السابقة التي اجترته اجترارا.

القطار.. حين يطوي به المسافات، يرى الآفاق تلتقي عندها السماء بالارض، يتمتع بمنظر الغروب والاراضي المنبسطة التي تتخللها القرى والبساتين والانهار، ستقع عيناه على كل تلك الاشياء التي يكاد ينسى معالمها.

«طووووووو... طووووو.. طوووت...».

صدى الصفير يرن في اعماقه بحزن. وفي خارج السور تنبح الكلاب بشكل متقطع وثمة نباح متميز لكلب في مكان ما من المدينة، يسمعه كل ليلة وهو يكدر السكون. وحين ينقطع يتعمق السكون، وتتسع ابعاده ويكون بلا قرار.

كل شيء اذن سيبدو له جديدا.

ربما غيرت اخته الآن ترتيب غرفته، ولكنها على اي حال محتفظة برائحتها المألوفة وجوها الخاص. صورة والده المتوفي على الجدار المقابل بوقاره ورزانته. المزهرية الكبيرة التي صنعها من زير قديم، تحتل مكانها في الزاوية اليسرى. وعلى الجدار المقابل لها تنتصب زهرة «الختمة» التي رسمها على حصيرة تعانق السقف. وعند مدخل الغرفة مكتبة صغيرة، تحتوي على اوراقه وكتبه.

سيغوص في كرسيه الخاص لأول مرة بعد انقطاع دام اربع سنوات. ولابد ان جو غرفته سينقله إلى ذكريات ابعد وابعد. ولكن مثلما تغيّر كل شيء خلال هذه الفترة، فهو ايضا قد تغير، لم يعد بامكانه ان يتخاذل امام حبيبته المغرورة التي اندفع في حبها إلى حد الطيش. سيعلم كيف يلقنها درساً قاسياً. انها الآن هي الاخرى قد كبرت. وربما قد كبر معها غرورها ايضا. مهمَا يكن لا يهمه امرها. الحياة الجديدة التي سيدخلها اوسع من ان تضيق به. كل شيء الآن قد اصبح اعتيادياً لا غرابة فيه ولا عجب. سيعمل هذه المرة بشكل جديد من اجل ان لا تذهب السنوات الاربع عبثا. مازال كل شيء اشبه بالخيال.

وبدا له تحقيقه بعيدا.. بعيدا.. كالسنوات الاربع الطوال التي استلت من عمره.

القطار يتحرك.

«طووووووو... طووووو.. طوووت...».

«جك جك.. جك جك.. جك جك...».

النجوم تلمع مضطربة في السماء العميقة وقطار احلامه يخرق الآفاق عبر السهول والوديان والليل.

من أجل ان تتكامل الأشياء

ثمة لعب اصطفت على المكتبة في أوضاع مختلفة، كلها تنظر إليّ بعيون غريبة. في الخارج ينزل الثلج. الليل حليبي شفاف. الثلوج تغطي كل شيء، اغصان الاشجار العارية، سقوف البيوت، الشوارع الخالية. في شباط تزهر عندنا أشجار المشمش على ما أتذكر. ها هي اغصان الاشجار المكسوة بالثلج تشبه أغصان المشمش المكسوة بالزهور البيضاء. الليل وراء زجاج النافذة، رائق صاف. هذه الليلة سبق أن عشتها من قبل. وعيون اللعب هناك فوق المكتبة سبق أن رأيتها ايضا. متى كان ذلك؟ لعلني لو عصرت رأسي ألف عام لما استطعت أن احدد ذلك بشكل مطلق. انها نفس الليلة. ولكن الثلوج إذ ذاك كانت لا تغطي الشوارع وسقوف البيوت ورؤوس المارة فحسب. كانت قد غطت ارضية غرف البيوت وممراتها. المكاتب، آلات طوابع كتاب العرائض والموظفين، الاوراق.. وعندما وقفت أمام رئيس دائرتي إذ ذاك وقدمت له طلب نقلي، استلم مني الطلب ورقة بيضاء ازال الثلج كتابتها وقال لي هازاً رأسه:

– اني لا اعرفك.

قهقهت بشكل علمت فيما بعد انه كان مزعجاً. وقلت له وأنا اتركه:

– امسح الثلج من صلعتك يا سيدي.

كان لا يستطيع ان يحرك يده ليمسح الثلج من صلعته. كنت اظن اني احلم حين وجدته تمثالا نصفياً من الرخام وقد ارعبتني ساقاه المبتورتان تحت مكتبه. وسحبت نفسي من الغرفة وانا افكر بصديقي البروفسور.

ثمة بين اللعب دببة، قردة، أطفال. لم أكن إذ ذاك هنا وكان الفراش غير هذا الذي استلقي عليه الآن. ولم تكن الغرفة تعود إلى «ايلكه» الصغيرة. رغم ذلك فان كل شيء هو هو. بعد منتصف الليل بلغت ايلكه الرابعة عشرة.

واضفت إلى لعبها لعبة أخرى. الدب البرليني وهو يحمل فوق رأسه تاج برلين التقليدي. قالت مبتسمة:

– كنا ننتظر قدومك بلهفة.

«آه يا ايلكه لو أن الاشياء تعود إلى الوراء. لو أن
الأرض خفت من دورانها بعض الشيء. لو لم

تكوني صغيرة. لو لم أكن أنا ذاتا اسيرةِ بين قوسين
من الفولاذ، لإستجبت إلى نداءات عينيك. لست
غبياً. ولا بارداً كرجال القطب، ولكن شيئاً من
روح الشرقي يسريل اباني».

ألم أكن قد مررت من قبل بمحاذاة هذا السور الذي بناه فرسان الاقطاعيين في القرون الوسطى، وهذا البرج الذي كان يقف الحراس عليه ليلا ونهاراً برماحهم الطويلة واقنعتهم الحديدية؟.. أين هم الآن؟

كلما دخلت مدينة جديدة، ونمت في فراش جديد، شعرت بميلادي يعاد من جديد، اللعب تنظر اليّ بشكل غريب. إذ ذاك كانت قد قطعت رؤوس بعضها وأما الآن فهي سليمة. دببة، قردة، اطفال. وثمة حمار كبير ايضاً. كنت أشعر بالرهبة بكل ضخامتي، أما ايلكه التي تنام لوحدها بين هذه العيون الغريبة الا تشعر بالخوف؟ سوف أسألها. ولكن الا القي بذلك حجراً في هدوء بحيرة نفسها واكدر كل شيء؟ ربما من المستحسن أن لا تعرف الحقيقة بعد. انها سوف تجن بلا شك إذا ما انتقلت وراء الجدار ورأت كل شيء بام عينها.

البروفيسور جالس وراء مكتبه بغرفته المعتمة، يرتدي كالعادة صدريته الطبية البيضاء، لا يبدو منه سوى ظهره وهو غارق بين المجلدات الضخمة.

نزلت الدرج في طريقي اليه. ثمة رجل واقف في العتمة. قال لي شخص غير مرئي بصوت غير مسموع:

«انه مساعده»..

وقبل ان اصل إلى البروفسور، وقفت في مكاني مذهولا. كنت لا أعرف غايتي من الذهاب اليه، ولكنني كنت أعرفه منذ أن عرفت نفسي. ومهما يكن فلابد انه كان من سبب. ولعلني نسيت ذلك من شدة الفزع الذي وتّر اعصابي. فها ثمة رأس مقطوع وضع على منضدة مغطاة بغطاء أبيض نظيف. وقبل أن يخطر بذهني أي تفكير آخر لمحت عيني الرأس تنظران إليّ بشفقة وعطف. وقد ارتسمت علي ملامحه الشاحبة ابتسامة حزينة عمقت التجاعيد في وجهه. قبل أن يمر بذهني أي تفكير، قال لي شخص غير مرئي بصوت غير مسموع:

«لقد توصل البروفيسور نتيجة ابحاثه الطويلة إلى منع الموت من الوصول إلى الرأس..».

وفجأة تذكرت المسودات التي أراني اياها البروفسور حول اختباراته التي انهمك بها منذ ستة وثلاثين عاماً. وتذكرت ما قاله لي بخصوص العلاقة بين الرأس والجسم. واثبت أن الرأس يمكن أن يعيش إلى الابد، بشرط ان يكون سليماً منذ البداية. وحين سألته عما يقصد بذلك. اجاب بانفعال:

– يجب أن لا يكون عفنا.

اردت أن أتوجه إلى البروفسور، الا أن الرأس استوقفني قائلا:

ماذا تريد أن تعرف عنه؟ دعه يعمل. انه يريد ان يعيد بعض الموتى إلى الحياة.

– وهل كنت ميتاً واعاد اليك الحياة؟

اجاب غمضاً عينيه:

– نعم، بعد أن فصلني عن جسدي بمدية حادة.

– والألم كيف تحملته؟

– الألم ينتهي حين تصر على الاستعلاء.

جاءني الرجل الواقف في العتمة وطلب مني
أن لا أرهق الرأس بالكلام الفارغ. حين هممت
أن أخرج من الباب الآخر، وجدت جسماً بلا
أطراف. بلا عيون. وتذكرت التمثال النصفي ذي
الساقين المقطوعتين. فكرت لماذا تعيش هذه الكتلة
من اللحم يا ترى؟
قال الجسم وانا استغرب كيف أنه سمع
الصوت الذي لم يخرج من فمي:
– «انها تعيش لتتكامل»..

عندما اصبحت وراء الجدار كانت ايلكه على الاريكة تلعب بدبها الصغير كانت لم تولد في الجحيم، لذلك كانت ابستامتها غير حزينة، الا أن والديها كانا قد ولدا في الجحيم وعاشا فيه.

قالت لي:

– لماذا أنت حزين، هل تشعر بالغربة؟

كانت لابد ان أقول:

– لا...

«آه. يا ايلكه.. لو تقذف بك الريح ذات يوم
إلى عوالم الغربة. أي حزن عميق يلف إذ ذاك
عينيك الدافئتين.. اية نار سوف تلتهب في قلبك
الصغير؟».

قالت وهي تضرب برجلها الصغيرة حافة الاريكة:

– إذا لم تزرنا دائماً مع هانس، فسأغضب عليك.

– بشرط ان تأتي أنت أيضاً الينا.

قالت بجد:

– بكل شوق، ولكن حين أكبر ويسترجع الرجل أطرافه وعيونه. وعلمت اني كنت أخدع نفسي بسكوتي.

سعار

حدث ذلك قبل اعوام طويلة، يوم كانت المدينة الصغيرة تنام في التاسعة مساء، عدا نادي الموظفين الذي كان الصخب فيه يستمر حتى منتصف الليل. واذ ذاك يخرج الموظفون الصغار، سكارى يغنون بأصواتهم التي كانت تزعج الملا احمد إمام جامع المدينة الذي كان يسكن مقابل النادي فيردد وهو يتهم الدنيا بالكفر والزندقة. «وان انكر الاصوات لصوت الحمير» وكان ينتقم منهم فجر اليوم الثاني بتكراره الاذان عدة مرات رافعا صوت المكبرة إلى اقصى حد، الامر الذي كان يزعج حتى قائمقام المدينة نفسه فأصدر هذا امراً يقضي بمنع استعمال الميكروفون في الاذان. وقد حاول الملا كسب الرأي العام في المدينة إلى جانبه لالغاء هذا القرار المجحف ولكن محاولاته ذهبت عبثا، فلم يقف إلى جانبه سوى بضعة شيوخ يستيقظون عادة قبل اذان الفجر.

كتم الملا غيظة وراح يتذمر في مجالسه الخاصة عند الناس الذين يثق بهم. وذات يوم انذر القوم بان كارثة ستحل بالمدينة، اذ انه حلم بغول يعبث بأهلها، فادخل بذلك الرعب في قلوب المحيطين به واما الآخرون فراحوا يعتقدون انه قد جن.

وبعد ان مرت فترة غير قصيرة على نذيره تم نسيانه حتى من قبل جماعته. وذات مساء هادئ، عم الصخب على غير عادة المدينة الصغيرة وراح منادي البلدية يعلن بمكبرات الصوت عن دخول ذئب مسعور المدينة وانه قد جرح عددا من المارة واقتحم بعض البيوت. وانه مستمر في عبثه بحياة الناس، فعلى جميع اهل المدينة الاعتصام ببيوتهم، وأخذ الحذر الشديد. وان افراد الشرطة قد انتشروا في جميع ارجاء المدينة بحثا عنه. الا أن الناس لم يعيروا لذلك انتباها بل راحوا يبحثون عن الذئب بالعصى والهراوات. وانتشرت الاخبار بسرعة عن الاضرار التي الحقها بالناس.

اقتحم اكثر من عشرة بيوت.

قتل ثلاثة اطفال.

طرحت امرأة حاملة طفلها من الخوف.

شوه وجه امرأة.

وقطع نهد اخرى.

قطع حنجرة شاب.

وراحت الاخبار المتضارية تأتي من كل زوايا المدينة والناس يبحثون عنه بغيظ وألم.

شوهد مرة قرب الطاحونة القديمة، وبعد هنية كان ينطلق كالسهم في مزرعة الباقلاء، ثم شوهد وهو يحاول اقتحام احد البيوت في زقاق مصطفى آغا.

و وصفه شاهد عيان بأنه ذئب أعرج ولكنه أسرع من الطلقة وانه ضعيف جداً بل اضعف من كلاب الصيد.

وفي النادي دخل الرعب قلوب الموظفين، فتركوا كؤوس العرق واوراق اللعب في الحديقة واعتصموا بالغرف، وسدوا النوافذ واسدلوا حتى الستائر.

وفي البيت المقابل للنادي كان الملا احمد يطل من كوة صغيرة إلى الشارع وهو يسبح بحمد اللّه ويردد، اجل.. اجل.. هذا هو يوم القيامة. لم يصدقوا حلمي. هكذا يرسل اللّه طيرا ابابيل. ليأت الغول على آخر رجل في المدينة.

وكانت اجراس التلفونات تدق بشكل مستمر بين القائمقام ومعاون الشرطة والطبيب ومركز اللواء في حين كان لا يجيب احد على نداءات نادي الموظفين.

طلب القائمقام من رئاسة صحة اللواء ارسال عدد من سيارات الهلال الاحمر بسرعة البرق وإلا فان أرواح الناس في خطر، اجابه الطبيب الخفر بان رئيس الصحة في اجازة، وان السيارات المحدودة هي للطوارئ ولا يمكن ارسالها إلى خارج مركز اللواء إلا بموافقته.

انفعل القائمقام وهو يلعن الذئب ورئيس صحة اللواء، ثم طلب من مأمور البدالة ان يفتح الخط على تلفون المتصرف نفسه.

سيدي.. البك سافر هذا اليوم إلى بغداد حول قضية نقله ولعله سيرجع بعد يومين.

قال ذلك شخص ما، ثم قطع الخط.

وراح القائمقام يذرع غرفته جيئة وذهاباً بملابس النوم وهو حانق على الدنيا كلها، وفي هذه اللحظة دخل عليه خادمه قائلا:

– بك.. صحفي يريد مقابلتكم.

اجاب مندهشاً:

– ماذا.. صحفي؟ من أين جاء هذا الصحفي؟

– لا ادري بك. انه جالس في السيارة لا يريد النزول خوفاً من الذئب.

دعه جالساً في السيارة إلى أن أرتدي ملابسي.

ثم دمدم مع نفسه مزهواً «أهذا هو وقت المقابلات الصحفية؟». بعد قليل دخل الصحفي. رحب

به القائمقام وهو يجيل النظر في قسمات وجهه الهزيل ونظراته الغريبة، بدا له انه ثعلب داخل بدلة غامقة يطل برأسه من وراء الياقة الطويلة والرباط العريض.

قال الصحفي وهو يتناول قدح الشاي بلهفة:

– بك. أنتم تعلمون بحكم وظيفتكم كم هي مرتفعة نسبة الأمية في بلادنا فنحن نعاني الامرين جراء عدم صرف جرائدنا، ولذلك قررت ادارة جريدتنا بعد أن استحصلت موافقة السلطات المختصة أن نقوم بجمع اشتراكات وتبرعات، واني أرجو امركم بتقديم التسهيلات اللازمة.

تملل القائمقام في كرسيه الوثير. وشعرَ الصحفي بغريزته أن اسارير وجهه لا تدل على الارتياح من الطلب.

واضاف وهو يرمقه من زاوية عينه:

– اني في الوقت الذي انقل اليكم تحيات العاملين في هيئة التحرير، اطلب منكم باسمها صورة فوتوغرافية لنشرها في صحيفتنا حيث اننا قررنا أن ننشر عنكم كأداري قدير ذي خبرة عالية.

تفتحت اسارير سعادة القائمقام فقدم له سيكارة اجنبية:

–آ.. الواقع.. أنا اتحسس مشاكل الصحافة في بلادنا. ولكن اليوم، اعذروني لقد وقع حادث غير طبيعي في المدينة مما كدر صفو الامن، يمكنكم أن تمروا بي غداً في مكتبي. سوف اهتم بالموضوع شخصياً:

– تقصدون حادث الذئب.

قام القائمقام من مكانه وهو حائر في أمره، قال وهو يهم بترك الغرفة:

– نعم.. نعم.. الذئب المسعور. لقد بلغ عدد ضحاياه حتى الآن العشرين جريحاً.

تبعه الصحفي إلى الخارج وهو يتصنع ابتسامة:

– الواقع انه موضوع شيق، سوف أكتب عنه في الجريدة.

•••

كان الذئب قد قطع مسافة طويلة قبل أن يبلغ المدينة. وقبل أيام، خلال هجومه على أحد قطعان الغنم قرب احدى القرى الكردية النائية عظه أحد الكلاب. كان مكان العظ عميقاً في جسمه. وبعد ايام شعر كأن سماً قد انتشر في دمائه. وفقد شهيته. كان يحاول أن يجرب كل أنواع اللحوم. كان يغرس انيابه عميقاً في لحم فريسته فيجده مراً، ثم يقطعه غيظاً، فينصرف إلى غيره، كانت الساعة تشير إلى الثامنة والنصف مساء حين أدرك الذئب أنه قد حوصر.

ظهر الشرطي رجب ببندقيته الانكليزية من بين حشد من الناس وصرخ طالباً منهم أن يبتعدوا عن

مكان الخطر. كان الذئب قد اصبح بينه وبين جدار بيت قديم مهدم. كان هو قد هيأ الاطلاقة. وبسرعة كلمح البصر، انتفض الذئب هاجماً عليه. كانت المسافة بينهما لا تتجاوز المتر. اعتقد الحشد أن الذئب قد قضى على رجب وانه لا خلاص له. الا أن دوياً هائلاً هز الجميع. وبدا الذئب كما لو انه اصطدم بجدار حديدي مكهرب. ودار حول نفسه عدة دورات، ثم اطلق صرخة مكتومة، ومات.

توجه الموظفون وعلى رأسهم القائمقام وبعض وجهاء البلد إلى النادي ليشربوا نخب مصرع الذئب. وكان ملا أحمد لا يزال معتصماً في البيت لم يصله الخبر بعد.

وجد الصحفي ان المناسبة قد حانت، فراح يجمع الاشتراكات والتبرعات لجريدته. كان الجميع قد سكروا. وكانت الساعة تشير إلى الواحدة بعد منتصف الليل، حين ارتفع صراخ وعويل جديدين كدّر هدوء الليل. ودخل على أثر ذلك فلاح رث الثياب وهو يصرخ باعلى صوته:

– النجدة.. النجدة..

توجهت الانظار كلها من وراء كؤوس وقناني الخمر نحوه، وقال القائمقام وقد استبد به السكر:

ماذا يريد هذا الرجل.

وقف الفلاح وهو ينظر حواليه كالمجنون ثم صاح:

ياناس الحقوا به. سوف يفعل بالناس افظع مما فعله الذئب.

تقدم احدهم منه مترنحا وراح يهزه من كتفيه:

– قل ماذا تريد ايها الفلاح؟

– سيدي.. سيدي حمار.. حمار مسعور في المدينة.

وقهقه الجميع.

قال مفوض مقوس الظهر.

– سيدي حمار افندي.. دع هذا الحمار.

قال آخر بدين قصير:

– تعال اشرب معنا ايها الفلاح.

واجتاحت الدهشة الجميع بغتة حين رأوا الملا احمد يدخل النادي لأول مرة في حياته ووراءه حشد من الناس.

قال الملا احمد بصوت مرتفع:

– حيوان غريب آخر دخل البلدة. لعله الضبع. الحقوا به، سوف يبيد الناس بلا رحمة.

كان وجه القائمقام قد احتقن من شدة الضحك لدخول الملا النادي ثم راح يردد بشكل هستيري.

– حمار مسعور في المدينة. ضبع مسعور يتجول في ازقة المدينة. الملا المسعور في النادي. امسكوا الحيوان الغريب. ها هو لقد عثرت عليه.

وراح يقهقه بشكل اكثر هستيرية، بينما سكت الجميع فجأة وراحوا ينظرون اليه باستغراب. وقف القائمقام في مكانه كمن يريد ان يخطب.

كان الصحفي جالسا قبالته: كان قد تحول إلى ثعلب حقيقي راح القائمقام يدقق النظر في بوزه واذنيه وعينيه الثعلبيتين الواسعتين اللتين تنظران اليه باستخفاف. فكر القائمقام في نفسه:

ها هو اذن الحيوان الغريب الذي دخل المدينة من جديد. وانه رغم ذلك يتحداني بصلافة. ورأى ان بوزه يطول بشكل مخيف، حتى ليكاد يدخل فمه هو وكذلك اذناه: وبغتة اطلق صيحة وهو يهجم على الصحفي ممسكا اياه من اذنيه، عاظا انفه وهو يصيح.

–هاتوا بالشرطي رجب. هاتوا به بسرعة.

قال احدهم بذعر:

يا الهي.. لقد اصيب القائمقام بالسعار.

وفي الخارج كان الضبع المسعور يتجول في أزقة المدينة!

الزنابق التي لا تموت

امامه جدار من الاسمنت. الجدار عال يمتد من الجانبين إلى ان يتلاشى طرفاه في خط الافق. ذكره ذلك بسور الصين الذي حلم به ذات مرة. ثمة وراء السور حفلة تأبين لرجل يدعى صالح سعيد. انه ينبغي ان يساهم في هذا الحفل مهما كان الأمر ولكن كيف؟

سار بمحاذاة الجدار، لا يدري كم من الوقت استغرقت مسيرته. استوقفه حارس ليلي قائلاً له:

– عمّا تبحث هنا ايها الرجل الغريب؟

ادرك من نبرة صوته انه رجل طيب، فقال له:

– أريد حضور حفلة التأبين.

اجاب الحارس باستغراب:

– الآن.. في نهاية الليل؟

اخذ الحارس يده، وصعدا سلماً حلزونياً داخل الجدار، وعندما بلغا نهاية الجدار قال له:

– انظر.. هل ترى الآن الخيط الابيض؟

قهقه بصوت عال قائلاً:

– يا لي من غبي.. انا اسير منذ غروب الشمس دون ان احس بذلك قال الحارس بصوت خافت:

– هش.. لا تضحك.. هل نسيت حفلة التأبين؟

وقبل ان يلقي نظرة إلى الجهة الثانية جرّه الحارس من يده وهبطا السلم ثم خرجا من نفق تحت الجدار:

– ولكن يا عزيزي الحارس. كيف يمكنني الوصول إلى هناك؟

قال الحارس هازاً رأسه:

– مسألة صعبة. ولكن، هل تذهب بلا اكليل؟

– آه.. تعودنا ان ندفن موتانا بلا اكاليل.. بلا مراسيم.

اضاف الحارس:

– إنهم بلا قبور ايضاً.

– حتى انت تعرف ذلك؟

قال الحارس دون ان ينتبه إلى كلامه:

– هناك وراء تلك الاشجار مقبرة يوجد فيها رجل يبيع الأكاليل، حاول ان تشتري لك اكليلاً من الزهور؟ لعلنا بعد ذلك نجد لك طريقاً إلى هناك.

قبل ان يجتاز بوابة المقبرة جلبت انتباهه لافتة كتب عليها:

هنا مقبرة الرجال الذين يموتون بلا اسماء،

بلا شهادة وفاة،

تواريخ الوفاة هنا «صفر»،

كل شيء يتم هنا في الليل،

الدفن في النهار ممنوع.

تسمر في مكانه لبعض لحظات:

«انهم اذن دفنوه قبل ان يظهر الخيط الابيض».

تقدم رجل طاعن في السن، قائلا بصوت هرم:

– هل جئت تشتري الزهور يا بني؟

– نعم.. نعم.. ولكن احب اعلم ما اذا كانوا قد جلبوا إلى هنا الليلة الفائتة جنازة ما؟

قال بتعجب:

– جنازة ما..؟ وهل تعتقد انهم يجلبون الموتى إلى هنا بجنازة؟

– كيف اذن؟

قال الرجل العجوز آخذاً بيده..

– تعال معي.

سارا هنيهة في الظلام:

– انظر..

كانت ثمة نافذة يشتعل فيها نور ضئيل، تطل على نفق طويل تتلاشى نهايته في الظلمة، وقد صلب على جانبي النفق اجساد رجال عراة تمتد مثل اعمدة التلفون، وفي منتصف النفق مجرى تسيل عبره الدماء ببطء:

– نحن الآن امام سرداب خلفي. هيا بنا قبل ان يرانا احد.

اعاد سؤاله مرة أخرى:

– هل جلبوا إلى هنا الليلة الفائتة أحداً؟

قال العجوز بغضب:

كم انت ابله.. لا تمر ليلة دون ان يجلبوا مجموعة من الناس موتى أو أحياء.

ولكني اعرف ماذا تقصد. الرجل الذي تسأل عنه لم يجلبوه بعد.

– اعطني اذن باقة أزهار.

قال الرجل وهو يستعرض له مجموعة من الاكاليل والازهار:

– أي نوع تريد؟

– اريد زنابق الثلج.

قال وهو يشد له باقة:

– هل تعلم ان هذه الزنابق لا تموت مهما تراكمت عليها الثلوج؟ انهم يقطفونها في الشتاء، ولكنها سرعان ما تنبت من جديد وتتكاثر بشكل غريب. هيا اذهب قبل ان يتلاشى الظلام.

كان الحارس مازال واقفاً في مكانه مثل أي تمثال، قال بدهشة:

– أهذا أنت؟

– اجل.. لماذا؟

– لقد تصورت انك لن تعود.. اين الأكليل؟

– اكتفيت بهذه الزنابق.. اننا لم نتعود ان نبكي موتانا. ولا ان نضع على جثثهم أكاليل الحزن.

ضرب الحارس على كتفه مبتسماً وقال بعد ان فتح له بابا صغيراً في الجدار:

– هيا اعبر من هنا.

زحف على بطنه لدقائق غير قليلة ثم خرج من الجهة الثانية.

كانت صفوف طويلة من الرجال تجلس على الارض جنباً إلى جنب في حزن وصمت عميقين، توزع عليهم فناجين القهوة المرّة. وعلى السطوح التي امتدت فوق بعضها البعض مثل مدرجات مسرح روماني اصطفت غابة من النساء، ثمة رجال ونساء واطفال يتحركون، ولكن كل شيء كان صامتاً. اجتاز صفوف الرجال التي كانت نهاياتها تتلاشى بدورها في المدى البعيد مثل النفق والجدار.

لم يلتفت اليه احد. ترك الحشد الحزين إلى مكان وراء السطوح المدرجة. علم في قرارة نفسه ان الجثة هناك، الا انه راح يبحث عبثاً.

مرّ رجل بالقرب منه، استوقفه قائلاً:

– أين الجثة رجاءاً؟

قال الرجل باستغراب:

جثة؟ اية جثة؟

جثة الرجل الذي اقيمت له هذه الحفلة التأبينية.

قال الرجل باستخفاف:

– هل انت مجنون؟ إن هذا الرجل قد مات منذ اعوام. إن هؤلاء كلهم مجانين. انهم يقومون بهذه اللعبة كل سنة في مثل هذا اليوم.

وانصرف الرجل غاضباً..

ردد مع نفسه بصوت مسموع:

«ولكن أليس له قبرٌ؟»

كان الظلام قد تلاشى بعض الشيء، الا ان الزوايا كانت لا تزال معتمة. وجد رجلاً يخرج من زاوية مظلمة يسير بخطوات ثابتة متزنة. شعر بالارض تهتز تحت قدميه. من يكون هذا؟ صالح سعيد؟.. غير معقول. سمع في صغره، ان الموتى يعودون إلى الحياة. أراد ان يقول شيئاً، الا ان لسانه قد تشنج ولم يستطع ان يحرك شفتيه. ظلّ جامداً في مكانه. ومرّ صالح سعيد مثل الطيف متجها إلى صفوف الرجال التي كانت نهاياتها تتلاشى في المدى البعيد، حيث الشفق يطل بلونه القرمزي.

١٩٧٢

الآنسة الصغيرة

الانسة الصغيرة تجلس امامي في المترويا.

حين جررت نفسي إلى الداخل، كنت لا انوي ان اشرب البيرة او اجلس بجانب امرأة.

هنالك محلات فارغة. ثمة جنود، بحارة، عمال، سكارى. رأيت انها اهانة لي ان اشرب القهوة، في حين تنتصب زجاجة البيرة امام المرأة الصغيرة الجالسة قبالتي. انهيت قراءة جريدتين. كنت لا أريد أن انظر اليها. قطاري سيتحرك بعد ساعة بالضبط.

قالت المرأة الجالسة وراء الآلة الحاسبة:

هذه آخر زجاجة، لقد انتهى وقت بيع الكحول.

ولكني حصلت على زجاجة أخرى من البيرة.

ليس لي ما اقرؤه. التدخين في المترويا ممنوع. السكير البدين بالقرب مني يزعجني. لم اتعود على الصمت في داخلي. صورة المرأة الصغيرة ورأس الرجل الحمار وانا نشكل مثلثاً قائم الزاوية. خلال رسمي للمثلث التقت عيناي عدة مرات بعينيها. وحاول هو ان يتحدث معي، الا أني كنت اشيح بوجهي عنه بسرعة.

كانت هي تشكل الزاوية القائمة واما الحمار وانا فنشكل الضلع المقابل.

عند دخولي المكان، كان لها شكل معين. وحين جلست امامها بعد الاستئذان منها تغير شكلها. وعند رسمي للمثلث، تغير كل شيء. خرجت من صمتي الذي لم اتعود عليه. كنت اشعر انها هي الأخرى تريد ان تخرج من القاع الذي ركدت فيه. الدور القديم سألعبه من جديد، رغم انه قد اصبح مملاً بالنسبة لي:

– آنسة.. من فضلك، إلى متى يستطيع الانسان أن ينتظر هنا؟

قالت بابتسامة صغيرة:

– حتى الصباح، ولكن بعد الثانية والنصف، يسمح لمن يملك بطاقة السفر، الجلوس هنا.

قلت:

– عفوك. هل تسافرين إلى مكان ما؟

– كلا.

هل تنتظرين احداً؟

- كلا.

- هل تستقبلين احداً؟

هزت رأسها بالنفي القاطع:

- كلا.

قلت مبتسماً:

- الا ترين ان أسئلتي فيها الكثير من الفضول؟

أعادت ابتسامتها الصغيرة:

- كلا.

قلت مداعباً:

- هل قلت في حياتك ذات مرّة، نعم؟

ضحكت بصوت عال قائلة:

- كلا.. كلا..

تحولت صورتها في رأسي الى شكل رابع. في الليل المتأخر بعد تعب طويل تخرج من ذاتي شخصية أخرى. على الارصفة البعيدة وفي انتظار القطارات او بعد ان تسد المراقص الليلية ابوابها، التقي بالشخص الغريب، فأطفو على السطح. أخرج من نطاق الجاذبية.

«انت لا تسافرين وانا سيتحرك قطاري بعد ربع ساعة. الليل كله ينبغي ان اكون محمولا على ظهر ضجيج ممل. وقبل ان تشرق الشمس اكون قد بلغت الساحل. وحدي هناك في سواحل الهدوء والشمس. وانت تبقين هنا تنتظرين اللاشيء، بلا تذكرة سفر».

نحن الآن لم نعد مثلثاً. الحمار ترك المكان برجليه الاثنتين. نحن الآن خط مستقيم موهوم، نشكل قوساً حول احد ملايين الكواكب المنتشرة في المدى.

قالت بشيءمن الأسي:

- كنت اسافر معك، لو اني املك ثمن التذكرة. هل انت تسكن وحدك؟ رغم ذلك فاني اعرف عنوان احد اقاربي. ولكن الانسان يجب ان لا يطمئن اليك. انت تستطيع ان تنام في القطار.

- عشر دقائق ويتحرك قطاري. قولي كلامك الاخير.

- ولكن. مثلما قلت لك. تنام على الاريكة وبدون غطاء.

خرجنا لندخن. في الدهليز اجتاحتني قشعريرة. انتظرت الى ان انتهت سيكارتها. وقبل ان نخرج من النفق حاولت ان اشتري شيئاً، ولكني لم اعثر عليه. حين تركنا محطة «لتشنبيرك» قالت:

– سنصل الى غرفتي بعد عشر دقائق، ولكن عليك ان تفي بوعدك. قلت في نفسي، طالما انها كلها لعبة، فلا بأس ان اهز رأسي الف مرة بالموافقة.

وشعرت بزهو الانتصار..

غرفة شبه عارية، ولكن غير باردة. مرآة كبيرة. راديو قديم. منضدة مستديرة. تصاوير من زمن هتلر.

جلست على حافة الاريكة الواسعة كاشفة عن ساقيها بلا تعمد.

– حدثني عن نفسك.

قالت ذلك بعد ان تحركت رأسها بهزة سريعة، جعلت شعرها الكستنائي الطويل يتكوم على كتفها. وقفت امام المرآة الكبيرة، كنت ارى ساقها من خلالها. الشخص الغريب كان يلح علي بجنون. وقد اخرجني أكثر من نطاق الجاذبية. الزمن الآن مقفل على نفسه. تحدثت كثيراً عن نفسي كنت المح عينيها وهما تعكسان الجد والحذر. كان الشخص الثاني يسيطر عليّ ويحركني كيفما يشاء.

قلت لها وانا اداعب خصلات شعرها:

– حدثيني انت عن نفسك. لقد سمعت الكثير عني.

كانت تنصت مثل طفل صغير. قالت كأي طفل:

– انت من عالم آخر. انا لم اعش مثلك تحت سماوات أخرى. ليس لي ما اقوله.

– حدثيني عن اهلك.

– نحن اربعة اخوة. حين كنت في الشهر الثاني من عمري توفي والدي بالسرطان. كارل يعمل سائق ترام، له صديقة شقراء، انه يحبني كثيراً. أختي الكبيرة خياطة زوجها يشتغل في مدينة هالة. بيتر في الصف الثامن. الشرطي هانس ينهرني دائما، ويمنعني من الجلوس في المترويا بعد التاسعة مساء.

قلت باستغراب:

– انت اذن لم تبلغي بعد سن الرشد.

قالت كمن يريد ان يصحح خطئاً:

– لا.. لا.. انها مجرد عداوة. عداوة صغيرة.

– ولمن يعود هذا البيت؟

لشقيقتي. انها عند زوجها في هالة.

لم يكن فراشها متسخاً كما كنت أتوقع.

كانت واقفة هناك في الزاوية، كلما اقتربت منها، ابتعدت عني. كانت اشبه بقطة متوحشة.

رحت اتمدد على فراشها.

– بيريل.. تعالي نامي.. كلانا متعبان..

قالت بجد:

– ولكنك وعدتني بأنك ستنام على الاريكة. كان ينبغي ان لا اطمئن اليك.

أطفأت الضوء. نزعت ملابسها في الظلام. كانت جسدها العاري يلمع.

– انا سأنام في جهة الجدار.

قالت ذلك واندست في الفراش. الشخص الثاني كان يرقص فوق رأسي. كان يقهقه داخل جمجمتي، ودمائي، وفي كل جزء من جسمي.

الفراش الصغير يتحول إلى بحر لا نهاية له. والآنسة الصغيرة إلى اسرع سمكة في بحار العالم. وانا إلا صياد بائس لا يملك سوى يدين خالتين. لا الشخص الثاني يسعفني ولا يدي.

«تقلب في فراشك ايها المغتر بنفسه. مثل ذئب مجروح. يا ملك النساء غير المتوج. اغرس انيابك في المخدة الباردة. لقد انتهى زمن العرش».

يا الهي. جسد عار يرقد بجانبي، ولكن الذراعين لا تستطيعان تطويقه. الأنامل لا تستطيع لمسه. الشفتان لا تستطيعان لثم حتى ظاهر اليد. الزمن يقف وقوة الجاذبية تزداد بمرور الدقائق التي تلتصق بالأرض.

جلست في مكانها مستندة على الجدار وهي تقول باحتجاج:

الم نتفق قبل مجيئنا إلى غرفتي أن لا تفكر في هذا الموضوع؟ لقد كنت جادة في كلامي. لماذا لا تفهمني. مساكين انتم الرجال.

قلت بخنوع ممقوت:

– بيريل. لا تكوني طفلة.

قالت بشدة وغضب:

– أنا طفلة. انت لا تكن طفلاً.

قلت باستخفاف كما لو اني اتكلم مع عاهرة:

– ماذا؟ طفلة؟ منذ متى؟.. لماذا تكذبين يا بيريل؟ هل هذا شأنك مع كل الرجال؟

بغتة قفزت من الفراش واشعلت الضوء. جن الشخص الثاني في رأسي وانهار. احد ملايين الكواكب المنتشرة في المدى يسقط في الغرفة. العالم كله يتحول إلى جسد فارع عار، يلمع كالقمر، ويتحدى مثله أيضاً.

«الق اسلحتك البالية ايها الملك العجوز.

ليس ثمة من تعذيب اشد من هذا.

لقد تمرغت عمامتك التي لا تعرف الطهر في الوحل».

اعطتني هويتها الشخصية وهي تكاد تبكي من الانفعال:

– هاك.. انظر يا سيدي.

اطلقت قهقهة هستيرية، ولكن سرعان ما تصبب العرق من جبيني. خمسة عشرة عاماً فقط وفي الصف التاسع.

تحولت صورتها في رأسي إلى شكل خامس.

بيريل من أي كوكب قادمة أنت.. تعالي لا تخافي ايتها القطة الصغيرة لقد هرب الشخص الآخر، ولعله قد مات. تعالي حدثيني عن احلامك. ولماذا جلبتني معك إلى البيت؟.. ماذا لو رآنا الشرطي هانس في فراش وادح؟ من يصدق اني لم استطع لمسك حتى الآن؟.

قالت وكأنها ممسكة بفريسة:

– وامي، هل تعلم ماذا تفعل بك لو نزلت علينا؟ انها تسكن فوق

– ربما ستفقأ عيني. ولكن قولي لي، ماذا كنت تنتظرين هناك؟ ولماذا أنا موجود هنا؟

كانت متعبة حتى الأعياء.

– لا ادري. دعني أنام. أني متعبة، اذهب ونم على الاريكة. انك قد وعدتني بانك ستنام هناك وعليك ان تترك الغرفة قبل السادسة لان اختي سترجع في هذا الوقت.

– لقد سألتك لماذا أنا موجود هنا؟.. اني سأجن.

– دعني الآن، اني متعبة.. متعبة..

قلت بالحاح:

– الا تريدين قول الحقيقة؟

قالت وهي شبه منهارة:

– لا أدري.. لا أدري.. دعني الآن أنام. كنت أحلم بالسواحل الحارة والشمس. اريد أن أنام. دعني.

كانت قد انزوت في الركن ملتفة بالغطاء مثل قطة صغيرة. لا ترد على اسئلتي، وحين سكتَ هنيهة سمعت أنفاسها الرتيبة تأتي من قاع بعيد. ورحت أتأمل وجهها. كان قد تحول إلى شكل سادس. شكل طفل حقيقي ولم انتبه طيلة الوقت إلى لعبتها التي تمددت بين المخدة والجدار والتي كانت قد غطتها بكفها الصغيرة.

الجسر الوجه الأول من الحقيقة

أراد ان يذهب إلى هناك..

كوخ خلف الساقية، الساقية تلتف حول الكوخ لتتحول امامه إلى مستنقع مياه، مياه المستنقع هي بقايا مطر متخثر، تحول إلى شيء لزج، ثمة ضفادع تقفز، وبطات تغطس بصعوبة في المياه المتخثر، وهناك في اقصى المستنقع أطفال عراة يلعبون بين اعواد القصب.

الساقية أعرض من أن يقفز عبرها.. إذا نزع حذاءه فهو لا يتحمل الغوص حتى الركبة.

جاء ثلاثة رجال مسلحين..

قال الأول:

– هل شاهدت المولود؟

– لا استطيع الوصول إلى هناك..

قال الثاني:

هل ثمة فعلا مولود غريب؟

– انا ايضاً سمعت كالآخرين..

قال الثالث:

– هيا لنذهب إلى هناك..

– ولماذا انتم متسلحون؟..

أجاب الاول:

– ان هذا المولود هو علامة شؤم يداهم القرية.. لقد تسلحنا حتى نحتاط للامر..

– وإذا نزل الشؤم من السماء؟..

أجاب الثاني:

– نحن نتحدث عما على الأرض..

قال الثالث:

– الا تريدون الآن أن نذهب إلى هناك؟..

– ولكن كيف يمكننا عبور هذا السيان؟

أجاب الثاني:

- نعبر كالذين يسكنون هناك..

قال الاول:

- اخرس.. ان هذا السيان لا يتحمله الا اولئك الساكنون هناك.

قال الثاني:

هذا صحيح.. كنت أحلم بذلك دائماً..

- الا يمكننا بناء جسر بجذع شجرة أو أي شيء آخر؟..

قال الاول:

- فكرة رائعة. هناك انبوب حديدي سرقته قبل أعوام من الشركة التي ارادت أن تحفر في القرية بئراً ارتوازياً.. هيا تعالوا معي.. القرية تعرف كلها ان شيئاً غريباً قد حدث وراء المستنقع..

الانبوب الذي كان ينبغي أن يزود القرية كلها بالمياه.. مطر.. مجرد مطر.. سوف اتعرى كما ولدتني امي واتمرغ في الطين.. هذا هو نذري..

مد الرجال الاربعة الانبوب و وضعوه بشكل جسر على الساقية.. غابت الشمس، وذهب الأطفال العراة إلى البيت..

خرج رجل من وراء الكوخ وقال بصوت عال:

- انتم هناك.. ماذا تريدون..

قال الرجال الاربعة بصوت واحد:

- نريد ان نرى المولود.

قال بصوت غاضب:

- أي واحد منكم يعبر الجسر يلقي حتفه..

قال الاول:

- اني الآن قادم اليك..

وراح يعبر الجسر بخطوات حذرة.

دوّت اطلاقة واصابت رأس الرجل الاول.. وتطاير شيء في السماء.. ثم دوّت اطلاقة ثانية، اصابت الرجل الثاني.. كان الرجل الثالث والرجل الآخر قد تمددا خلف جدار مهدم..

قال الرجل من وراء الكوخ:

– هل من واحد آخر يريد أن يتقدم؟..

وخرج رجال ونساء وشيوخ القرية على صوت الاطلاقات..

قال أحدهم:

– هذا أخي.. واخذ بندقية..

وقال آخر:

وهذا ابن عمي.. واخذ بندقية..

هجم الاثنان ببندقيتيهما والآخرون بالعصي والهروات.. وظهرت من الجهة الاخرى رجال مسلحون بالبنادق والمسدسات.. واختلط دوي الرصاص الذي اخذ يتساقط كالمطر بعويل النساء ونقيق الضفادع وعواء الكلاب..

الرجل المختفي وراء الكوخ يطلق الرصاص بهدوء كانت اطلاقاته لا تخطيء.. وفجأة توقف اطلاق النار..

وقف الرجل الثالث والرجل الآخر اللذين كانا قد تمددا وراء جدار مهدم، في مكانيهما..

قال الرجل الآخر:

– لقد قتلناه..

قال الرجل الثالث:

– كلا.. كلا.. اننا لم نصبه.. انه يبيت لنا خطة مميتة.. انه يريد أن يبيدنا جميعاً..

ظهرت امرأة عجوز مثل الشبح من الظلام، قالت:

– يا ناس تعالوا إلى مكان أمين قبل أن يبيدكم هذا الرجل المسعور.. انكم لا تستطيعون الآن عبور الساقية.

قال أحدهم:

– اليست هذه هي قابلتنا الساحرة؟..

قال آخر:

بالتأكيد..

واندفع الحشد إلى وراء الجدار، حيث ساحة القرية، وكان الرجل الثالث يتوسطهم وخلفه الرجل الآخر، وبجانبه القابلة الساحرة.. وكان كل شيء مظلماً..

قالت العجوز باكية:

لقد خسرنا احسن شباب القرية..

قال أحدهم:

- هيا حدثينا عن المولود ايتها البومة..

قالت هازة يديها المعروقتين:

- انه مشوه.. مشوه.. ماذا اقول عنه؟..

قال آخر:

- يقال انه يشبه الذئب وله مخالب وانياب، وهل مازال حياً؟

- اجل انه ما زال حياً.. وانه لا يموت من تلقاء نفسه..

ترك الرجل الثالث المكان وراح يبكي بصمت..

قال الرجل الآخر وهما يسيران بجانب الموتى:

- الا نجمع الجثث؟

قال الرجل الثالث، وهو ما زال يبكي بصمت:

- ماذا.. جثث؟ اية جثث؟

قال كالمأخوذ:

- اجل.. اجل.. اكوام الجثث.. الجثث.. الجثث اننا يجب ان نفعل شيئاً.. يجب ان نفعل شيئاً..

وغاب في الظلام..

وراح الرجل الآخر يبحث عنه فلم يجده..

عودة الوجه الغريب

قال لي أصدقائي القدامى الذين زاروني في الغرفة، أن رائحة نتنة تنبعث منها.. وإن الرطوبة العفنة سوف تنتقل إلى دمائي و يتحول لونها إلى أصفر صديدي..

قالوا.. أن الغرفة مظلمة لا تدخلها الشمس وان وجهك لا لون له.. لعل عدم وجود الشمس في الغرفة هو الذي لا يعطي وجهه لونه الحقيقي.. طلبوا مني أن أذهب إلى الطبيب وأعرض نفسي للفحص.. كنت لا أملك ما أقوله طيلة الوقت، لذا بقيت خلالها صامتاً أشعر بالإهانة.. وكنت ألمح في عيونهم الشعور كما لو أني أبغي إهانتهم.. ولكنهم كانوا لا يشعرون بما يجري في داخلي على ما فقدته قبل دخولي هذه الغرفة.. كانوا لم يفقدوا ما فقدته أنا.. ثم أن وجهي الذي لا لون له كان لا يعكس لهم أي شيء.. كنت أملك كرسياً واحداً، جلس أحدهم عليه، والآخرون جلسوا على سريري.. كنت أخشى أن ينبعج.. وأما أنا فقد بقيت واقفاً..

كنا قبل أعوام نلتقي كل يوم تقريباً.. نضحك.. نمرح.. نسكر معاً.. نتقاذف الشتائم البذيئة.. وطالما كنت اصبح موضع ضحكهم ودعاباتهم.. وقد كان ذلك يؤلمني جداً فيما مضى دون أن أتظاهر به.. حاول أحدهم أن يعيد الماضي، ولكنني شعرت أنهم نظروا اليه بشزر، رغم أني لم أرفع رأسي.. كنت لا أستطيع أن أنظر إلى عيونهم، لذلك كانت عيناي مشدودتين إلى الأرض.. كنت أشعر أني قزم يكاد يلتصق بالأرض.. كنت أرى الأحذية فقط وهي في أوضاع مختلفة، جامدة تنظر إلى بعضها البعض بنهاياتها المدببة وكأنها تسترسل في حديث صامت.. ماذا ينبغي أن أقول.. إنهم يريدون مني أن أقول أي شيء.. كانوا لا يعرفون كم كان وجودهم إهانة كبيرة لي.. أردت أن أكون طبيعياً. وأكسر صمتي، فسألتهم إذا كانوا يرغبون في القهوة أم الشاي، فأصروا على انهم لا يرغبون في أي شيء. تنفست الصعداء لأنني لا أملك الاكواب الكافية.. كنا قبل ذلك ننتظر إلى أن ينتهي بعضنا أو يشرب كل أثنين من كوب واحد.. شعرت أن رفضهم مبعثه أيمانهم بنتانة كل شيء في غرفتي.. ولعل احدهم أو كلهم قد شعروا بإحساسي فشعرت أنهم يتشاورون فيما بينهم بالعيون رغم أن عيني كانتا لا تزالان مشدودتين إلى أحذيتهم.

قال أحدهم:

– لا بأس إذا عملت قهوة.

تلك اهانة أخرى.. إنهم يريدون أن أتحرك.. أن أقول شيئاً.. وأن أترك الغرفة بعض شيء حتى

يخلو لهم الجو.. كان السكر المذاب في بقايا الشاي داخل الاكواب قد تبلور.. وكانت الاكواب قد ألتصقت بأطباقها.. ساعدني أحدهم في غسل الاكواب.. وآخر راح يغسل أبريق القهوة و يضعه على النار.. تأكد لي أنهم لم يتعمدوا إلى اخلاء الغرفة ليتشاوروا حول أمر قد لا يريدون أن أعرفه.. شربوا القهوة.. فعلوا مثلما كنا نفعل في ما مضى.. كنت أستغرب في داخلي كيف هؤلاء لم يتغيروا.. كان أحدهم قد فقد نفس الشيء الذي فقدته أنا.. كنت أعتقد أن كل شيء خارج غرفتي هو مثلما أنا عليه.. ألقيت نظرة خاطفة إلى عيونهم.. أردت أن استطلع ما إذا كانوا يستذوقون قهوتي.. شعرت أنهم يجرعونها كما يجرع المريض الدواء.. قالوا أنها قهوة جيدة.. لا أدري لماذا أحس أنهم يمثلون أمامي.. ولعلهم كانوا يحسون نفس الشيء تجاهي.. كنت أريد أن أفهمهم، ولكن الشيء الذي فقدته، كان قد تكلس في مكانه شيء آخر.. قيل لي أنه تكلس صديدي.. كانت كلمة العاطفة بالنسبة لي كلمة مجردة تتكون من سبعة حروف جامدة فحسب لا تحمل داخل إطارها مفهومها القديم.. كنت لا أفهم الأشياء.. خلال حديثهم إليّ خيل لي أنهم يتحدثون بلغة أخرى..

قال أحدهم: «أترك هذه الغرفة.. أخرج إلى الشمس.. سوف يتغير لون وجهك..»

كنت أعرف إني لا أستطيع أن أفتح عيني في الشمس.. ولا أستطيع العيش خارج غرفتي التي تبعث رائحتها النشوة في دمائي، والتي يتصورنها عفنة نتنة.. كيف يمكنني ترك جدران غرفتي التي تلاحمت مع كياني.. هي التي بمثابة جلدي.. فهل يمكن للانسان أن ينزع جلده ويعيش بدونه؟..

أردت أن اقول إني لا أستطيع العيش بلا هذه الغرفة.. ولكن لساني خانني.. ولما كانوا لم يتغيروا، فقد فهموني بسرعة..

شعرت أنهم أومأوا إلى أحدهم أن يقول شيئاً.. كان المتكلم هو الصديق الذي فقد شيئاً مثلي.. أنهم لم يعودوا أصدقائي.. إن الهوة واسعة بيننا.. لقد فهمت لماذا كلفوه هو بالذات.. قال لي:

– يجب أن تترك هذه الغرفة.. إننا سوف نساعدك على العيش في الشمس..

قال آخر:

– وسوف ترجع تكتب كما كنت عليه فيما مضى..

كانت هذه إهانة أخرى.. وخبث.. لابد أنهم عرفوا بأني أكتب في النوم.. ولكن كيف يمكنني الكتابة مرة أخرى خارج هذه الغرفة.. ودون أن اتنفس هذا الهواء الذي يتصورونه عفناً؟.. يا لهم من مجانين.. شعرت بالخدش في حنجرتي.. لم يعد بأمكاني التفكير بعد.. إن دمي يحتاج إلى شيء، وبعد ذلك سيطلع عالمي إلى آخر ما تنتجه قريحتي.. وستبدأ الضجة مرة أخرى، كل واحد يريد أن يفسر رموزي عبثاً.. وسأوجه من ها هنا الضجة الكبرى وأراقبها عن كثب..

ثم يزحفون إليّ ليستقبلوني هنا.. ماذا يريد مني هؤلاء؟

ان راتبي في الصحيفة التي أعمل فيها تعادل رواتبهم كلهم.. ولكن إلى أين تذهب الفلوس؟.. إن هذه المومس اللعينة ذات العين الواحدة تمتصني مثل أخطبوط عملاق.. لو رأوا الثقب الموجود في حذائي..

قهقهت بصوت عال.. خيِّل إلي أنهم يتصورون قهقهتي مواء القطط. كانت لا تعكس حقيقة جسمي الضئيل.. رحت أفكر في اختيار الكلمات التي تعلمتها في نومي لألقيها بوجوههم لعلي أستطيع أن أشعرهم بالاهانة..

«إن النهر البركاني الذي يفصل بيننا لا يمكنكم إجتيازه.. أنتم أنتهيتم.. أنا لا يربطني بالماضي أي خيط، لأنه لم يكن.. يمكنكم أن تبدؤا من جديد.. يجب أن تدخلوا من خلال الدخان إلى عالم الرؤية.. حتى تعبروا النار. عند ذلك تجدونني معكم»

كانوا يبتسمون.. لو علموا ما تفعل بي ابتساماتهم، لقتلوني بها دون شك.. ولكنهم لا يعرفون الحقيقة.. لا يعرفون إنها أسوأ من نصال حادة تقطع أعصابي وتشق لحمي. إنهم لا يعرفون ما يجري في داخلي رغم الصديد المتكلس في مكان الشيء الذي فقدته.. بدا لي أنهم يأسوا مني.. تركوني على أن يعودوا إليّ مرة أخرى..

قال أحدهم: لابد لك أن تخرج من هنا.

تحرك شيء حول الصديد المتكلس في داخلي.. تذكرت شيئاً من ماضي.

ولكنني سرعان ما حولت تفكيري عنه. لا أدري لماذا راح مزاجي يتكدر.. خرجت من الغرفة، وقفت في الشرفة أنظر إلى فناء الدار.. ثمة أطفال حفاة يلعبون بالوحل.. المومس واقفة أمام غرفتها تنظر إلي.. كنت لم أر وجهي منذ مدة طويلة.. كنت لا أملك أية مرآة في غرفتي.. في المرحاض بالطابق الأرضي توجد مرآة قديمة.. نزلت الدرج في طريقي إليه.. عند بلوغي الفناء قابلت صاحب الدار الأعور.. راح يثرثر كعادته وكيف انه أشترى الدار من الفلوس التي اقتصدها من عرق جبينه كنزَّاح.. شعرت أن كل طابوقة قد خرجت من فتحة المرحاض.. كانت المرآة الواقفة هناك تتصور إني أتوجه إليها ولكن لم تكن لي أية رغبة..

وقفت أمام المرآة.. ها هو وجهي.. إنهم على حق.. إنه بلا لون.. مشوه.. قطعة خشب.. أسوأ من أية طابوقة في أساس هذه الدار.. ماذا يحدث لو علموا بغدد السم التي تفرزها الاكياس المحيطة بالصديد المتكلس؟ إنهم سوف لا يحسون بأي شيء، لأن وجهي الذي لا لون له لا يعكس أي شيء..

الخدش اللعين يمزق حنجرتي.. ينبغي أن أستنشق هواء الغرفة الرطب ذي الرائحة التي تهدئ

دماني وأعصابي.. ولكن.. ما هذا الألم الذي يمزق أحشائي؟..

اني لأشعر أن غدد السم تتفجر.. والصديد المتكلس يتفتت.. أكاد أسمعه.. هل فعل بي هؤلاء شيئاً؟..

يا إلهي.. انه يقطع احشائي كالنصال.. أريد هواءاً نقياً.. أريد الشمس.. من يحملني إلى هناك.. إلى ما وراء تلك البنايات العالية؟.. هل يعودون إلي مرة آخرى؟..

ليحملوني إلى الشمس؟.. متى..؟

الحية

قلب البرميل وافرغه من النفايات، ألقى بها في الصفائح امام الباب، ثم ملأه بفضلات التمر الرخيص الذي استقطروا منه الخمر.. بحث عن آنية نظيفة ليقدم بها علفاً للخروف، فلم يجدها.. كانت الاواني والزجاجات والجرار كلها مملوءة من الخمر.. جمع كفية وملأهما من العلف.. كان الخروف يدفن بوزه بين كفيه ويهز رأسه. ادار له ظهره دون أن يأكل.. القى بالعلف في البرميل، وقال باشمئزاز:

– بن إلكلب بطران..

لم يجد شيئاً يشغل به نفسه.. كلما اصبح الوقت عصراً شعر بالضيق.. قالت له والدته، لا تترك البيت، الله وحده يعلم إلى أين ذهبت.. أخوه في السوق قابع وراء أخشابه.. الخروف شبعان.. البيت نظيف لا يحتاج إلى الكنس، اخته المتزوجة في اقصى البلدة جاءت اليوم صباحاً ونظفت البيت ثم ذهبت. دخل غرفة اخيه. كان ثمة شراب معتق في جرّة تحت السرير، ملأ منه كأسا عرضها للنور المتسرب من النفاذة، كان احمر شفافا يميل إلى الاصفرار.. جلس على السرير واضعاً الكأس على المنضدة.. تراءت له صورة والده وهو يجلس في نفس المكان، يعب الخمر من وعاء كبير ويغني بصوت غليظ ممطوط اغنية غير مفهومة، ثم يضرب الآنية برجله، ويقف على قدميه الواهنتين وهو يكاد يسقط، يفتح ذراعيه ويصيح بصوته الاجش:

– تعال يا ابني.. يا عزيزي المجنون..

ويشده إلى صدره بقوة.. وكانت والدته تصيح به ان يترك الولد قبل ان يختنق بين يديه. «اخنق ابني انا؟..»

لم ينس كلمات والده رغم مرور اكثر من خمسة عشر عاماً، وها هو قد تجاوز الحادية والعشرين واللقب ما زال وراءه.. الشيء الوحيد الذي يعاتب والده عليه، هو انه هو الذي وضع في افواه الناس هذه الكلمة.. ولكن كم كان يحبه. ومن فرط حبه له لقبه بالمجنون.. واما هم فانهم لا يفكرون مثلما كان يفكر هو.. ليته الآن يرجع إلى الحياة، ولو لدقيقة واحدة ليثبت بان ابنه العزيز لم يكن مجنوناً.. انه الآن اصبح رجلا يساعد امه في تقطير العرق، وتهريبه دون ان يشعر بهم احد، طردوه من المدرسة لأنهم تصوروه مجنوناً.. لا يدري ماذا يعمل حتى لا يلقبوه بهذا اللقب البغيض إلى نفسه..

حمل الكأس.. اراد ان يشرب، ولكنه لم يستطع، كلما اراد ان يشرب شعر كأن معدته تقفز إلى فمه. ذات مرة شرب كمية كبيرة في البستان.. وحين سكر تقيأ ووقع في الساقية.. وعندما ارجعوه الى البيت، كان قد تحول الى قطعة من الوحل والقيء.. وفي الطريق رشقوه بالحجارة وقشور البطيخ، وفي البيت استقبله اخوه بالعفاط وضربته امه بالحذاء.. خاف ان تحترق امعاؤه ويصعد الألم إلى جبهته، ذلك الألم الذي هو اخشى ما يخشاه.. وضع الكأس على المنضدة ثم بصق عليها، ودلق الشراب على الارض تاركاً الغرفة.. صعد السلم الى السطح، واطل على بيت جارهم عم اسماعيل، كانت زوجته تحلب البقرة، صاح بها:

– خالة خديجة.. ارسلي بدرية لتأخذ العلف..

كان يعلم انه مه مجرد ارسال النداء ستحضر بدرية بدون اي تأخير.. هبط السلم وانتظر امام الباب قالت بدلال:

– من بالبيت؟

– الوالدة ادخلي..

– لا.. ما أدخل انت تكذب..

قال متظاهرا بعدم الاهتمام:

– بالجهنم.. سأبيع العلف لغيرك..

وانسحب الى الداخل.. قالت مبتسمة:

– هيا.. سأدخل..

اغلق الباب من ورائها، واستند عليه قال ضاحكاً:

– الآن الى اين تفرين من يدي؟

– لا.. لا.. سترانا والدتك..

قالت ذلك وهي واثقة من عدم وجودها بالبيت:

طوقها بعنف وراح يقبلها بنهم.. اول الأمر راحت تمتنع وتقاوم ثم ما لبثت ان بدأت هي الاخرى تطوقه.. كانت هذه اللعبة تعيد نفسها كل يوم:

– لا تقل لاحد..

– انت ايضا لا تقولي لأحد..

– لست مجنونة..

– انا ايضا لست مجنونا..

– الآن دعني آخذ العلف..

– هيا..

وحمل لها كيس العلف حتى البيت. وعند رجوعه اراد ان يحطم جميع الجرار والزجاجات.. فكر في الضرب الذي سيناله من اخيه وامه.. كان اسطة مجيد يقف عند الباب كعادته في كل يوم بملابسه المتسخة بالجص وبيده ربع الدينار المعهود ينظر بعينيه الزائغتين، قال بعد ان تسلم القنينة اين والدتك..

– لا ادري..

انصرف قائلا بسخرية:

– إلى متى تبقى لا تدري ايها الابله؟

مرة اخرى تجرحه الكلمات.. تنزل إلى اعماقه مثل النصل.. وشيع الاسطة مجيد بنظرات كلها حقد..

دخل غرفة اخيه واخرج الجرة.. ملأ الكأس وراح يشرب، مزته عنب اسود وجبن. كان طعم القبلة يدب في اوصاله بحذر يوزعه الشراب ببطء الا ان كلمات اسطة مجيد كانت تفسد مزاجه وتشعره بوخز مؤلم قال في نفسه: لابد ان اكون رجلا. انتصب امامه صورة والدة.. وقف امام صف الزجاجات والجرار وراح يسير بينها كأنه يستعرض جيشا، اصطدمت رجله بزجاجة فتدحرجت مصطدمة بزجاجة اخرى وانكسرتا فاندلق الخمر على الارض. كان لرنين انكسارهما وقعا جميلا عل اذنه فشعر بارتياح.. وركل برجله زجاجة اخرى اكتسحت عدة زجاجات اخرى تحطمت كلها.. ثم انهال على بقية الاواني بركلات قوية منتظمة، فلم يبق زجاجة واقفة أو آنية تحتوي على قطرة من الخمر.. القى نظرة أخيرة على الأواني المحطمة ثم ترك البيت وئيد الخطى تجره رجلان واهنتان.

كانت الشمس تختفي وراء رؤوس الاشجار.. اجتاز القنطرة وسار عبر طريق الطاحونة القديمة نحو البساتين.. التحق به اثنان من اولاد المحلة، فلم يكلمهما.. كان الأولاد قد اعتادوا ان يسيروا الى جانبه دون ان يكلموه، الا اذا بادر هو بالكلام، فهو اذا عبر القنطرة فمعناه انه اجتاز الحدود إلى اراضي مملكته الوهمية ولا تقف الا عند طلال الطاحون المهجورة، التي اتخذ منها عاصمة له. نظر بعينين مرتجفتين إلى احدهما وقال بحدة:

– سر انت ورائي..

اخفى هذا ابتسامة خبيثة، وقال:

– أمرك.

ثم التفت إلى الثاني وقال بهدوء:

– وانت سر امامي..

اجابة بلؤم:

– تأمر..

رفع رأسه بكبرياء.. وراح يسير بزهو وقال:

– الآن هل تعلمان ماذا حدث؟

قالا بصوت واحد:

– طبعا لا..

هزّ رأسه بسخرية:

– يا لكما من غبيين.. إلى متى تبقيان لا تدريان!

استعد الاول، واخذ تحية عسكرية بشكل مضحك:

– الأسرار لا يعرفها سواك..

قال بصوت ممطوط:

– لقد علمت كل شيء. لابد ان انتقم لأبي..

كان كل واحد منهما يمثل دوره بشكل جيد.. قال الاول:

– ماذا نفعل الآن؟

اجاب بحزم متظاهراً بالجد:

سأعالج الأمر بنفسي..

قال الثاني في نفسه:

– الله يعلم، في بيت من ترفع والدتك الآن ساقيها..

وأخذ يتمايل في سيره.. وعندما وصلوا قرب الطاحونة، وقف امام الساقية التي تفصلها عنهم وراح ينظر اليها كمن يريد ان يقطعها بقفزة عريضة، التفت الى صاحبيه وقال:

– سوف امسك حية سامة وادعها تلدغ جسد العاهرة النتن...

كان قد اعتاد ان يمسك بالحيات، ويقلع اسنانها بقطعة صغيرة من اللباد يضعها في افواهها ثم يجرها بقوة، يطلق سراح قسم منها، والقسم الآخر يستعرض به العابه السحرية..

انسحب خطوة إلى الوراء، ثم اندفع بقوة إلى الامام و وقع في منتصف الساقية. غاص حتى ركبتيه في الوحل، ومع كل حركة للخلاص كان يغوص اكثر فأكثر.. ولا يستطيع اي احد من صاحبيه ان يساعده، واذ هو هادئ لا يستطيع اتيان اية حركة، انتفض بغتة بقوة، واطلق صرخة رهيبة ثم تشنج جسده، وازرقّ وجهه.

وقفزت امامه حية كبيرة رقطاء خرجت من اعماق الوحل..

الولد الخامس

مازالت ملامح رجل المدينة او الافندي جلية على قسمات وجهي رغم اني قد لففت رأسي بـ«يشماغ» داكن، وامتطيت حماراً تتدلى رجلاي على جانبيه تلامسان الأرض بين فينة وأخرى. لست أدري ما إذا كان حماري أصيلاً أو انه كان يفتعل النشاط ليثبت لي بان الضآلة ليست مقياس الضعف. وكان صاحبي يحث الخطى، وكأنه يريد أن يسابق الحمار، واردت أن اشق صمتنا، فقلت لصاحبي:

– الا ترى أن حماري يكاد يخرج من تحتي؟

وابتسم كمن يملؤه الفخر:

– نعم.. نعم.. يا ملا. انه لا يأكل ما عدا الشعير.

كان قد كتب عليَّ أن اكون ملا. واما هذا الحمار الذي لا يأكل سوى الشعير، فانا واثق انه يأكل كل شيء ما عدا الشعير.

عند بلوغنا سفح الجبل وقف الحمار. وترجلت بدون تعجب، ثم واصلنا سيرنا نحن الثلاثة، وانا شاكر لعدم اضرابه نهائيا عن السير.

بعد فترة غير قصيرة بلغنا قرية «س» وهي تقع بين واديين يتخللهما صف طويل من أشجار الصفصاف والتوت. كانت الشمس قد غابت وكان الصمت المخيم على الجبال الزرق الداكنة يوحي بشعور مبهم لذيذ. كان مضيفي رجلاً طويلاً يرتدي ثياباً بالية، ذو لحية بيضاء كثة وتجاعيد عميقة، شد على يدي وقال:

– تفضل إلى الديوةخانه (الديوان).

وجلست على قطعة من اللباد، متكئاً على مخدة لا لون لها. كان البرد قارساً والجوع ينهش من الداخل. كنت منكمشاً على نفسي انتظر بلهفة ما يتفوه به الرجل. لم أكن قد اكلت منذ يومين.اشعل الرجل النار ثم جلبت زوجته اواني الشاي والطعام. كنت اتصور أن العالم كله لا يستطيع أن يشبعني.

وبعد أن شبعت وسرى الدفء في كياني، سألت فيما إذا استطيع أن اعثر على مدرسة فتحت في احدى القرى. وهزَّ رأسه كمن هو عليم بكل الامور:

– نعم، ولكن هذا ليس بالبساطة التي تتصورها. انك ستمر بمناطق وعرة قبل الوصول اليها.

– وكيف؟ اصلها الليلة؟

قال بلهجة الأمر:

– ستنام هذه الليلة هنا.

اتت النار الحامية في الموقد إلى نهايتها. وكانت الرياح تصفر في الخارج وتنفذ من خلال الثقوب العديدة في الجدران. وكان الباب صفيحا صدئا، يعزف لحناً رتيبا تتخلله احياناً ضربات قوية تفتح عيني كلما حاولت اغماضها. للمرة الأخيرة اغمضت عيني وكان شخير الرجل يتجاوب مع ضجيج الريح التي تتسرب من خلال الكوة فوق رأسي. وكنت نائماً بمعطفي وحذائي وتدثرت بغطاء خفيف لم يخل من الثقوب العديدة. كان كل شيء مثقوباً.

كنت احسس جسدي بأصابعي، كان بارداً متخشباً.

– لعل هذه الليلة لا تنتهي.

هكذا فكرت في نفسي.

بحيرة من الجليد بلا نهاية كانت تمتد امامي. ومن جهة اليمين كانت الجبال تحترق وقوافل من الناس يخرجون بهلع من بين ألسنة النار فيمطرون في الثلج حتى الاعناق. كنت أرى الرؤوس فقط بستان لا نهاية من الرؤوس.

ندّ انين طفولي تبعته صرخة كانت أقوى من ضربات الباب. ووجدت نفسي جالساً بلا ارادة مني. كانت كتلة من الجليد تجثم على ظهري علمت اني قد نمت بعض الشيء.

كانت المرأة تقف عند الباب وبين يديها طفل يبكي بألم. سعل الرجل مرتين ثم قذف على الحائط شيئاً بدا لي أن حجمه لا يقل عن صفار البيض. وقال بدون أن يتحرك من مكانه:

– ها.. ماذا يريد ابن النذل؟

– انه يبكي كالعادة. سيموت هذه الليلة ولا خلاص له.

– ولماذا جلبتيه الينا؟

قالت بتضرع:

– لعل الملا يعرف شيئاً عن الطب، فيشفيه.

«يا إلهي، ها أنا اتحول بقدرة قادر إلى طبيب. وقد اتحول غداً إلى شيء آخر.»

واشعل الرجل الفانوس قائلاً كالواثق من نفسه:

– هذا ما فكرت فيه قبلك يا امرأة.

ثم واصل اشعال لفافته.

وفكرت في أمري ونفسي تأبى أن تتنازل، كونها لا تعرف عن الطب.

– حسناً.. منذ متى يعاني من هذا المرض؟

قلت ذلك وانا اتأمل الطفل الممدد امامي واحسب باصابعي ضلوعه الناتئة

قالت المرأة مستبشرة:

هذا حسن حظنا. الم أقل انه طبيب؟

هزّ الرجل رأسه:

– تمام.

وقلبّت الصفحة بتكرار سؤالي مرة اخرى.

أجابت المرأة:

ثلاثة اسابيع.

قال الرجل غاضباً:

– ستبقين غبية، ٢١ يوماً فقط.

رمقتهما بنظرة، كنت احسبهما يمزحان. أو يحاولان نصب مقلب لي. ولكن المرأة قد ازالت شكوكي حين قالت جادة:

– انت تصر دائماً على كلامك. لقد قلت ذلك قبل اسبوعين، وها أنت تؤكده اليوم مرة أخرى.

حسماً للنزاع قلت:

– حوالي شهر.

قال الرجل بحماس:

– بالتأكيد.

– ولكن.

– اغلقي فمك، دعي الرجل يعمل.

عصرت رأسي وانا لا ارى امامي تحت ضوء الفانوس الباهت سوى هيكل عظمي داخل كيس أصفر يتوسطه بطن منتفخ كالكرة. وراح الطفل المسكين يهدأ تحت اصابعي التي اخذت تلامس كل جزء فيه.

قال الرجل متألماً:

– ملا. لقد دفنت أربعة أولاد في نفس العمر. انهم يبلغون الثالثة ويموتون، افعل شيئاً من أجلنا.

كنت متألماً جداً. ما الذي استطيع أن افعله يا الهي؟ كنت لا اريد أن اصدمهما والقي بهما في هاوية التشاؤم، واتخلى عن مهنتي المزعومة ببساطة وقلت:

– لا داعي للخوف، انه سيشفي، ولكنني لا استطيع ان افعل له شيئاً الآن. يجب أن ارى معلم المدرسة التي فتحت مؤخراً في احدى القرى القريبة من هنا.

– ولكن ما علاقة المعلم بهذا؟ هل أن ادواتك عنده؟

– هذا لا يخصك. ولكن يجب أن اراه.

– سأذهب اليه الآن.

– لا.. لا داعي لذلك. يمكنك ان ترافقني اليه، اني احتاجك كدليل.

نظرا إلى بعضهما البعض ببلاهة وهما حائران.

كانت الفكرة المختمرة في ذهني أن اعثر على القرية التي عينت فيها ومن ثم ارسال الطفل بأية وسيلة كانت إلى أقرب مدينة. كانت الساعة تشير إلى الثانية بعد منتصف الليل.

قلت:

– الآن سننام، وننتظر الغد، ولكن لو.. اشعلنا قليلاً من النار.

في اليوم الثاني استيقظت مع شروق الشمس، وكانت اشعتها تتسرب من الثقوب العديدة وتنشر بقعاً ذهبية في ارجاء الغرفة الداكنة. وما ان وضعت لقمة في فمي حتى سمعت نداءاً بصوت عال ودخل الرجل لاهثاً يتصبب العرق من جبينه، وعرفت ان وراءه شيئاً. قال بصوت متقطع:

– افندي.. افندي لقد عثرت على المعلم. لقد جلبته رغم مرضه. اعتقد ان شفاء الطفل اصبح ممكناً. أليس كذلك؟

الموت تحت السماء المحتلة

انهم ثلاثة.. الصراخ يصلهم من الغرفة المجاورة، حاداً مخنوقاً مثل صرير باب حديدي يمسح ارضاً مصبوبة بالاسمنت، يمزق بقايا اعصاب.. وفي كل لحظة يسقط شيء ثقيل في داخلهم ويرتطم بالقاع، ليحدث هزّة عنيفة تحيل جلودهم إلى صفحة متوترة باردة مشدودة شداً محكماً إلى العظام.. الانتظار يمتص منهم اشياء كثيرة.

الجدار القائم ببلادة وعناد يوحي بالسقم.. كانت الوجوه لم تتعرف على بعضها البعض، إلا أنها تتكلم من الداخل وبصمت. كل واحد منهم يستجمع شتات ذاكرته ليرسم المكان الذي قد التقى فيه بأحد الوجوه.. ولكن الملامح كيف يمكن مقارنتها بالعتمة؟

أحدهم رجل ضئيل برزت عظامه بشكل واضح، وجهه بلا لون، متحرك مثل العصفور.. لم يستطع أن يصبر طويلاً. نظر إلى الرجل الجالس بجانبه. كان وجهه لا يحتوي سوى على عينين نفّاذتين، أجالهما في صدر صاحبه الواسع ورأسه الكبير، ووجهه الذي لا يعبر عن شيء.

– يظهر أن التحقيق سيبدأ معنا اليوم.

– طبعاً.. انهم لم يجلبونا إلى هنا للّعب معنا.

– بلى.. إنها لعبة ولعبة قذرة.

– كم مرة مررت بهذه اللعبة؟

– أكثر من عشرين مرة.

– يظهر أنهم لم يحصلوا منك على شيء.

– الصمت احسن وسيلة للتعبير عن الحقد.

– ليس في كل الحالات.

– بالطبع.

– وأنت؟

– قبضوا عليَّ قبل يومين.

– سيبدأون معك اليوم.

خيِّل للرجل الثالث أن هذا عسكري.. وحين رآهما يندمجان في الحديث ويعود اليهما وجهاهما

الحقيقيان، شعر بالرغبة في مشاركتهما بالكلام، وتلاشى الجو المشحون بالشك. التفت إلى العسكري. وبعد أن غرس عينيه الصغيرتين في وجهه الواسع، وغاص في نظراته الهادئة، عثر في اعماقه على شيء كان قد فقده منذ فترة ليست بالقصيرة، ابتسم، كانت المرارة التي إحتفظت بطعم الصدأ فوق لسانه تتلاشى ببطء. قال بصوت مهشم:

– وحدك أم هناك آخرون؟

– ثمة شخص آخر، واما الباقون فقد فروا، بيد أن العملية قد نجحت بشكل باهر.

مرّ صمت قصير.. كان الصوت وراء الجدار تارة يختنق وأخرى ينفجر.. حدّق الرجل الضئيل في وجه العسكري الشاحب وقال:

– الدقائق الخمس الأولى هي الأمر الحاسم. حذار من التخاذل أمام هؤلاء الصهاينة. ان سلاحنا الوحيد هو الصمود.

سرت في جسمه رعشة هزّت اعصابه.. كان البرد قاسياً.

صفق الباب بشدة.. وتدفق إلى الداخل رجال مدججون بالرشاشات الاوتوماتيكية، يتقدمهم رجل قصير.. اقتيد الثلاثة إلى غرفة مجاورة. ثمة رجل معلق من رجليه يتدلى من السقف وهو شبه عار، وقد تحول لون جلده إلى بنفسجي قاتم.

اجال الرجل القصير عينيه في وجوههم. و وجه كلامه إلى الرجل الضئيل بلغة عربية مكسورة:

– أنت.. هل عاد اليك رشدك.. أم مازلت راكباً رأسك؟

– ماذا تريدون مني؟

– الا تدري ماذا نريد منك؟ لقد كررنا عليك السؤال اكثر من عشرين مرة. لا تكن صلفاً.. تكلم والا فلا خلاص لك.

– قلت مسبقاً بأن لا علاقة لي بأي شيء.

جحظت عينا الرجل المنتفخ. وبحركة سريعة ألتفت إلى الوراء وبغتة هجم الواقفون على الرجل.. وبدأوا يضربونه بأخامص رشاشاتهم، ويقلبونه على الأرض بأحذيتهم.. كان صامتاً لا تصدر منه نامة.

بحركة أخرى أوقف الضرب.

قال بصوت هادئ فيه سخرية وعناد:

– انتم فاشلون.

– أستمر على عنادك.. علقوه من يديه.

نفذت العملية بسرعة، بعد أن جردوه من ملابسه، وبدأ الضرب بالسياط، كان الدم ينزف من جلده ويشكل خطوطاً عميقة، متوازية ومتقاطعة مثل أشكال هندسية.

– دعوه..

قال بعصبية، ثم ألتفت إلى الرجل الثالث قائلاً:

– يظهر أنت ايضاً من أنصار السكوت.

– ....

– علقوه.

كان لم يزل واقفاً، سحب الكرسي وجلس عليه واضعا ساقاً على أخرى، وراح يدخن.. قدم سيكارة إلى العسكري، لكنه رفضها.. أبتسم بلؤم وقال:

– ما الذي وضعك بين هؤلاء؟

قال بحزم:

– أرجو أن تدخل الموضوع بلا مقدمات.

– أقول لك حاول أن تستفيد من هذه الفرصة قبل أن تندم.

– لا أعتقد انكم تستفيدون مني.

هذا الكلام لا يفيدك.. إننا نعرف كل شيء.

– ما الداعي اذن للتحقيق؟

كان الرجل البدين يحاول جاهداً أن يكون هادئاً:

– لا ترغمنا على استعمال وسائلنا الخاصة معك..

– ليست لدية أية معلومات.

– الرجل المختفي، الا تعرف عنه شيئاً؟

لم يتكلم....

– ها.. ماذا تقول؟ الا تريد ان تتكلم؟

وابتسم بخبث هازا رأسه:

– عجيب.. كلكم هكذا في بداية الأمر.. ولكننا نعرف كيف نجعلكم تسقطون مثل اوراق الشجر.

كن واثقاً اني لا أريد لك السوء..

شاور نفسك..

التفت إلى رجاله:

هيا اخرجوا..

وخرج هو ايضاً.. صفق الباب من ورائهم بقوة. قال الرجل الضئيل بصوت كسير وكأنه ينتزع الكلمات انتزاعاً:

– يا له من بهلوان مضحك:

قال الرجل الثالث بصوت خافت:

– لا ترفعوا اصواتكم فربما ينصتون الينا..

أجاب الضئيل:

– ليفعلوا ما يشاؤون..

فتح الباب بقوة.. وارتطم بالجدار، فأحدث دوياً مزعجاً، دخل احدهم وهو يحمل في احدى يديه بندقية اوتوماتيكية وبالاخرى سوط.. ويدأ يضربهم بصورة عشوائية وهو يهذي بصوت اشبه بالصراخ، يختلط بصفعات سوطه التي كانت تشق الفراغ وتلهب اللحم اللزج.

ترك الغرفة لاهثاً وقد تصبب منه العرق الغزير كان الرجل الذي علق من رجليه قبل مجيئهم ساكناً لا تصدر منه اية حركة.

قال الرجل الضئيل بقلق، موجهاً كلامه إلى العسكري:

– صاحبنا لا يتحرك.

قام العسكري من مكانه بتثاقل و وقف امام الرجل المعلق وراح يحدق بوجهه. كان خيط من الدم المتجمد الازرق ينحدر من بين شفتيه المزرقتين مارا بخيط آخر يمتد من انفه إلى اليسرى فثنايا شعره الاشعث.. وعلى الارض تحت رأسه مباشرة بركة من الدم الجامد. لمس الجسم.. كان بارداً متخشباً.

التفت اليه وقال بصوت كسير:

– لقد مات بطلاً.

كانت الدموع قد تجمدت في عينيه. واطبق عليهم صمت حزين.

– لا.. لن اخشى الموت بعد..

دخل الرجل البدين مع ثلة من جماعته.. قال بهدوء مصطنع وابتسامة ساخرة ترف على شفتيه الغليظتين:

– ها يا حضرة الضابط العربي المحترم.. ماذا تقول الآن؟

هل رأيت مصير هذا الفلسطيني؟.. كلكم تنتظرون دوركم.. ماذا تريد.. امازلت مصرا على عنادك العربي؟ ام تريد ان نريك اكثر من هذا؟.

لم يتكلم.. كانت احاسيسه قد تحولت إلى كتلة من الحقد الأسود وأضاف:

–حسناً.. سنريك الآن مشهداً اعتيادياً..

جلس على الكرسي.. وراح يدخن وخلفه انتصب خمسة ظلال كئيبة ترافقه اينما حل:

قال دون ان يلتفت إلى الوراء:

– احضروا الصندوق.

خرج اثنان بسرعة واحضروا صندوقاً ملطخاً بالدم.

قال موجهاٍ كلامه إلى رجاله:

– هيا إبدءوا بعملكم.

ثم نظر إلى العسكري بعينيه الحمراوين، وكان السكر قد انتشر في اوصاله:

– انظر.. انظر جيدا.. هنا ستكون نهايتك. وانتما ايها الخروفان المعلقان اركبا رأسيكما.. سنرى..

انزلت الجثة المعلقة وارتطمت بالأرض، متكومة في مكانها. تجمد الدم في عروقه عندما رآهم ينهالون عليها كالذئاب لتقطيع اوصالها بالسواطير. كانوا ككابوس.. كحلم رهيب.. كانت حقيقة الموت التي طغت على وجوده بعنفها، اخف وطأة من خوف الترقب والانتظار اللذين كانا يملآن احاسيسه.. وفكر من خلال دهشته. «كل شيء إذن تافه»..

اجتاحه غضب مدمّر هزّ اعصابه.. تمثلت في ذهنه شوارع القدس.. وألسنة النار التي تصاعدت من مستودعات البنزين بعد القاء القنبلة والمطاردة.. اهله.. دموع امه وزوجته وابنته.. شعر ان ذاته بدأت تحقق نفسها عبر دهليز طويل مظلم لا نهاية له.

راح الرجل المنتفخ يقهقه بهستيرية.. كانت الجثة قد علبت في الصندوق، واغلق غلقاً محكماً، ونقل إلى الخارج. وقف الثور في مكانه مترنحاً.

– أنت ايها الضابط العربي المحترم.. الا تريد أت تعقل؟ إلى متى تظل تتدلل علينا؟

تراءت له الجثة المقطعة.. شعر بدوار.. قال في نفسه: «يستطيع الانسان إذا اراد ان يتحمل كل شيء».

امر الرجل الثور بانزال الرجلين المعلقين وتعليق العسكري من يديه بعد شد ذراعيه إلى الخلف.. كان الالم حاداً عنيفاً عند الكتفين.. شعر كأن ذراعيه تنفصلان عن جسده.

قال الثور بصرامة:

– الآن اخبرنا عن مكان صاحبك وكل من له علاقة بك.. تكلم قبل أن نسلخ جلدك.

كان يشعر أن جسده يتحول تدريجياً إلى شيء بلا احساس.. إلى شيء أشبه باللباد.. وكانت صورة الجثة تبعث فيه العناد.. كان يفكر ان في موته يكمن شرف الآخرين وحياتهم. ان حياته في كل الأحوال زائدة. كان يمكن أن يموت أثناء تفجير القنبلة وقيادة العملية، ولكنه نجا بأعجوبة.

في اليوم الثاني حضر رجال متأنقون، خيل اليه انهم مسؤولون كبار. وكان الرجل الضئيل قد مات. واما الرجل الآخر فقد كسرت ذراعه اليسرى وقطعوا اصابعه.

لا يدري ما إذا كان قد فقد وعيه أم انه فى حلم، إلا انه كان يسمع كلامهم وكأنه صادر من أعماق كهف بعيد.

كانت الكلمات تسقط كمعاول ثقيلة على رأسه. وشعر أنه يتيه في هوّة مظلمة، ويرتطم بقاع صلد، بارد مثل جليد متبقي من العصور السحيقة.

برتقالة من يافا

بعد عودتي من العمل، وقفت أمام مخزن للفواكه في شارع (رانكة)، وبعد أن انتهى الرجل الواقف أمامي من دفع الحساب طلبت خمس برتقالات لأحملها إلى ابنتي التي تنتظر هديتها كالعادة.

أنا شخصياً لست من هواة أكل البرتقال، وأحياناً يجتاحني شعور غريب حين أرى البرتقال، هو أقرب إلى العداء. ولعل ذلك يرجع إلى أيام الطفولة.

كان ذلك عندما كنا لا نزال نملك أرضاً ووطناً وكان ثمة بستان للبرتقال يملكه يهودي يدعى هارون. وقيل أن البستان كان في الاصل يعود إلى رجل أسمه أحمد غزالة، إلا أنه نتيجة للمحاكمات الطويلة التي تجاوزت مصاريفها ثمن البستان نفسه أرغم غزالة على التنازل عن البستان والسفر إلى مكان بعيد.

ذات يوم قررنا نحن أولاد المحلة أن نسطو على البستان وننتقم لأحمد غزالة، على أن نأتي على آخر برتقالة.

وكان الدور الذي أنيط بي هو أن أكون أول الذين يعبرون الجدار وآخر الذين يتركون البستان، وكان أن ترك عندي هذا الاختيار شعوراً بالاعتزاز والفخر، رغم علمي بخطورة هذا الدور.

وكنا نحن أولاد المحلة نسمع الأساطير المرعبة عن هارون وما يفعله بمن يقبض عليه في بستانه. كان ثمة جدول يمر بالبستان.

رحنا نحن الثلاثة نقطف البرتقال ونرميه في الجدول واثنان في الخارج يملآن الكيس.

قال أحدنا بهمس:

– ينبغي ان نترك البستان.

وكان الظلام قد خيّم تماماً، قلت:

– لكننا اتفقنا ان نأتي على آخر برتقالة.

قال الآخر:

– هذا لا يمكن.. إننا لا نرى في الظلام.

قال الاول:

– إني يجب ان أذهب. انا أخاف.

قلت بصوت عال:

– هذا جبن. كان ينبغي عليك أن لا تأتي منذ البداية.

وهنا سمعنا خشخشة من بين الأشجار.

قلت:

– هيا اركضوا.

وتفرقنا ونحن بين الأشجار ودون أن نعرف اتجاهنا.

ورأيت ضوءاً قوياً يسلط عليَّ من مصباح يدوي سرعان ما اعقبته يد راحت تعصر رقبتي بشكل وحشي:

– هذه نهايتك يا ابن العاهرة.

وعلمت ان صاحب الصوت الممطوط إنما هو هارون.

قلت بوقاحة:

– هارون اتركني وإلا ستندم.

وأنا عبثاً أحاول التملص من بين يديه.

قال وهو يشد على أسنانه:

– كلب ابن كلب، من أنت حتى تهددني؟ سوف أشدك على الشجرة وألهب ظهرك بالعصى.

وراح يسلط الضوء من مصباحه اليدوي على وجهي.

قال بدهشة:

– أهذا أنت؟ ابن خليل حسين؟ تأتي وتسرق البرتقال في الليل من بستان صديق والدك؟ وراح يجرني من يدي:

– هيا سوف نذهب إلى والدك. إنه هو الذي سوف يؤدبك. قل لي من كان معك؟

وعلمت إذ ذاك لماذا أناطوا بي هذا الدور. قلت محتداً:

– لا شأن لك بالآخرين. أنا بين يديك.. افعل ما تشاء.

وكنت اعلم أية قيامة ستقوم إذا أخذني فعلا إلى والدي. وحاولت عدة مرات أن أتملص إلا أن محاولاتي كانت فاشلة.

كان أبي واقفاً أمام الباب. وكان قد ارسل إخواني للبحث عني. ورأيت أمي في نهاية الزقاق وقد لفّت نفسها بعباءتها تبحث عني هي الاخرى.

قال هارون وهو مازال ممسكاً بي:

– هذا هو ابنك ياخليل افندي، جاء يسرق البرتقال من بستاني مع أولاد الرقاعين والكناسين.

من يصدق هذا؟

أحسست بأن أبي قد شعر بالاهانة. قال بعصبية وهو يتقدم مني:

– اتركه يا هارون.

اردت ان انهزم، بيد ان نفسي قد ابت ذلك ثم ان العقاب سيكون عند ذلك اشد. وشعرت برجفة باردة في كياني. لقد كان والدي قاسياً في مثل هذه الحالات. كان أنفه يرتجف وعينه تومض بالشرر، شعرت به غريباً عني أو أنا غريب عنه. وراح ينقل عينيه بيني وبين هارون. واحسست في داخلي انه لا يصدق ما حدث. ولم أحس بأي ذنب وكنت في اعماقي فخوراً بما قمت به.

قال أبي وقد تغيرت ملامحه فجأة وهو يحاول إخفاء ابتسامة ارتسمت على شفتيه:

– أين هي البرتقالات.

قلت بشيء من الفخر:

– أخذها اثنان من جماعتي.

هزّ رأسه مبتسماً بتساؤل وهو يحدق في الفراغ ويردد مع نفسه:

– إبني له جماعة..

قال هارون بفضول:

– من هم جماعتك؟

– قلت لك لا شأن لك بجماعتي.

قال أبي موجهاً كلامه إلى هارون:

– اذهب إلى بيتك. سوف أؤدب ابني.

ثم قال لي ونحن ندخل البيت:

– سأعفيك هذه المرة، ولكنك إذا كررت مثل هذا العمل مرة أخرى فسأقتلك.

•••

جاءتني ابنتي كالعادة وهي تحاول ان تصعد الكرسي. أعطتني البرتقالة قائلة:

– بابا.. أقشر..

اخذت البرتقالة ورحت أقلبها بين يدي، وفجأة وقع نظري على كلمة مطبوعة على البرتقالة باللون البنفسجي وبحروف لاتينية «يافا» وراحت الحروف تتفرق وتتشكل من جديد وبحروف مختلفة.. يافا..ي ا ف ا.. يافا..

وراحت الحروف تتحول إلى أصوات عالية ومنخفضة. وانتصب أمامي صورة هارون. نامت

ابنتي ناسية البرتقالة التي تحولت في يدي إلى شيء صلب اشبه بالقنابل التي كان الجنود الانكليز يشدّونها على أحزمتهم. ثم تحولت إلى شكل صاروخ هائل..

يا إلهي هل انا في حلم؟..

كانت زوجتي هي الاخرى قد ذهبت الى الفراش ونامت. وبقيت وحدي. وتحول الشكل الصاروخي إلى كرة أرضية عليها خريطة العالم العربي. وفي منتصف الخريطة إلى جهة اليمين غرست مدية، هي في نفس الوقت فتيلة القنبلة. وفجأة وجدت نفسي في شارع عام في إحدى مدن أوروبا الغربية، إلا أن الجماهير كانت غير أوروبية وهي تنتظر ظهور شخص ما. كانت الجماهير غارقة في الحزن والصمت ووجدت أمامي منصة كبيرة، فاذا بالشخص المنتظر هو هارون. وكانت أطرافه السفلى قد تحولت إلى قدمي عنزة. ورحت أهمس في آذان بعض الجالسين معي على الرصيف:

– هيا لنقتله.. إنها فرصة جيدة.

أجابوني بيأس:

– كيف.. وبأي شيء؟

وتدحرجت ألوف البرتقالات وقد كتب على كل واحدة منها «يافا». وعندما كان بعضها يتحطم يتفجر منه الدم.

وصاح أحدهم:

– هيه انت أيها المعز، أنزل من هناك.

عن وكانت مجموعة من العاهرات يكشفن سيقانهن و يوزعن الابتسامات المغرية على الناس طالبات منهم التصفيق لهارون.

وهززت رأسي وأنا أدمدم مع نفسي:

– يا إلهي أهذا هو فعلا هارون؟

وعندما غادر هارون المنصة مرّ بضعة رجال عليهم سيماء الملوك وقد وضعوا على رؤوسهم التيجان يتقدمهم رئيس دولة عربية. وراحوا يحيون المنصة الفارغة.

كانت المدية لا تزال منغرسة في منتصف الخريطة إلى جهة اليمين. كانت الخريطة تتقلص والمدية تكبر. وصغرت الكرة البيضوية. وكانت المدية قد تحولت إلى سيف ضخم.

كنت خائفاً جداً ومما زاد من رعبي ظهور ذئب هائل أمامي راح يعض نفسه وينهشها نهشاً إلى أن أتى على كل جسمه، فلم يبق منه سوى الانياب والاسنان وقطعة لسان طويلة تتجاوز المتر.

ها أنا اذن أمام كرة صغيرة وسيف ضخم ومجموعة من الاسنان الحادة وقطعة لسان طويلة.

واختفت البرتقالة التي كتبت عليها «يافا»، ورحت أبحث عنها إلى ان وجدت في إحدى الزوايا بقعة دم كبيرة. وعلمت انها تفجرت. وحاولت أن احرك السيف، ولكني لم أستطع:

– يا إلهي.. كيف يمكنني أن أحمل هذا السيف لأقطع به رأس هارون؟

كان يحتاج إلى من يملك قوة إله. وحاولت أن أزيح الاسنان فلم أستطع أيضاً.. وأما قطعة اللسان الطويلة فلم أعد أفكر في ازاحتها لثقلها.

ترى ماذا ستقول زوجتي إذا رأت كل هذه الاشياء؟

وأما أبنتي فإنها ستجن بالتأكيد.

وفجأة سمعت ضجيجاً وصخباً تفوح منها رائحة أزهار القداح، وإذا بقافلة لا نهاية لها من البشر تسد الآفاق أمامي. واختلطت ملايين الاصوات قائلة بصوت واحد كأنه صادر من أعماق السماء:

– لا تخف أيها المسكين.. إنك لست وحدك.. نحن فقط نستطيع أن نحمل هذا السيف ونكسر هذا الاسنان..

وراح السيف يكبر في ايديهم إلى ان تحول إلى حجم قوس قزح يحتوي السماء. وظهر احمد غزالة كالطيف تحت الهالة الحديدية كما لو أنه المسيح جاء ينتقم لآلامه..

كرنفال

الثلج يتساقط بهدوء. الشوارع الحليبية خالية إلاّ من بضعة اشباح تتكسر تحت اقدامها قطع الجليد وصفين من الاشجار العارية يمتدان على جانبي الطريق. ومن وراء البنايات الداكنة يحدث الترام صريراً مزعجاً يذكرني بساعات الفجر.

وقفت امام الساحة الحليبية. كان الثلج ينزل من فوق المصباح المطل على الاغصان العارية، ويتخذ طريقه من خلالها ليلتصق بالارض، مكوناً حول النور نسيجاً اشبه بنسيج عنكبوت عملاق.

وقفت هنيهة أتأمل ندف الثلج، ولما سألت أحد المارة عن المكان الذي أبغيه، أشار إلى بناية مقابلة وراء صف الشجار.

– هنا محل تبديل الملابس.

قال لي ذلك البواب الذي تسلم مني بطاقة الدخولية، ثم اوصد الباب ورائي.

كانت الكآبة التي لازمتني طيلة النهار قد بقيت وراء جدران البناية، اذ سد عليها الرجل الباب.

يا إلهي. ان رأسي لا يستقر على شيء. اين أنا؟.. قالوا حفلة تنكرية، ولكن كيف؟ في يميني مجموعة من النساء يلبسن التول كأنهن ملائكة تهبط من السماوات. وأمامي آدم و حواء. اجل اني ارى ورقة التوت فحسب. هذا كله في الممر. وماذا سأرى في الداخل يا ترى؟

وقفت أمام المرآة في غرفة تبديل الملابس. عمامتي على رأسي تتوسطها ريشة خضراء. لحيتي الخفيفة السوداء تحيط بوجهي الذي عادت اليه الثقة في هذه البلاد.

«وجهك من الطراز المحبوب عند النساء».

وضحكت مع نفسي على هذا – الطراز المحبوب – وتذكرت يوم حاصرت بنت الجيران في احدى زوايا زقاقنا لتقبيلها فكان لي أن أتلقى منها صفعة من النوع الذي لا يحسد عليه.

– ابن الكلب هل رأيت وجهك القبيح ذات يوم في المرآة؟

وتقدمت رافعاً رأسي وانا أجر أذيال ثوبي بلا حاشية، ولكني كنت لا أستطيع منع رأسي من الالتفاف يميناً ويساراً. تارة القي نظرة على شقراء شدت عينها إلى عمامتي، واخرى على خصر بض في ملابس شفافة.

واجتزت الباب الزجاجي وانا احاول ان اكون في اسرع وقت ممكن في الداخل. ها هم اصدقائي قد اتخذوا اماكنهم على المائدة واحدة بالقرب من المدخل.

كان الرقص لم يبدأ بعد. صاح هربرت:

– ها لقد جاء الخلفية.

حنيت هامتي وانا القي عليهم التحية باللغة العربية:

– السلام عليكم..

وسألت كارين:

– وأين الحريم يا سيدي؟

قلت وانا اتصنع ابتسامة:

– الحريم ها هنا يا آنستي. ولكن اسألي أين هي الحاشية الملكية؟

واتخذت مكاني بينهم.

رفعت كؤوس البيرة نخب الخليفة هارون الرشيد. كانت باردة لذيذة أطفأت العطش في جوفي. واما ماذا كان يشرب الخليفة هارون الرشيد في عصره الذهبي، فلا أدري؟ ما كان لي أن أتعشى بعد. راحت جدران معدتي وامعائي تمتص البيرة القوية بشراهة وتدفعها إلى دمائي بجنون.

كان جسدي على المائدة واما عيناي، فقد كانتا تمتدان إلى الزوايا البعيدة كأنهما تبحثان عن شيء ضائع. كيف ستكون نهاية هذه الامسية؟ لا أدري. كل ما هنالك أني لم أسكر بعد. كنت اريد أن أسكر حتى العظام. ان أتحول إلى هارون الرشيد الحقيقي.

أين ينبغي ان اركز عيني؟ هذه الجالسة قبالتي والتي قد تحولت الى آلهة أغريقية لا تعجبني، انها باردة ثم انها تريدني صديقاً دائمياً و ويل لي إذا خرجت معها مرتين. اما أريكا فهي أطول مني وليست من الطراز الذي ابحث عنه. حتى هايدي التي طالما ينشغل بها تفكيري لا أريد ان ارتبط بها. هنا على هذه المائدة لا أريد ان أحرك ساكناً. ولا بأس من الرقص مرة او مرتين وبعد ذلك سألم أذيال ثوبي وأتسلل إلى زاوية أخرى. ولكن هايدي هذه الغامضة كيف ينبغي أن أتركها هنا؟

دعاني هربرت إلى البار. كان البار وراءنا مباشرة في زاوية داكنة. طلب كأسين من «فاين براند». ثمة فتاة نحيفة كانت بجانبي اوحت لي عيناها السوداوان الواسعتان واهدابها الطويلة بشيء سحري غامض، خيل لي على أثره انها من النوع الذي لا يمكن حتى التحدث معه. ومما زاد في خيبة أملي جلوس شاب اشقر بجانبها، متقمصاً شخصية جندي روماني. التفت بجسمها

الاهيف والقت عليَّ نظرة لا مبالية وهي تمص من سيكارتها كمية من الدخان.

شعرت بطعنة تنزل في صميم كبريائي، وتذكرت بنت الجيران التي صفعتني في وجهي. طلبت كأسين من الفودكا، وبعد ان افرغناهما في جوفنا نغزت هربرت في خصره قائلاً:

– هيا إلى مكاننا.

التفت إليَّ باستغراب قائلا:

– ولكن الا تريد ان نواصل؟

– هيا إلى مائدتنا، سنواصل هناك.

واذ غادر هو مكانه، أردت أن أقول شيئاً إلا ان جرأتي خانتني لأول مرة. ولكن ينبغي ان أقول شيئاً مهما كلَّف الامر. شعر هربرت بارتباكي وقال:

– هيا.. لماذا أنت واقف؟

قلت وانا اضبط اعصابي بصعوبة:

– هذه هي كليوباترة، واين هو القيصر؟

لا أدري ما إذا سمعت كلامي ام لا؟ الا انها لم تلتفت.

قال هربرت:

– يمكنك مراقصتها عند بدء الرقص.

قلت بيأس:

– ولكن الجنود الرومان لا يحتملون.

قال باستهزاء:

كلام فارغ.

كانت اريكا قد تركت مكانها. وعندما انتهيت من الأكل شعرت بها تقف ورائي واضعة يديها على كتفي، قالت:

– هل يسمح لي الخليفة ان أقبل لحيته؟

– أجل يا آنستي، وفمه ايضاً.

وسمعتهم يقولون «لقد سكر الخليفة..».

الا اني لم التفت إلى اي واحد منهم. كنت اشعر بالمرح يملأ كياني، وبدا لي اني قد نسيت كليوباترة.

بدأت الموسيقى. وبدأت معها حركة جديدة. رقصت مع هايدي. طلبت مني برجاء ان لا استرسل في الشرب. قلت لها:

– ولكني اريد أن أعيش ليلتي كالآخرين. ربما لا تتكرر هذه الليلة بالنسبة لي مرة أخرى.

قالت بجد:

– افهمك. افهمك يا سعيد. ولكن يجب ان تراعي صحتك.

قلت ضاحكاً من كلامها:

– وهل تعتقدين أن صحتي رقيقة إلى درجة لا تتحمل هذه الليلة؟. أنا لم أعرف الفراش الوثير الناعم يا هايدي. رأسي لم يستقر يوماً على وسادة الريش. لم أعرف معنى السعادة الحقيقية. إن ما أراه حولي الآن لا تصدقه عيناي يا هايدي. يخيل لي أني احلم.

قالت هازة رأسها:

– اعرف ذلك. اعرف كل شيء.

– ومع ذلك تريدني ان لا اعيش ليلتي كالآخرين.

كانت الرقصة الثالثة هادئة. والموسيقى تتماوج بخفة وتختلط بحرارة انفاسها التي كانت تنقل إلى دمائي. حاولت تقبيلها، الا انها سحبت رأسها بخفة قائلة:

– ارجوك.

قلت بشبه احتجاج:

– هايدي، انت دائما جدية.

قالت بابتسامة جميلة:

– هل لأني رفضت أن تقبلني؟

– ليس لهذا السبب، انما أقصد بشكل عام.

قالت بدلال وهي تحدجني بنظرة ذات مغزى:

– لماذا حاولت تقبيلي؟

– لأنك لطيفة وجذابة.

شعرت ان احساسي تجاهها غير جنسي. وكان قلبي يخفق على غير عادته. كانت قد وضعت رأسها فوق كتفي. وعبثاً حاولت أن أجد كلمات مناسبة لأهمس بها في اذنها.

وعند انتهاء فاصل الرقص، رافقتها إلى المائدة، ثم توجهت بلا ارادة مني إلى البار. وفجأة

تذكرت كليوباترة. اجلت عيني هنا وهناك فلم اجد لها أثراً. ورحت أبحث عنها. كانت جالسة في إحدى الزوايا البعيدة لوحدها، وانسحبت مخفيا نفسي وراء احد الأعمدة لأراقبها عن كثب.

في زاوية غير بعيدة لمحت هربرت وقد غرق مع فتاة شقراء في عناق طويل. قلت في نفسي:

«اقرأ السلام على مائدتنا»

بعد دقائق احسست بها ثقيلة، قامت من مكانها وبيدها سيكارة، متوجهة إلى البار، وحين مرت بالعمود سرت إلى جانبها قائلا:

– هل تسمح لي كليوباترة أن ارافقها؟

قالت مبتسمة:

– نعم.

تنفست الصعداء وانا أقول:

– الا يشكل الجندي الروماني خطراً؟

قالت وهي تجيل نظراتها بين لحيتي وعمامتي:

– انه لا يستطيع ان يقتل ذبابة.

سألت بفضول:

– ولكن أين هو؟

– لا أدري، لقد تركته وشأنه.

– كيف؟.. لقد تصورت أنه صديقك.

– لا.. لا.. لقد حدثني بما فيه الكفاية عن خنازيره.

وتوجهنا إلى البار.

– هنا لا يحق لك أن تملك أكثر من امرأة واحدة.

– أجل.. هذا ما لا شك فيه.

– هل يمكنني أن أعرف من تكون هذه الواحدة؟

– هذا ما لا اعرفه بالضبط لاسيما والأمر متعلق بهذه الواحدة نفسها.

قالت باستغراب:

– عجيب.. ألم تشخص بعد فتاتك؟

قلت متصنعاً البلاهة:

- فعلا، لا..

حاولت ان تخرج سيكارة، الا اني بادرت وقدمت لها واحدة. ورحنا ننفث الدخان ونحن نحدق في عيون بعضنا البعض ونفرغ في جوفنا كؤوس الكونياك. شعرت برغبة جارفة في تقبيلها، كانت صورتها تملأ احاسيسي بالدفء، وتحرك دمائي بشكل عنيف. أخذت يدها ورحت اتلمس أناملها الرقيقة. وقبل أن ننهي سيكارتنا عزفت الموسيقى واتجهنا صوب ساحة الرقص وحين لففت ساعدي حول خصرها وجدتها خفيفة مثل الريشة. كانت عيناي مشدودتين إلى عينيها. كنت اريد أن انفذ اليهما بكل كياني.. قالت:

- قل لي.. ألم تكن قد اخترت الفتاة المعجرفة التي راقصتها؟

- لا .. لم تكن لي اية نية في ذلك.

- ولماذا اخترتها هي بالذات؟

- انها زميلة لي، وهي فتاة طيبة جداً.

شعرت انها بكلامها قد اعتدت على هايدي لأني لم أجد هايدي ذات مرة متعجرفة، ورغم ذلك فلم أقل شيئاً. كانت تتحرك مع الموسيقى بخفة متناهية.

عند بدء فاصل الرقص التالي، لم ترقص. ذهبنا إلى ركن داكن واستغرقنا في عناق طويل بعد أن القيت عمامتي ولحيتي المستعارة جانباً. تذكرت هايدي. ولا أدري لماذا تمنيت أن أراقصها. وبعد فترة لا ادري كم استغرقت، قلت «ينبغي أن ابحث عن صديقتي».. وذهبت الى مائدتنا. كانت هايدي جالسة لوحدها والآخرون يرقصون. قالت مبتسمة.

- أين كنت.. هل شربت كثيراً؟

قلت وأنا اتخذ مكاني بجانبها:

- لا لم أشرب، ولكن لماذا انت جالسة لوحدك؟

- يعجبني أن اتفرج فقط

- أنا لا افهمك فعلاً يا هايدي.. كم مرة رقصت؟

- مرة واحدة فقط ومعك.

- ألم يطلبك أحد للرقص؟

- بالعكس، لقد ازعجوني.

- ولماذا لم ترفضي الرقص معي ايضاً؟

لم ارد ان اكون وقحة.

لم أكن قد تعرفت على طبائعها عن كثب كل ما كنت أعرف عنها أنها كانت جدّية في أكثر الاحيان، حتى كنت أسمع بعض التعليقات حولها من بعض الزملاء بكونها مغرورة اكثر مما يجب.

قلت لها وأنا اشعر بحاجة اليها:

– هايدي. هل بامكاني دعوتك مرة أخرى للرقص؟

قامت من مكانها وهي تبتسم قائلة:

– الم تخش ان ارفض؟

– التفكير بالخوف لا يؤدي إلى نتيجة.

كان المقطع الاول من الرقص قد انتهى. قالت:

أنت تبدو احسن بدون لحية وعمامة. اين كنت طيلة هذه المدة؟

– لقد رقصت مع فتاة اسميتها كليوباترة.

– بالتأكيد انها جميلة.

ولكن ليست اجمل منك.

قالت بخجل:

– آه.. أنتم الرجال.

شعرت اني قد شربت كثيراً. وكانت هي أيضاً متعبة، قلت لها:

– متى ترجعين إلى البيت؟

– بعد هذا الفاصل من الرقص.

– هل يرافقك أحد إلى البيت؟

هزّت رأسها بالايجاب قائلة:

– نعم.

قلت بانفعال وقد أجتاحتني غيرة الشرقي:

– ومن هو هذا الذي يرافقك إلى البيت؟

سوف ارافقك أنا، هل فهمت؟

قالت كالمنتصرة في لعبة ما:

– وكليوباترة، هل تتركها ببساطة؟

وتذكرت ما قالته لي كليوباترة «هنا لا يحق لك ان تملك اكثر من امرأة واحدة».

كنت اشعر بالاطمئنان من عينيها الواسعتين باهدابها الطويلة، قلت:

– هايدي، كليوباترة لم تخلق لي. انها مجرد مظهر خارجي.

قالت محدقة في عيني:

– وهل ثمة من خلقت لك على الاطلاق؟

قلت دون ان أنتبه إلى كلامها:

– هايدي. لقد كنت اريد دائما ان ابتعد عن التفكير فيك، ولكن يبدو انك قد نفذت إلى اعماقي.

قالت باستخفاف:

– هذا لأن وضعك الآن غير طبيعي وقلبك تحت تأثير الكحول.

قلت وانا اشدها إليّ اكثر، وقد انكمشت بين ساعدي كحمامة أليفة:

– أجل ان وضعي غير الطبيعي هو الذي تمرد على الصمت.

كانت الساعة عند انتهاء الرقص تشير إلى منتصف الليل. قالت:

– الآن يجب أن أذهب. ارجو لك ليلة سعيدة.

– ولكن هايدي، هل انت مجنونة؟ لقد قلت اني سأرافقك إلى البيت.

قالت بابتسامة هادئة، وانا اساعدها في ارتداء معطفها الاحمر:

– سعيد، اذهب إلى كيلوباترة، انك ينبغي ان تعيش ليلتك كالآخرين. واما انا فسيرافقني والدي إلى البيت، انه ينتظر في الخارج.

قلت باصرار:

– مستحيل ان ارجع مرة اخرى إلى هناك. سأذهب أنا ايضاً إلى البيت.

– لا تكن مجنوناً ان الحفلة ستستمر حتى الثانية بعد منتصف الليل. اذهب وعش ليلتك كالآخرين يا سعيد.

بعد ارتداء معطفها صافحتها قائلا:

– إلى اللقاء.

امسكت بيدي قائلة:

– انا لا افهمك.

وسرنا باتجاه الباب دون ان اتفوه بكلمة.

قالت بعد ان التفت إلى الوراء:

– أنظر، كليوباترة تبحث عنك.

وظننت انها تمزح معي فلم التفت، وحين وجدتها تطيل النظر إلى الوراء، التفت أنا الآخر، كانت تقف عند الباب الداخلي تنظر الينا بدهشة:

– هيا اسرعي. ان والدك ينتظرك.

قلت ذلك وأنا اجرها من يدها. وعندما اصبحنا في الشارع لم اجد احدا. وكان الثلج لا يزال يتساقط بهدوء. قلت:

– اين هو والدك؟ لعله لم يأت بسبب الثلج:

قالت وهي تجرني راكضة على الثلج:

– انت طيب جداً لانك تصدق بسرعة. ان والدي لا يملك حتى قبراً لكي ازوره. ان لي والدة طيبة، لن تنام قبل ان ارجع إلى البيت. يجب ان أذهب بسرعة ويمكنك ان ترجع إلى هناك.

قلت وانا اعانقها:

– لا. لن ارجع. كل شيء هناك تافه بدونك.

كانت الساحة الحليبية هادئة، والليل ابيض عميقاً تطرز حواشيه ستائر الظلام. وكان الثلج تحت اقدامها هشاً ناعماً، يحمل أثار اقدامنا التي راحت تجر نفسها ببطء.

الباروكة

لم يكن ثمة من يعرف عن حياته الخاصة شيئاً. كان الغموض يحيط به من كل الجهات. وعبثاً كان يحاول أقرب المقربين اليه أن يطلع على جانب ضئيل من عالمه. كان من المستحيل أن يستقبل أحداً في بيته. ولما كانت منزلته كبيرة جداً فقد قال ذات يوم أحد اصدقائه:

– انك يجب ان تضع ثقتك على الاقل بأحد الذين تعتمد عليهم اعتماداً كلياً، لأن هذا الغموض لا جدوى منه مطلقاً.

وكان قهقه بصوت عال.. وكانت تلك القهقهة هي أول وآخر قهقهة في حياته، وهو يقول:

– غموض؟ شيء اسمعه لأول مرة في حياتي.

ثم أضاف بعد سكوت عميق:

– وهل سمعت شيئاً؟.. هل أوحى لك أحدهم بأني سأموت؟

– كلا.. كلا.. ابداً.. ولكن الموت هو المصير الذي ينتظره الكل.

هزّ رأسه بالإيجاب:

– أجل.. أجل.. لقد كان الفراعنة القدماء يفكرون في ذلك كثيراً. وبعد فترة صمت طويلة، طلب من صديقه المخلص أن ينصرف قائلاً له:

– لا تهتم يا صديقي العزيز.. ان الحياة الخاصة مسألة ليست ذات أهمية.. ما قيمة أن يعرف الناس كيف أجلس في المرحاض.. أو كم مرة أقف في اليوم امام المرآة؟

وذات يوم أحس بآلام حادة وصداع في رأسه استعمل الحبوب المسكنة بلا جدوى، فاستدعى طبيبه الخاص. بعد اجراء فحوصات دقيقة بالاشعة والأجهزة الالكترونية. قال الطبيب الخاص بنبرة حزينة:

– ورم في الدماغ يا سيدي. يجب ان نجري لك عملية جراحية في الرأس.

قال بصوت كسير:

– عملية جراحية؟.. ونسبة النجاح؟

– عشرة بالمائة يا سيدي.. وفي حالة عدم اجراء العملية فلابد من الجنون.

– نحم م م.. جنون... اذن فلنفضل العملية.. ولكن انظر.. ان العملية ستتم في جو من السرية

التامة اذا نجحت فكأن شيئاً لم يكن واما اذا فشلت فيعرف الناس بموتي وينتهي كل شيء، ولكن جثتي لا يراها سوى صديقي المخلص تعرفه انت.

قال الطبيب وهو ينحني احتراماً:

– نعم يا سيدي..

ثم غادر الغرفة.

قبل اجراء العملية دخلت عليه ممرضة لحلق رأسه. ابتسم لها قائلا:

– كلا يا آنستي لا داعي لذلك.

وقفت الممرضة مبهوتة. كانت لها عيناها جميلتين وراحت تحدق في ملامحه التي طالما رأتها في الجرائد. وعلى شاشة التلفزيون.

قالت الممرضة مرتبكة:

– ولكن.. يا سيدي..

قال لها مبتسماً..

– ضعي أدواتك جانباً وتقدمي مني.

كانا وحيدين في الغرفة.. مرت افكار غريبة برأس الممرضة الجميلة. وتذكرت انها ذات مرة حين كانت تستمع اليه في التلفزيون فكرت في نفسها بأنها سوف لا تمانع ان تمنحه قبلة اذا طلب منها ذلك، وانها ستخدمه بكل عناية فيما اذا وضعته الظروف على فراش المرض.. واقتربت منه بوجل وهي تجيل نظراتها القلقة بين وجهه الوسيم والارض، كانت تتصور انه سيقوم الان من مكانه ويطوقها بساعديه:

– هيا مدي يدك وامسكي بشعر رأسي أيتها الانسة الوادعة..

في هذه اللحظة تصورت انه قد اصيب بالجنون:

– ولكن.. لماذا يا سيدي؟

– هيا نفذي ما أقوله لك.

مدت يدها ببطء واضعة اناملها الرقيقة على رأسه دون ان تمسك بشعرة. قال غامضاً عينيه:

– آه يا آنيستي.. كم هي رقيقة اناملك.. بعد دقائق سأفقد هذه الاحساسات إلى الابد..

قد تنجح العملية يا سيدي.

–كلا يا آنستي.. انها مسألة دنبلة. والدنبلة لعبة لا يمكن الاعتماد عليها.

كانت لا تصدق انها في حوار مع شخصية معروفة.

طرق الباب.. سحبت يدها بخفة وانسحبت إلى الوراء.

دخل الطبيب وقال مستغرباً:

– اننا ننتظر.. ألم تحلقي رأسه بعد؟

قال:

– أنا منعتها من ذلك.

مدّ يده إلى رأسه ونزع الباروكة والقاها في سلة المهملات.. بهتت الممرضة. واطلق الطبيب صرخة استغراب.

كان رأسه يلمع مثل بيضة مقشورة.. تغير كل شيء فيه بعد نزع الباروكة:

قفز من مكانه بنشاط قائلا:

– هيا انا الآن مستعد لوضع رأسي تحت المقصلة!

***

استدعى الطبيب بناء على توصية الميت صديقه المخلص كانت المفاجأة صاعقة بالنسبة للصديق.

قال الطبيب وهو يفتح الباب.

– أنت الشخص الوحيد الذي يحق له مشاهدة الجثة وبعد ذلك يمكن الاعلان عن الوفاة رسمياً.

كانت الجثة في الغرفة البيضاء قد غطيت بقماش ابيض. تقدم الصديق ببطء ومد يده بحذر ليزيح الغطاء ويلقي نظرة على صاحبه.

سمع الطبيب الواقف وراء الباب صيحة عالية هستيرية تقول:

– كلا.. كلا.. كلا.. ان هذا الميت ليس هو.. لا ليس هو.. هناك جريمة.. هناك مؤامرة.. ان هذا ليس هو..

ضرب الطبيب برفق على كتف الصديق الهائج وقال بصوت هادئ وهو يريه الباروكة:

– لا بل هو يا سيدي.. انه هو بالذات..

ثلاثه غرباء

بعد مرور ثلاثة اسابيع على وجودي في الموقف العام لشرطة برلين الغربية تم تسفيري بالطائرة إلى نورنبرغ. كنت اعرف ماذا يريدون مني، ولذلك قررت في نفسي الاصرار على موقفي مهما كان الثمن. لم اعد اخسر شيئاً. فالسنتان اللتان قضيتهما في مطبخ «تسور كنايبة» في شارع رانكة لم تزيداني الا بؤساً. كنت اشبه بقطة أليفة تنتقل من المطبخ إلى غرفة السكن وبالعكس. تماماً مثل اي حيوان بدون هوية أو ملف شخصي في احد اركان دائرة ما. كنت اضع المبالغ التي استلمها لقاء عملي يومياً على طاولة البار واجرع كؤوس الفودكا والبيرة الجيدة.

لا أذكر شيئاً ذا أهمية من السنتين. لقد كانت كلها ايام وليال متشابهة تتكرر دون اي تغيّر. اجر قدمي يومياً من «فوكر شتراسة» في الساعة الخامسة مساء إلى «تسور كنايبة». وفي الطريق قبل ان انعطف إلى شارع «رانكة» كنت ارى يومياً عاهرة شقراء مرحة تقرأ باستمرار مجلة «دير شبيكل» (المرآة) ونادراً ما كانت تترك شرفتها. لقد تحول مروري الاعتيادي بها إلى نوع من الصداقة الصامتة بيننا إلى ان اصبح تبادل تحية المساء شيئاً طبيعياً.

وفي «تسور كنايبة» كانت سوزانا مونيكا وهلد كارت حلقات وصل بيني وبين الزبائن. ان العاملين في المطاعم يحاولون كسب رضا الطباخ عادة والسبب معروف للجميع. كانت سوزانا التي اسماها احد اصدقائي الذين كانوا يزورونني في مكان عملي – الاسبانية، حين تريد تلبية طلب زبون ذي كرش، تقول لي:

– هيا محمد ابصق في المقلاه واكسر فيها بيضتين ان الخنزير لا يريد ان يتناول عشاءه هذا اليوم في بيته.

كانت الاسبانية جميلة وذات جسم متناسق رشيق. كانت لطيفة معي. دعوتها ذات يوم مشمس إلى حديقة الحيوان وهناك شربنا القهوة واكلنا السجق الفيني. كانت شاردة دوماً واشعرتها باني جاد في علاقتي معها. وبعد اسبوع من صداقتي معها علمت انها مدمنة على الحشيش وتمارس السحاق مع صديقة تسكن معها. وفي تلك الليلة شربت زجاجة كاملة من الفودكا الروسية. وفي اليوم الثاني قاطعتها وبعد اسبوع انتقلت هي إلى مطعم آخر.

وكان ازعج شيء بالنسبة لي هو معاملة عازف البيانولي «هيرشرام» كان يتعشى يومياً ثلاث بيضات مقلية مع لحم الخنزير المقدد وفي كل مرة يطلب مني عشاؤه المعتاد يقول بصوت عال مؤشراً بثلاثة أصابع:

- دراي اية مت شنكن (ثلاث بيضات مع لحم مقدد) وكان يعرف جيداً بانه إذا لم يعزف لي سوناتا رقم ٦ لبيتهوفين فان عشاءه سيتأخر اكثر من ساعة فيقول بصوته العالي وبلهجة مكسرة مقلداً بها الاجانب.

- رقم ٦ بعد العشاء.

كان لا يسكر ولكنه كان يفي بوعده.

كنت اعمل حتى الثانية بعد منتصف الليل، اذ ذاك يأتي صاحب المطعم «هيرتسلكة» كان نادرا ما ينام في بيته. وكان ثمة عداء بينه وبين زوجته كان يدعوني إلى البار ونسكر معاً حتى الرابعة كنا نناقش كثيراً. وكانت أمريكا حلمه الذهبي.

هكذا مضت السنتان.

وصلت نورنبرغ حوالي الحادية عشرة صباحاً واقتدت إلى السجن نورنبرغ عندما اجتزت البوابة الضخمة.

تحسست في اعماقي شعور من مات ذات مرة وعاد إلى الحياة من جديد لا أدري ما الذي جعلني افكر هكذا وتراءت لي صورة الافران التي سبق أن رأيتها ذات مرة في «بوخن فالت» قرب مدينة فايمار عند زيارتي لأحد الاصدقاء هناك - كنت اشعر باني اتنفس دخان آلاف الجثث التي احترقت في تلك الافران. كنت اسمع في اعماقي وقع اقدام الجنرالات الذين حوكموا هنا مع وقف التنفيذ قبل ربع قرن. ترى هل انتهت المحاكمات؟ واين صار اولئك؟ ولماذا آتي انا إلى هنا؟

نحن الآن ثلاثة داخل غرفة انفرادية. جيمي من نيجريا وصلاح الدين من تركيا وانا من العراق. الجدران قديمة تفوح منها رائحة بوخن قلت: كم من الرجال سجنوا هنا ثم اقتيدوا إلى الموت، لانهم قالوا لهتلر، لا!

ومازلنا بعد غرباء عن بعضنا. نظرات النايجيري توحي بالشك والريبة من كل شيء. واما التركي فكانت نظراته ساذجة لا أبالية.

بعد ان اغلق السجان الباب من ورائي، تقدم مني النايجيري وقال بشيء من اللامبالاة:

- ما أسمك؟

قلت بحدة:

- محمد.

وانت؟

- جيمي.

ثم التفت إلى التركي وقلت له:

- وأنت؟

- صلاح الدين يلدز.

قال النايجيري:

هل عندك تبغ؟

- لا.. لم ادخن منذ اسبوع.. اكاد اجن.

- واما انا فقد جننت.

قال التركي:

- ما العمل؟

قلت:

- اما من وسيلة للحصول على التبغ؟

قال جيمي:

- يجب ان نفكر.. يجب ان نفكر.. لابد ان احصل غداً على التبغ والا سأقلب الدنيا.

كان عرض الغرفة لا يتجاوز طول السرير، وكان السريران فوق بعضهما نهاية الغرفة يقابلان الباب.

صلاح الدين ينام تحت وانا فوق. واما النايجيري فينام على سرير مستقل يحاذي الجدار، يمكن قلبه والصاقة على الجدار حتى يتسنى المجال للحركة وفي الجهة المقابلة له ثمة منضدة متحركة ايضا ثبتت بحلقتين على الجدار مع كرسي من نفس النوع.

كانت المنضدة قد تحولت إلى سواد يحمل اوساخ نصف قرن. وكان ثمة مرحاض غربي قرب الباب.

دعاني جيمي للجلوس إلى جانبه. قال باهتمام:

- ما هي قصتك؟

قلت:

- يريدون ان اقدم تصريحات في التلفزيون يملونها هم عليٍَ ضد بلادي. ان نسبة الكحول في دمي كانت دوما ١٠٠٪ كنت لا أمارس السياسة ولكني لم انس بلادي لحظة واحدة.

قال هازاً رأسه:

– انت اذن من الذين يؤمنون بالوطن.. واما انا فأومن مع الأسف بالتهريب والحشيش.

– وانتما ما هي قصتكما؟

التفت جيمي إلى التركي، وكان هذا متمددا في مكانه.

– هيا اعلن عن فضيحتك.

اعتدل صلاح الدين في جلسته وقال بلغة المانية مكسرة وهو يبتسم:

– العاهرة قد امتنعت. كنت اعتقد أن كل شيء قد انتهى، ولكنها بقيت مصرة. حين يقول الألماني (لا) معنى ذلك (لا). ولعل معاملتي لها كانت خشنة. كنت بعد أن دعوتها إلى الشرب جاءت معي بدون تردد. كانت قد تجاوزت الخمسين، إلا أنها مع ذلك كانت جذابة. شربنا زجاجتين شمبانيا وخمس زجاجات بيرة مع أربعة كؤوس فودكا. كانت العاهرة لا ترتوي من الشرب. تركنا البار في الواحدة بعد منتصف الليل. كانت رغبتي قوية جداً. كنت اعانقها كما لو أنها ملكي. كانت تشعر هي أيضاً بالرضى. عرفت أنها أرملة وان زوجها قد قتل في الحرب، وكان لا يبدو عليها انها عاهرة. حين بلغنا شقتي هجمت عليها مثل ثور هائج وأنا احاول تعريتها من كل شيء كنت لا أتصور أنها قوية إلى هذه الدرجة. ضربتني على وجهي وأدمته. وقبل أن تتخلص من يدي ضربتها بعنف.

التفت اليه جيمي وقال ساخراً:

– وحش.. كيف ترغمها على المضاجعة.. ربما أنها كانت ترغب، ولكن العادة كانت عائقاً.

قال صلاح الدين كالواثق من نفسه:

– لا يا عزيزي الاسود انها تجاوزت هذا السن، واضاف متنهداً:

– لقد كان جسمها رائعاً..

وساد الصمت لبرهة.. قلت موجهاً كلامي إلى جيمي:

– وأنت؟

أجاب هازاً رأسه:

– مسألة حقيرة أيضاً مثل قصة هذا الخنزير.. مهنتي هي تزويد الجيش الأمريكي بالحشيش. لقد تم القبض عليّ أخيراً مع ستة جنود أمريكيين ونحن ننقل بسيارتنا عشرين كيلوغراماً من الحشيش في الطريق من ميونيخ إلى نورنبرغ لقد صودرت السيارة والحشيش. الجنود الامريكيون يسكنون في غرفة مجاورة لنا. ليذهبوا إلى الجحيم. ولكن الاوغاد لا ينقصهم التبغ. سوف أحصل منهم غدا على التبغ بأي وسيلة كانت.

في اليوم الثاني خرجنا في الساعة الثامنة صباحاً الى الساحة. وبعد انتهاء الفترة التي استغرقت ثلاثين دقيقة رجعنا إلى غرفتنا. كان خلال الفترة كلها قد اختفى جيمي عن الانظار. وعندما رجعنا إلى غرفتنا القى بثلاثة أكياس على المنضدة. كان كل كيس يحتوي على خمسين غراماً من التبغ. ورحنا نلف وندخن بلهفة.

وفي اليوم الآخر حصل صلاح الدين على عشرة ماركات من أصدقائه. وعندما جاء موعد فتح الحانوت بعد أسبوع من ذلك، اشترى كيسين من التبغ مع كيلو تفاح وحامض حلو.. قال بعد وضعها على المنضدة:

– ان من لا يعمل لا يستحق له ان يأكل أو يدخن.

علمت انه بكلامه هذا انما يستفزني أنا بالذات إذ إننا دخلنا اليلة الماضية في نقاش طويل امتد إلى ساعة متأخرة من الليل واعتبر آرائي تدخلا في شؤون بلاده التي تركها منذ عشرين عاماً. ولكن جيمي أعتقد أنه يعنيه هو، فبقى لمدة يومين لا يتكلم، الا أن الغضب كان يأكله من الداخل.

وذات يوم تعرفت في فترة الاستراحة على شاب فلسطيني أعطاني خمسين ماركاً فأشتريت كمية كبيرة من الدخان وعدة علب دي موريه القيت بها على سرير جيمي قائلاً:

– هاك اشبع من الدخان..

وتغيرت أساريره وهو يجيل نظراته الحادة بيني وبين صلاح الدين. وبعد أن قدمت لكل منهما سيكارة صعدت على سريري وتمددت في مكاني نافثاً الدخان.

مضى ذلك النهار دون أن يتكلم أي واحد منا. كنت حيناً أقلب مجلة مصورة وآخر أحدق في السقف. أتذكر العاهرة التي لم أفكر ذات مرة في مضاجعتها وكانت صورة سوزانا تقفز إلى مخيلتي بين حين وآخر بجسمها الممتلئ المتناسق. كانت هي صورة المرأة التي ابحث عنها في داخلي. كان ينبغي عليّ أن أغير مجرى حياتها، ربما اني كنت استطيع أن أؤثر فيها. ولعلها كانت تستطيع أن تسعدني. وأما العجوز توني راقصة السيرك القديمة فكانت قد تحولت إلى أم حقيقية لي. كنت حين أعود إلى غرفتي في شقتها تستقبلني بوجهها المتضغن فرحة وهي تقدم لي القهوة وتسأل عن صحتي. كانت في الخامسة والثمانين من عمرها. ربما لن التقي بها مرة أخرى، لا بتوني ولا بسوزانا ولا بالعاهرة من يعرف شيئاً عن الغد؟

وفي تلك الليلة حلمت بأفران بوخن فالت البشرية والجنرالات الألمان النازيين وبأكوام من أحذية الاطفال الميتين. ورأيت نفسي أتجول في برلين الغربية أمام الكنيسة المهدمة وحيداً. وكانت الشوارع خالية وقد تحولت إلى خرائب. وفي زاوية مظلمة القى صليب معقوف ضخم على الارض. ومن بين الانقاض ظهر هيرشرام بوجه غريب وهو يمد يده مؤشراً بثلاثة أصابع يكاد

يفقأ بها عيني قائلا بصوت هامس كأنه صادر من ميت:

- «دراي أيه مت شنكن».

قلت له بصوت هامس ايضا:

- «سوناتا نومر سيكس هيرشرام».

وفتحت عيني على صوت ضربات قوية على الجدار كانت الساعة السادسة صباحاً. كان جيمي شبه عارياً يقف على سريره ويضرب الجدار بقبضتيه ورأسه. كان في حالة هستيرية يرثى لها ثم نزل من السرير واتجه نحو الباب وراح يضربه برأسه ويديه ورجليه. كان يطلق صرخات مرعبة عالية. تركت فراشي واشعلت له سيكارة آخذا بيده:

- جيمي.. اجلس في مكانك أرجوك.. ما بك؟

قال بشدة:

لا.. لن أدخن سيجارتكم..

- جيمي ارجوك.. هل أنت مجنون؟

جلس في مكانه آخذا مني السيكارة وراح ينفث الدخان بجنون. وصعدت إلى فراشي. كان صلاح الدين يتململ في مكانه وقد غطى رأسه.

بعد فترة صمت قصيرة، قال جيمي:

- انت ايها العراقي.. تعال هنا ارجوك.

وقفزت من فراشي متخذاً مكاني بجانبه. ثم التفت إلى صلاح الدين وهو يهزه من كتفه قائلاً:

هيا استيقظ يا سيد يلدز.

والقى صلاح الدين غطاءه جانباً وجلس في مكانه.

- الآن أريد ان اعرف الحقيقة. اني سأجن.

قال ذلك جيمي، ثم أخرج مديتين و وضعهما على المنضدة. وأضاف:

- سوف احسم اليوم كل شيء.. لم أنم طيلة الليلة الماضية.

قلت له باستغراب:

- ما بك يا جيمي.. هل حدث شيء؟

قال بانفعال:

- اريد الآن أن نتواجه بصراحة.. امس عندما ذهبت أنت للشراء اخبرني هذا الجالس أمامك

بأنك قد تهجمت عليَ وقلت، ينبغي أن نقاطع هذا الزنجي القذر وبأنك لن تسمح لي أن أدخن من تبغك وسيجايرك وشتمت أميركا.. والآن لتذهب أميركا إلى الجحيم – والتفت إلى صلاح الدين – أنا أريد منك الآن أن تؤكد كلامك وجهاً لوجه.

ارتبك صلاح الدين واصفر وجهه.

– هيا تكلم يا سيد صلاح الدين هيا..

وعلم صلاح الدين أنه إذا نطق بحرف بأن العاقبة ستكون وخيمة. وتناول جيمي المديتين ومدّ له احداها قائلاً:

– هيا لنتشاجر.. اثبت شجاعتك.. هيا تكلم..

وعندما فتح الباب جالباً لنا فطور الصباح هدأ جيمي بعض الشيء وبعد الانتهاء من الأكل أشعلت له سيجارة ورجوته ان ينسى كل شيء وإلا فان حياتنا ستتحول إلى جحيم. واعتذر صلاح الدين لتصرفه الذي اعتبره مجرد حماقة لا يعرف سببها وتمدد في مكانه.

وأسندت ظهري على الجدار إلى جانب جيمي. وبعد مرور فترة صمت غير قصيرة التفت إليّ بغتة قائلا كمن تذكر شيئاً:

– تصور، اليست هذه صلافة؟. يتلف تبغك أمامك ويتكلم ضدك من وراء ظهرك. لقد مضى عليّ أكثر من عشر سنوات وأنا أعمل في تهريب الحشيش. أختلط بمختلف أنواع الناس من عاهرات، قوادين، قتلة وسياسين مدمنين على الحشيش وزرت السجون أكثر من عشرين مرة،... أطفأ سيجارته قائلاً:

– لحظة رجاءً...

وهنا فكَّ حزامه وانزل بنطلونه ولباسه الداخلي إلى الكبة وجلس على المرحاض وتابع:

– أجل لقد زرت السجون أكثر من عشرين مرة. ولكني لم أصادف شيئاً من هذا القبيل (بعد أن أطلق صوتاً مكتوماً راح يضغط بقوة):

– تصور إنه أعتبرك من أحد المساهمين في حادث ميونيخ وكأن المسألة تهمني.. ثم ماذا؟

قام من مكانه وهو يمسح مؤخرته بقطعة ورق:

– على كل حال اعذروني. ان أعصابي غير طبيعية.. لتعد الأمور إلى مجراها الطبيعي.. ليس ثمة مجال هنا للمخاصمات فاننا إخوان..

قلت:

– لابد من مشاكل يا جيمي، وإلا فان حياتنا ستكون مملة هنا..

أحياناً تمر الساعات بسرعة. وأخرى ببطء.. بعد أسبوعين ستنتهي مدة الحكم الصادر على صلاح الدين فيسفر إلى بلده وجيمي ينتظر أن يدخلوه مستشفى الامراض العقلية بغية إحالته إلى المحاكمة بعد شفائه وأما أنا فقد قرّروا تسفيري إلى وطني، ولكني لا أدري ماذا ينتظرون.

عندما أبلغني السجان بالتهيئة للسفر عانقني جيمي طويلاً وهو يقول:

– حين نلتقي مرة أخرى سنسافر معاً إلى نيجيريا واعتذر صلاح الدين مرة أخرى ونحن نقبل بعضنا على الطريقة الشرقية.

حين ارتفعت الطائرة متوجهة إلى بغداد، كانت نورنبرغ قد اختفت تحت طبقات الغيوم الحليبية الكثيفة.

العاهرة والأعور ومختار القرية

والوجه الثاني من الحقيقة

كانت عيناه مشدودتين دوماً إلى هناك..

كوخ خلف الساقية، اغتصبه رجل غريب أعور منذ زمن غير قصير، لا أحد يستطيع عبور الساقية اليه. كان كل شيء عن حياته غامضاً بالنسبة إلى أهل القرية. وكان مختار القرية يفكر دوماً في أسهل طريقة يخرج بها هذا الرجل الغريب الذي اعتاد قتل كل من يعبر الساقية وكان حائرا بين شيئين: شباب القرية الذين يريدون طرد الغريب بالقوة، وعاهرة القرية التي يحتاجها، والتي تريد الهدوء وعدم رؤية الدماء.

كانت القرية في حيرة من أمر هذا الاعور الذي تنسج الاساطير حول قوته الخارقة، واستحالة التغلب عليه.

جاء ثلاثة رجال ملثمين، يتنكبون البنادق الاوتوماتيكية. قالوا بصوت واحد:

– لقد قررنا أن نعبر الساقية.

قال المختار بهدوء، متظاهراً بإمتلاك القوة القاهرة:

– اهدأوا.. إننا سنطرد هذا الغريب ونعيد الكوخ إلى صاحبه الشرعي.

صرخ الأول: ولكن متى متى؟

قال الآخران بحدة: سواء أوافقت أم لم توافق، فإننا قد عزمنا على عبور الساقية.

قال المختار راضخاً للأمر الواقع:

– ولكن كيف نعبر الساقية.. كيف؟

قال ذلك وهو يفكر بالعاهرة التي يحبها بجنون..

قال الأول: الا يمكننا بناء قنطرة بجذع شجرة أو أي شيء آخر في الظلام.

قال الثاني: فكرة رائعة.. هناك انبوب حديدي يعود للشركة التي جاءت لحفر بئر ارتوازي في القرية.

قال المختار:

– أتفقنا.. سنلتقي عند هبوط الظلام.

أنصرف الثلاثة إلى إلى بيوتهم. وذهب هو إلى العاهرة. وعندما كان يحدثها عن الخطة كانت هي ساكتة لا تنبس ببنت شفة.. كانت تفكر بعشيقها وراء الساقية وبالهدية الثمينة التي ستكافأ بها اليوم. ومنحته جسدها بشكل لم يسبق له مثيل.

كان الظلام قد هبط على القرية، وكان الرجال يمدون الانبوب بصمت على الساقية.

كانت دهشتهم كبيرة جداً حين سمعوا الرجل الغريب وهو يصيح:

– انتم هناك.. ماذا تفعلون؟

قال الكل بصوت واحد:

– نريد أن تترك الكوخ وتغادر القرية قبل أن نحطم رأسك..

قال بصوت غاضب:

– أي واحد منكم يعبر القنطرة سيلقى حتفه.

قال الأول: اني الآن قادم اليك.

وراح يعبر القنطرة بخطوات حذرة.

دوّت اطلاقة وأصابت رأسه. ثم دوّت اطلاقة ثانية، اصابت الرجل الثاني. تمدد الرجل الثالث والمختار وراء جدار مهدم.

قال الثالث للمختار: هل التقيت اليوم بالعاهرة؟

– لا.. لا.. ابداً.. ابداً..

– يا إلهي اني أكاد اجن!

قال المختار: لابد أن يساند هذا الرجل.

قال الرجل من وراء الكوخ:

– هل ثمة من يريد أن يتقدم:

وخرج رجال ونساء وشيوخ القرية على صوت الاطلاقات. قال أحدهم وقد انحنى على الجثة:

– هذا أخي..

وأخذ بندقيته.

وقال آخر:

– وهذا ابن عمتي..

وأخذ بندقيته.

هجم الاثنان ببندقيتهما والآخرون بالعصي والهراوات والتحق بالجمع رجال مسلحون بالبنادق والمسدسات. وعبر الجميع الساقية إلى الجهة الثانية.

وقف الرجل الثالث والمختار في مكانيهما. وكان الرجل الغريب يطلق الرصاص بجنون وعشوائية. وفكر المختار أن العاقبة ستكون وخيمة. وان هذا الرجل الذي طرد أقوى واشرف رجل في القرية ليحتل بيته رغم أنف كل شيء، انما له امكانية التغلب عليه هو ايضاً.. وراح يصيح بهستيرية ودون ارادة منه بالكف عن اطلاق النار. واعتقد الجميع ان الرجل الغريب قد لقى حتفه. خيم السكون. وفي الظلام كانت تسمع اصوات مختلفة:

– لقد قتلناه.

– لا.. إننا لم نصبه.

هيا لنعيد الكرة.

قال المختار بصوت مرتجف:

– انه يبيت لنا خطة مميتة انه يريد ان يبيدنا جميعاً.

وفي الوقت الذي انتشر الهلع في النفوس ظهرت العاهرة مثل الشبح في الظلام وهي تولول وتمزق ثيابها، كاشفة عن نهديها وساقيها.

– لقد خسر أحسن شباب القرية. عودوا إلى بيوتكم قبل أن يبيدكم هذا المسعور وانتم يا من عبرتم الساقية عودوا بسرعة قبل أن يفوت الاوان.

وحين سكتت العاهرة، اطبق الصمت على كل شيء. وفي الظلام كانوا يجمعون الجثث وكانت مشاعر المختار قد تبلدت، إلا أنه شعر باحاسيس كامنة أخرى تتحرك في دمائه، إذ أن ضوء القمر الفضي الذي بزغ من وراء أكواخ القرية، راح يعطي جسد العاهرة المطل من الثوب الممزق شكلا منيرا جديدا.

– غداً.. غداً.. سوف أذهب اليه بنفسي.. فيكن ما يكون.. إن له أيضاً الحق في أن يعيش كالآخرين.

وكانت العاهرة تفكر بالثمن لهذه المفاجأة الجديدة.

بانتظار النجوم

الشمس متوهجة، حارة، تطل السماء مغطية كل شيء بأمواج النار. الرمال تنبسط، تمتد وتتلاشى في الافق ملتقية بحواشي السماء التي تحولت إلى زرقة قاتمة، محروقة تميل إلى لون الرماد الغارق في الضباب.

جدران الحديد المحيطة بهم تصقل الحرارة من جديد لترسلها عبر جلدهم المحترق العاري. انهم اربعة رجال، الاول امام المقود وعيناه مشدودتان إلى الافق البعيد عبر كوة مستطيلة، الثاني جالس خلفه بشرود يفتح في فترات متباعدة الغطاء المدور من فوق وينظر حواليه بحذر ثم سرعان ما يسده ويعود شروده. ولا يعلم احد ما إذا كان الثالث نائماً ام انه فاقد الوعي وأما الرابع فمتحجر في مكانه مثل تمثال محفور في جبل.

يخرق الأول الصمت قائلاً: «اني لا أتحمل اكثر من هذا لقد مضت خمس ساعات ونحن لا نحرك ساكناً. إلى متى نبقى هنا؟»

الثاني: ان اقل حركة تبهدنا فوراً.

الاول: ولكن النتيجة.. إلى متى..

الثاني: سننتظر..

الاول: قل الى متى.. وهل تعتقد ان الرحمة ستصلنا من السماء؟

الثاني: ربما وصلتنا الاوامر.

الاول: انت تعيش في الخيال. اننا مطوقون من كل الجهات. نحن ننتظر الموت..

الثاني: يصيح بانفعال، وماذا تريدنا ان نفعل؟.. هل نستسلم؟

الاول: ولماذا تفسر كلامي هكذا؟ اقذف بالبقية الباقية من اطلاقات المدافع. لنبيد ما نستطيع ابادته. وبعد ذلك لنذهب إلى الجحيم ولتقصفنا الطائرات كيفما تشاء.

الثاني: انهم لن يقصفونا سوف يمسكونا احياء..

الاول: سننتحر.. سنضرب حتى يبيدونا..

ويسكت الثاني هازاً رأسه ثم يلتفت إلى الرابع المتحجر في مكانه قائلا:

- سيدي.. هل هناك أوامر؟

وينتهد هذا بعمق هازاً رأسه بالنفي دون ان يتكلم.

الاول: بانفعال، لنهاجم وننتهي. اني لا أطيق اكثر من هذا ويلتفت إلى الثاني مضيفاً:

– هيا اقذف بالبقية ولنرتاح.

ويلتفت الثاني إلى الرابع منتظراً منه الاوامر. ويفهم من عينيه اللتين تحدقان كأعين الموتى انه لا جديد.

الاول: وهو يمسك المقود، اني ساتحرك الآن ولا يهمني ما يحدث بعد ذلك.

الرابع: يقفز من مكانه بعد تحجر طويل قائلاً بغضب:

– انا الذي يعطي الاوامر هنا.

الاول: اعط اذن اوامرك يكفينا هذا العذاب..

قال الرابع بصوت جامد: سننتظر إلى ان يخيم الظلام وننسحب في ضوء النجوم. لا تكن احمقا. يكفينا ما فعله بنا العدو..

ودمدم الاول مع نفسه: يجب ننتظر ست ساعات اخرى اذن.

– بالضبط.

وكان الثالث لا يسمع شيئاً عما يدور. كان يحلم بسواحل البحر الابيض المتوسط والاسكندرية ويقدح من الماء البارد.

وفي السماء البعيدة كانت تحلق طائرة، وهي تارة تدور حول نقطة موهومة واخرى تقترب من الارض ثم ترتفع فجأة وبسرعة فائقة محدثة دوياً هائلا. وعندما كانت تعيد دورانها حول النقطة الموهومة في الاعالي كانت تشبه صقرا يبحث عن جثة نتنة.

مؤامرة صغيرة

هناك تحرك في قرية رحيم بعد أن كانت هادئة وبعيدة عن المشاغبات. لقد اصبح محمود مختار القرية. ومحمود هذا هو في الأساس لا ينتمي إلى هذه القرية وليست له حتى قطعة أرض. لقد نزح اليها قبل أعوام. ولا أحد يدري كيف كان يعيش، ألا انه يعرف القراءة والكتابة ومع ذلك فأصله مجهول. «هم نزل وهم يدبك».. وأما المختار القديم الذي ظل يحمل الختم منذ عشرين عاماً فقد نبذه الفلاحون ولم يعد يستطيع العيش بينهم، فانتقل إلى القرية التي يسكن فيها رئيس العشيرة مع مجموعة من أغواته الصغار الذين لا يطيقون العيش في قراهم مع الفلاحين. وشعر المختار القديم بالزهو في القرية الجديدة وهو في حماية رئيس العشيرة وله حق المشاركة في مجالس الأغوات وتناول الطعام معهم. بيد أن المشكلة هي من الذي سيقوم بالاشراف على الحصاد وختم أكوام الحنطة وجمع حصة الرئيس.

وحاول رئيس العشيرة أن يوطد علاقته بمحمود وطلب اليه ان يكون وكيله في القرية وتعهد أن يعطيه أحسن قطعة أرض ويحرثها له بالتراكتور بدون مقابل. قال محمود باصرار:

– لقد قدمنا طلباً إلى الاصلاح الزراعي بالاستيلاء على أراضيك ولن تحصل على حبة واحدة من القمح إلى ان يأتينا الجواب والجواب ليس من صالحك في كل الاحوال ويمكنك أن تبحث عن غيري وإذا وجدت من سيكون وكيلك بالقرية فاني سأكون أول المهنئين.

وافترقا دون أن يقول الرئيس كلمة واحدة. قال في مجلسه وهو يفرغ قدح الشاي في جوفه:

– سأستغني عن قرية رحيم. لتلتحق بالقرى الأخرى التي صادرها الاصلاح الزراعي. ولكني سأعرف شغلي.

وعندما فرغ المجلس حوالي العاشرة مساءاً إختلى بأحد رجاله. سلمه بندقية صيد قائلاً:

أنت الوحيد الذي اعتمد عليه.. هذه لك. انها جديدة لم اطلق بها أكثر من خمس خراطيش.

– والسادس؟ يستقر في صدر من؟

– في صدر محمود، هذا النذل الدخيل على العشيرة، لكن ليس الآن. بعد أشهر.. ولابد لنا أن نخلق سبباً لمقتله.. حادث شرف مثلا..

فلامرز

– سوف ابيدهم جميعاً. سأذبح حتى كلاب بيتهم.

وقال فلامرز متنهداً وهو ينفث الدخان من لفافته ويسلم زمام الحصان لزوجته:

– لا يا ابني لا تفكر في القتل. أطلق رصاصة واحدة فقط على رجل اخيهم الاكبر. اترك اثراً فحسب. أريد ان اراه يعرج.

قال الابن بانفعال:

– انت الذي تهاب المنطقة كلها منك. يجتمعون عليك في سوق المدينة ويشبعونك ضرباً واهانة ثم ينصرفون ببساطة وانت لا تفتح النار عليهم لماذا تحمل مسدساً؟ قل لي لماذا اصبحت جباناً في آخر عمرك؟ ماذا حل بك؟ سوف ابيدهم جميعا وسترى..

قهقة فلامرز بصوت عال قائلا:

– لا يا ابني. انا حين بكيت امامك فليس من اجل ان استدر عطفك لقد مضى ذلك الزمان وانتهى، يكفي ما تحملناه من المآسي من وراء اللعب بالمسدس، والآن عرفت ان الانسان شيء آخر.. شيء ليس للقتل.. لا أريدك ان تكون مثلما كنت عليه في شبابي لا أريد ان تضربه حتى في رجله، لقد قلت منفعلا حين قلت ذلك، اذهب إلى دراستك وكأن شيئا لم يحدث.

انصرف الابن غاضبا وهو يقول لأمه عند الباب: لن انسى دموع والدي.. قالت الام موجهة كلامها إلى زوجها وهي تبكي:

– مشاكلك لا تنتهي، انت ستدفع الاولاد كلهم إلى الموت.

قال بصوت هادىء: ثقي يا امرأة ان الناس هم الذين لا يتركوني وشأني انا أريد ان أعيش بسلام.

لم يعد الأبن مساءً لعله ذهب إلى بيت خاله في المدينة. وفي اليوم الثاني لم يعد ايضا، وحين وصلت سيارة القرية مساء كان الناس يتحدثون عن مقتل الرجل الذي اهان فلامرز. وكانوا يؤكدون ان ابنه قد قتله في نفس المكان وتوارى عن الانظار دون ان تستطيع الشرطة القبض عليه.

قالت الزوجة وهي ترتعش من الخوف:

– يجب ان تتوارى عن الانظار يا رجل. والاولاد يجب ان لا يذهبوا إلى المدينة.

قال فلامرز: لقد اصبح الموت مهنتنا. انها غلطتي.

كنت لا أريد ذلك، انهم سيقتلون واحدا من عائلتنا ولا يجوز ان تختفي العائلة كلها.

فك حزامه والقي بالمسدس جانباً وهو يقول:

– لن تمتد يدي بعد الآن إلى المسدس وإذا فعلت ذلك فأنا نذل.

قالت الزوجة: ولكنهم سيقتلون.

– اعرف ذلك، ولكن وصيتي أن لا يواصل الاولاد الانتقام وإذا خالفوا وصيتي فأنا بريئ منهم، هل سمعت؟.

ولأول مرة يخرج فلامرز من البيت بدون مسدس.

قفز إلى ظهر الحصان قائلا لزوجته:

– انا ذاهب لرؤية ابني.

وغاب عن البيت ثلاثة اشهر..

وذات مساء استقبلته القرية بصمت. كانت جثته قد حشيت بصلية من بندقية اوتوماتيكية.

وكان الناس يعتقدون ان الشخص الذي سيقتل فلامرز لم يولد بعد.

حلم

كانت البحيرة زرقاء عميقة تحاذي جبلا صخرياً عالياً يرتفع بشكل عمودي. وكعادته اخرج الصنارة والقاها في البحيرة. وما لبث ان بدأ الخيط بالاهتزاز. كان فيما مضى يسحب الخيط بقوة فينقطع ويتألم لذلك. وراح يسحب الخيط هذه المرة بهدوء ودون انفعال. كان الخيط ثقيلا وكانت نشوة اللذة تخدر كيانه. وخرجت من الماء سمكة ذهبية جميلة بطول قدم تخفق في الهواء برشاقة.

وضع السمكة جانباً والقى بالصنارة مرة ثانية في البحيرة. بعد هنيهة اهتز الخيط من جديد وسحبه برفق ولكن قبل ان تظهر السمكة انقطع الخيط. وداهمه حزن عميق للسمكة التي فقدها. ومن شدة الحزن استيقظ من الحلم. لم يستطع ان يواصل النوم.. وفكر.. في كل مرة يحلم فيها بصيد السمك يتعرف على فتاة جديدة ولكن ماذا يعني انقطاع الخيط؟

واصل التفكير.. تُرى هل هذه هي السمكة الاخيرة؟ ومن تكون؟ ربما هو نفسه السمكة هذه المرة؟

اكتشاف

مده بصره باستطلاع إلى هامات الزهور التي تمتد في صف طويل متناسق ذكره بالمقاعد الدراسية التي تركها وهو في العاشرة من عمره. وفكر بألم «لو لم يرغمني الفقر لترك المدرسة لكنت الآن امام رحلات حقيقة»، وسرعان ما نسى تفكيره، وراح يحدق في الأزهار الملونة الجميلة.

منذ اكثر من شهرين وهو يعمل في هذه الحديقة التابعة للبلدية. وشعر انه منذ تركه العمل في حدائق البيوت ازداد حبه للعمل.

كانت رغبة عارمة غريبة تدفعه لإحتضان هذه الازهار الملونة دفعة واحدة. كانت الالوان الزاهية التي تعمقها اشعة الشمس والروائح الزكية تشعره كما لو انه يسبح في فضاء من النشوة وراح يلامس بأنامله الخشنة كل زهرة ويشمها ثم يلامس الاوراق فالساق ثم ينحني ليغطي بالتربة الجذور التي عرتها المياه.

وفيما هو ينتقل بين الازهار، يتفحصها واحدة اثر الاخرى.. وقف بغتة في مكانه وعلامات الدهشة مرتسمة على وجهه.

– ما هذه يا الهي؟.

قال ذلك بصوت مسموع.

انه يعرف كل انواع الزهور والورود سواء كانت محلية ام عالمية. ففي حدائق الاغنياء الذين كانوا يتبارون بحدائقهم تعرف على كل أصناف الزهور.. والآن.. في هذه اللحظة بالذات يقف حائرا مبهوتا امام زهرة جديدة لم يجد لها مثيلا من قبل زهرة منزوية في احدى الزوايا تطل في نفس الوقت على كل الازهار.

واقترب من الزهرة، كان لونها وردياً شفافاً وكلما اقترب منها تغير واتخذ اشكالا جديدة وحين كان يبتعد عنها تتخذ شكلا ولونا اخرين ترى.. اين كانت هذه الزهرة ولماذا لم يكتشفها من قبل؟ وحين عاد إلى البيت كان طيلة الطريق الطويل يفكر بها ومن كثرة الشرود نسي ان يتعشى. انه ينسى طعام العشاء لأول مرة في حياته. وعندما استسلم للنوم حلم بها. كانت الزهرة تتكلم معه وتبتسم وتقوم بحركات راقصة جميلة.

«اعتن بكل الازهار من اجلي.. إذا قطفتني فستنبت في مكاني زهرة اخرى.. انا لا انتهي».

وعندما استيقظ من النوم قال في نفسه:

ترى كم زهرة مثل هذه لم تكتشف بعد؟..

سر غياب حمه جان

كنت إذ ذاك أقوم بمهمة تأمين الأرزاق لقاعدة أنصارنا في قرية "ق" التي كانت تبعد عن القرية التي أسكن فيها حوالي ست ساعات مشيا. وكانت هذه تبعد بدورها عن الطريق العام الذي يربط كركوك ببغداد، والذي يشكل الحدود بين المناطق المحررة والحكومية حوالي الساعتين مشيا. ولذلك كانت المنطقة، كونها شبه سهلية، معرضة دوما للهجمات العسكرية المباغتة. وكان وضعنا لا يساعدنا على القيام بأي نوع من أنواع المقاومة.

كانت هناك قرية صغيرة تحيطها المرتفعات الصخرية الجرداء من كل الجوانب وقريبة من الطريق العام. وجرت العادة، ولا أدري كيف حدث ذلك، أن تتحول هذه القرية إلى سوق حرة تجد فيها كل شئ. وكان أفراد البيشمه ركه والمهربون من العرب والكورد يسرحون فيها ويمرحون بأسلحتهم والابتسامات تعلو وجوههم. وكان بإمكان الإنسان أن يجد أحيانا أفرادا من الشرطة والجيش المجازين يتبادلون الحديث مع أفراد البيشمه ركة بكل ود واحترام. كانت القرية مسرحا لكل شئ، عدا المنازعات والقتال.

كان علي أن أجهز قاعدتنا في منطقة خورنه وه زان بأعداد كبيرة من الأكواب والصحون والملاعق وكميات من ورق اللف والزبانة والشاي والسكر والتمر ومعجون الطماطة ومواد غذائية أخرى، إذ أن مجموعة جديدة من الأنصار البيشمه ركه كانوا قد التحقوا بالموقع. وبعد الانتهاء من شراء ما نحتاجه، توجهنا ببضائعنا المحمولة على ظهور الحمير إلى قريتي، حيث سنستقبل هناك أحمال القمح والبرغل والرز والبقول، التي تبرع بها فلاحو كرميان لموقعنا في خورنه وه زان. وكان الشخص المسؤول عن عملية قيادة الحمل هو حمه جان، صاحب البيت الذي أسكن فيه.

كانت الساعة تشير إلى التاسعة مساء والظلام يلف كل شئ عندما وصلنا القرية، وكانت وطأة القيظ قد خفت. وعلمنا أن تبرعات الفلاحين قد وصلت قبلنا بقليل. أفرغنا الأحمال في إحدى غرف البيت المخصصة لحفظ التبن، على أن ننقلها إلى القاعدة في الليلة القادمة. وبعد أن تم سقي الحمير وتقديم العلف لها، جلسنا في باحة البيت نستمع إلى الراديو ونأكل البرغل مع الخبز الحار والبصل الأخضر ونرتشف الشاي. وعندما بدأ النعاس يتسلل إلى نفوسنا ببطء، فضل الكل النوم في خارج القرية، تحسبا لهجوم مباغت من جحوش فرسان صلاح الدين. وأما حمه جان وأنا ففضلنا النوم في البيت وعلى السطح، ولكنني قبل أن أذهب إلى الفراش قلت له:

"هل من الصحيح أن ننام في القرية؟"

قال بلهجة صارمة:

"أنت تستطيع أن تنام أينما تريد، أما أنا فسأبقى إلى جانب أموال القاعدة"

قلت باستخفاف ممزوج بالمزاح:

"وهل تعتقد أنك ستنقذ أموال القاعدة، إذا داهمنا الجحوش بأسلحتهم؟"

أجاب بلهجة واثقة:

"سواء استطعت إنقاذها أم لم استطع، فأنا سأنام هنا"

لففت رأسي وأنا اندس في الفراش. وسرعان ما استسلمت للنوم.

أحسست في الصباح الباكر بيد تهز كتفي بقوة. وحين فتحت عيني رأيت زوجة حمه جان وهي تصيح بانفعال:

"هيا اترك القرية بسرعة يا ملا صالح، هيا بسرعة.."

وقفزت من مكاني. كان الشفق الوردي يتهيأ لاستقبال الشمس التي كانت لا تزال تختفي وراء جبل قاجر. وكان خط طويل من السيارات العسكرية المحمولة بالجحوش تتوجه إلى القرية. كان حمه جان يقف بهدوئه المعهود في باحة البيت، يرتشف الشاي ويمضغ ببطء لقمة الخبز. قلت بارتباك:

"ما بالك لا تتحرك؟ ألا ترى السيارات العسكرية؟"

قال بهدوء:

"لا ترتبك، تناول فطورك بهدوء. ما زالت بيننا وبينهم مسافة، تكفي أن تترك خلالها القرية بهدوء. توجه نحو الوادي وأعبر النهر إلى قرية "ن"."

قلت باستغراب:

"وأنت؟ ألا تريد أن تترك القرية؟"

"أنا سآتي فيما بعد، لا عليك مني. سنلتقي هناك في بيت صديقنا الحاج مولود"

قلت بارتباك:

"ولكن.."

قال وهو يتوجه إلى الغرفة التي وضعنا فيها البضائع:

"الآن لا مجال للنقاش، هيا أترك القرية بسرعة"

وبعد دقائق هبطت إلى الوادي مع عدد من شباب القرية المسلحين بأسلحة رديئة. أراد قسم منهم إطلاق النار على السيارات العسكرية، ولكننا حذرناهم بأن ذلك سيعطيهم الحجة لحرق القرية وإبادة سكانها بلا رحمة. وعندما اجتزنا النهر إلى الجانب الثاني، بدأ الأعداء يمطروننا بوابل من الرصاص من فوق الجرف المطل على وادي نهر "آوه سبى"، ولكن عبثا، إذ أننا كنا قد أصبحنا خارج دائرة مرمى بنادقهم.

بقينا طيلة النهار في بيت الحاج مولود بانتظار حمه جان دون جدوى. كان يحز في قلبنا أنه لم يترك القرية معنا. وراح بعضنا يؤكد بقناعة أنهم لا شك القوا عليه القبض أو قتلوه، وتألمنا أن أموال القاعدة قد أصبحت لقمة سائغة لهؤلاء الأوباش. كنا نضرب أخماسا بأسداس حول مصير حمه جان. ومما كان يزيد من قلقنا على مصيره اعتقادنا أنهم القوا عليه القبض مع البضائع. وفي كل الأحوال لا يستطيع إنكار حقيقة عائدية الأموال للبيشمه ركة، وفي هذه الحالة يكون الإعدام هو أقل ما يستحقه.

وغابت الشمس ولف الظلام كل شئ ولا شئ عن مصير حمه جان. قال الحاج مولود وهو يجلب مع زوجته طعام العشاء وأدوات الشاي:

"إنكم يجب أن تأكلوا أيها الإخوان. إن إضرابكم عن الطعام لا يعيد إلينا حمه جان. ثم أن حمه جان ليس أول وآخر من يموت في هذا الدرب، هذا إذا كانوا قد قتلوه فعلا. لماذا لم يترك القرية معكم؟ إنه حتى إذا عاد إلينا سليما، يجب أن ينتقد ويحاسب. والآن هيا كلوا ولا تنكسوا رؤوسكم مثل النساء، أنتم رجال"

التفت إلى وجوه الجالسين الغارقين في الصمت ثم مددت يدي إلى الأكل قائلا:

"الحاج مولود محق في كلامه، هيا لنأكل"

وفي هذه اللحظة سمعنا نباح الكلاب، مصحوبا بضجيج غير عادي. وقفز الجميع بصورة لا إرادية إلى خارج البيت. وتسمرنا في أماكننا من الدهشة حين رأينا حمه جان وهو يقود مجموعة من الحمير المحملة بالأحمال الثقيلة. كنا لا نكاد نصدق عيوننا. اندفع حمه جان نحوي مطوقا إياي بقوة، وهو يقول بفرح غريب:

"أهذا أنت حقا؟ لقد أشاعوا في القرية أنهم أصابوك بجروح بليغة"

قال الحاج مولود بلهجة جدية:

"هذه إشاعات استعمارية يا حمه جان"

واصل حمه جان كلامه قائلا:

"انظروا، لقد أنقذت أموال القاعدة كلها، لم نفقد حتى صحنا واحدا"

وتساءل الجميع:

"ولكن كيف يا حمه جان؟"

عندما اتخذنا أماكننا لنأكل هذه المرة بشراهة، قال حمه جان:

"كنت أتوقع إنهم سيداهمون القرية في أية لحظة، ولذلك أخفيت المواد تحت أكياس التبن والبعرور. وعندما وصلوا إلى القرية، ذهبت مع وجهاء القرية لاستقبالهم. وبعد أن رحبنا بهم حسب الأصول، طلبوا منا بيتا ليكون مقرا مؤقتا لهم، وبادرت فورا وتبرعت لهم ببيتي على أن يعطوني الفرصة لتفريغه من أكياس البعرور والتبن. تصوروا لو أنهم عرفوا محتوى هذه الأحمال ولمن تعود، لما تسلمتم إذ ذاك حتى جثتي".

صيف ١٩٦٥ / سجن الحلة

في الليل تتحرك الأشياء

مثل قطة ريفية أليفة كان يقبع في قاربه، الذي تداعبه أمواج دجلة الهادئة، لا يأتي بحركة. جامد في مكانه كتمثال آشوري. عيناه الصغيرتان غارقتان في فراغ لا حدود له.

أرادوا أن يلتفت إليهم، فلم يحس بوجودهم رغم أن أحدهم قذفه بحجارة صغيرة. إنهم لا يدرون كيف أحس بأن صاحب القارب المجاور راح يتعسف في طلبه، فرفع يده مؤشرا إليهم أن يتوجهوا إليه. كانت حركة يده البطيئة تنم عن الاحتجاج، أما وجهه فكان أشبه ما يكون بصخرة رملية. دفع قاربه إلى النهر. وحين اتخذ الثلاثة أماكنهم، كانت يداه المعروقتان تحركان المجدافين بصعوبة. كانوا غرباء عنه وقد أحسوا بالشعور الخاطئ في داخله:

– أبناء طبقة مرفهة يقومون بنزهة في قارب.

– عمي، أسمك من فضلك؟

صدر صوت متحشرج باهت كأنه قادم من كهف:

– عبد النبي.

أجاب دون أن ينظر إلى أي واحد منهم. كان بثوبه عديم اللون ووجهه الجامد المحروق جزءا لا يتجزأ من القارب. سأله أحدهم مداعبا:

– تحشش؟

لم يجب، وبدا كما لو أنه لم يسمع، لربما تعمد ذلك:

– عبد النبي، هل أنت متزوج؟

أجاب بلهجة احتجاج:

– لا.

– أين تسكن؟

ضرب على حافة القارب بقوة:

– هذا بيتي.

بعد ما يقارب الربع ساعة تعب عبد النبي، رغم أنه كان يجدف مع التيار. بقيت أمامهم خمس وأربعون دقيقة أخرى. بادر أحدهم بتسلم المجدافين منه:

– دعني أجدف يا عبد النبي.

ترك مكانه بسرعة، كما لو أنه قد توقع ذلك. وراح الثلاثة يتناوبون في التجديف. كل واحد على هواه وحسب طاقته ومن ثم وجب عليهم أن يرجعوا:

– أجدف ضد التيار يا علي..أجدف يا نذل.

بعد أن أجروا عملية حسابية سريعة، أدركوا أنهم بحاجة إلى أكثر من ساعة للوصول إلى المكان الذي انطلقوا منه.

نظروا إلى بعضهم البعض باستفسار. كانت الساعة تشير إلى الخامسة والنصف بد الظهر، وفي السادسة كانوا على موعد لا يمكن تأجيله. نظر الأول إلى الثاني بجد، ثم التفت إلى عبد النبي:

– عبد النبي، يمكننا الاستغناء عن نصف الساعة الباقية.

رفع عبد النبي رأسه دون أن يتكلم كمن ينتظر بقية الكلام. كان التعب باديا عليه رغم محاولته إخفاء ذلك، عندها أشر الثالث بيده إلى الشاطئ:

– سننزل هنا.

كان الشاطئ موحلا يكسوه الغرين وتعبث فيه طيور النورس، قال الثاني:

– هنا؟ في هذا الوحل؟

أجاب الثالث:

– لا.. أقصد هناك.

كانت هناك امرأة بثوب أحمر وطفل يتمشيان على الشاطئ. كانوا قد اجتازوا تمثال أبي نؤاس. وراحوا يغنون وهم ينظرون إلى المارة. وفجأة توقف القارب:

– عبد النبي.. أتريدنا أن ننزل هنا؟

كان القارب قد علق بالغرين. وكان عبد النبي يحاول عبثا تحريكه. قام علي من مكانه وهو يتهيأ للقفز قائلا:

– أجل.. سننزل هنا. قفزة عالية واحدة وينتهي كل شئ.

قال الثاني:

– لكن المسافة أوسع من أن تقطعها بقفزة واحدة.

– سأريكم كيف تكون القفزة.

وإذا به يغوص في الوحل حتى ركبتيه، وراح الآخران يقهقهان. أما عبد النبي فلم تتغير

ملامحه. ترجل من القارب وراح يسحبه إلى الجرف، ثم جلب كتلة ترابية متماسكة ضخمة ووضعها أمام القارب للعبور، ومع ذلك غاصت الأحذية في الوحل.

حين تسلم عبد النبي أجره، رفع يده مودعا إياهم دون أن يتفوه بكلمة، ثم راح يجدف بهدوء محدقا في الفراغ كأنه مشدود بالقارب.

وفي المساء، قبل أن تنام بغداد بساعات، تمدد عبد النبي في قاربه متغطيا بلحافه القديم معلنا بدء ليله، في الوقت الذي تبدأ فيه سهرة الآخرين في البار المقابل لقاربه الغارق في الظلام، وهم يجرعون كؤوس العرق المغشوش. ولئن كان عبد النبي يركن إلى عالمه الصامت، فإنه لم يكن قطعة من القارب، ولم يكن تمثالا آشوريا أو صخرة رملية. كانت له أشياؤه الخاصة أيضا. وها أن أحد الثلاثة الذين عادوا إلى البار يراه خلال النور الباهت يقوم بحركات منتظمة يهتز معها القارب، إذ أنه ليس وحيدا في بيته الصغير الطافي على مياه دجلة.

١٩٧٦

الشجرة والصاعقة

كان الأنين الخافت الحزين يصدر، متقطعا مجروحا أشبه ببكاء طفل، من مكان ما في الغابة الكثيفة. توقفت عن المشي منتبها إلى مصدر الأنين. كان الصمت يخيم على الغابة الساكنة. وكانت الأشجار العملاقة تنتصب في هدوء متلاشية على المدى البعيد في ضباب أزرق، يذوب في لون أخضر فاتح.

توقفت هنيهة. كان ثمة نقار الخشب ينقر برتابة على جذع شجرة هرمة. وعاودت الريح الخفيفة هبوبها مرة أخرى. وانبعث الأنين. وزادت حيرتي. لا أدري لماذا انتابني خوف غامض. لا شك أنه خوف موروث من الأجداد. الخوف من الأشياء المجهولة. أو الإحساس الفطري بوقوع الخطر قبل حدوثه.

كان الأنين هذه المرة قريبا مني، وراح يسري في أعصابي كتيار من البرد ينتاب الإنسان بعد الاستيقاظ من النوم في العراء.

... أهو إنسان مريض يئن في مكان ما؟ أم حيوان يحتضر؟.. كنت في صغري أملك قطة صغيرة ماتت لسبب لا أعرفه. كانت تئن مثل هذا الأنين القادم من مكان مجهول. ورحت أبحث هنا وهناك دون جدوى. ولكني كلما ابتعدت عن المكان الذي توقفت فيه لأول مرة أحسست أن الأنين يبتعد عني.

هبت ريح قوية بعض الشئ. وتصاعد الأنين ممطوطا، عميقا، طويلا وبدرجات مختلفة، عالية ومنخفضة. وأحسست أنه يأتي من الجهة التي توقفت فيها لأول مرة، فلأبحث هناك إذن. وقفز أمامي بغتة سنجاب أشقر، ثم وقف يتأملني على بعد مترين دون خوف، ثم ما لبث أن اختفى كالطيف. وفي تلك اللحظة مرت بذهني صورة غزال طاردته مع صديق.

هناك السهول والصحارى الجرداء والجبال الكلسية والشمس المتوهجة. وهنا غابة داكنة لا نهاية لها.

"لماذا لا توزع الطبيعة الحرارة والأشجار والمياه العذبة والبحار بعدالة؟ أليس بمقدور الإنسان فرض مثل هذه العدالة على هذا الكوكب المجنون؟"

وزاد الصمت عمقا في الغابة. ترى إلى متى يستمر هذا الصمت المرعب؟ وأحسست بالغربة، ثم ما لبث أن نقلني شعوري إلى جو لم اعهده من قبل. شعرت أني أذوب في الغابة وأتحول إلى جزء

منها، إلى شجرة، إلى ورقة عشب ندية، إلى ذرات التراب الرطب. كنت أسمع أصواتا غريبة لها طبقات لا تسمعها الأذن البشرية. كانت الأشجار والأعشاب والأرض والحشرات كلها تبكي.

لابد أن شيئا مفجعا يحدث في الغابة، والويل كل الويل، إذا بدأت شريعتها تحكم الأشياء. وشعرت بالإرهاق رغم عدم تحركي كثيرا. استلقيت في مكاني على العشب الندي. كنت قد انقطعت عن العالم الإنساني. وكان لون دمي قد تحول إلى أخضر فاتح. وكانت الأصوات المختلفة تختلط وتتشابك مع بعضها في سمفونية لا تحدث أي صوت، بل تعطي الصمت عمقا أكثر.

"مررت بالصحراء. كنت أذوب في ذرات الرمال وفي مدينة صحراوية ذات أسوار وقلاع ومنائر تسبح في ضوء القمر. وكنت أذوب هناك أيضا في المياه الفضية التي تتلاطم مع موجات الصحراء. وللصحراء أيضا صوت لا تسمعه الأذن البشرية. وحين كانت أظافري تحفر في الرمال بأناة، كانت تتدفق المياه العذبة لتغسل دماء أناملي برفق. وكانت الأعشاب الخضراء تنمو وتورق الأغصان اليابسة. لقد انتهى زمن الصبير الأزلي"

وحدقت في الفضاء. كانت الشجرة المنتصبة فوق رأسي تنطح السماء وتلقي بظلالها على الصحراء. وبغتة هبت ريح خفيفة ندية. وراح الأنين يشق الصمت مرة أخرى. كان الأنين فوق رأسي، ووقعت عيناي بلا إرادة مني على شق طويل عميق، كما لو أنه من صنع سيف أسطوري عملاق. ووقفت اتأمل الشق العميق. واكتشفت أن الشجرة كانت هدفا لصاعقة. وكانت الطحالب النامية على آثار الحريق تدل أن الصاعقة قد ضربت الشجرة منذ فترة غير قصيرة. ورغم أن أحد الأغصان قد جف واستحال إلى فحم، فإن الفروع والأغصان الأخرى بقيت نضرة، تغطيها الأوراق الخضراء الطرية.

وطوقت جذع الشجرة العملاقة كما لو أني طفل عثر على أمه الجريحة بعد فراق طويل. وشعرت برغبة جارفة في البكاء، بيد أن رغبتي في الثأر كانت أقوى.

١٩٨١ لايبزك

القرية والينبوع

كان الدرويش لا يعرف عن الدنيا سوى شيخه وتكيته، فالأول بالنسبة له روح الله السائرة على الأرض، بواسطته ينتقل إلى ملكوت السماوات ويتلاشى في ذات جل جلاله. وأما الثانية فهي دار الله على الأرض، حلقة الوصل بين البشر الفانين والعرش الأزلي الذي يتحكم في السماوات والأرض، وينشر العدالة في كل مكان. ولا يسمح للظلم والطغيان أن يعيثا فسادا في أي جزء من هذه الأرض.

كان الدرويش يكتفي بكسرة الخبز ويمتلئ سعادة، حين يرى شيخه يلتهم أحسن أنواع اللحوم. كان يفترش الأرض هادئا مطمئنا، لأن الإنسان من التراب وإليه يعود. ويلتحف السماء دون أن يحجبها عن نفسه بأي غطاء، لأنها مقر الأرواح الطاهرة التي تتمثل في النجوم الهائمة.

وعندما كانت التكايا الأخرى تقيم الولائم لشيخه، كان هو لا يتسابق مع الدراويش الآخرين للحصول على قطعة اللحم الجيدة. كان مقتنعا أنه كلما عذب نفسه، فإن رحمة الله الواسعة تتوسع أكثر، ويفتح عليه أبواب النعيم في الآخرة.

في حلقات الذكر، حيث نداء "لا إله إلا الله" يتصاعد إلى أبراج السماء السابعة، كانت روحه تمتزج بذات الله، فيمتطي صهوة جواد إلهي ليقترب من العرش ويرى الله بأم عينيه، فلا يحس بأي ألم من ضربات السيوف والخناجر.

وأعطاه الشيخ لقب الصوفي بجدارة.

ترك أهله وعمله وترك ملذات الحياة منصرفا إلى عشق ذات الله، مطلقا لحيته وشعره ينسدلان على صدره وكتفيه.

ذات يوم هاجه الحنين إلى قريته. اشتاق إلى إخوانه وأخواته وأصدقائه القدامى وإلى الينبوع الذي تظلله أشجار (السبندار)، حيث نساء القرية ينقلن الماء العذب بالقرب إلى بيوتهن. وتمنى لو يرقد تحت ظلال شجرة التين الكبيرة المطلة على مزارع الكروم المنتشرة على سفح الجبل.

شعر أن حنينه لا يقاوم، فأستأذن من الشيخ أن يسافر إلى أهله.

كان الدرويش يعرف مسالك الطرق المؤدية إلى قريته. يعرف كل صخرة أو شجيرة تحيط بتلك المسالك. وحتى في ظلام الليل الدامس لا ينحرف شبرا عن الطريق الملتوي الذي يقطع الجبال والوديان. كانت مقاومته للجوع والعطش أشد من الذئب. كان يستطيع أن لا يأكل لأسابيع. ولم

يحس بطول الطريق، إذ كان مشغولا بأفكار عالمه الخاص الذي يهيم فيه بلا حدود. ولم يجد الخوف طريقه إلى قلبه، إذ أن روح الشيخ ترافقه مثل ظله، فهي تظهر إما في شكل ثعلب أو قنفذ أو حية أو صخرة على جانب الطريق.

أحس أنه اقترب من قريته، فهاهو لا يفصله عنها سوى هذا الجبل. وبلا إرادة منه بدأ يدمدم بأغنية حزينة ما لبثت أن تصاعدت وراحت ترددها الوديان:

إيه قريتي الجميلة الراقدة على سفح الجبل،

مثل قلادة قرنفل تطوق عنق الحبيبة،

جئت عاشقا وأنا يمزقني الحنين إليك،

إلى مائك العذب،

إلى رائحة خبزك.

احتضنيني يا قريتي، فأنت أمي وأهلي.

وسار في طريقه بسرعة أكبر وأحس بالزمن يطول. وكانت صورة القرية تتضح أمام عينيه أكثر فأكثر، وصعد الجبل دون أن يلتفت حوله، كي يختصر المسافة. وقبل أن يبلغ القمة، سمع قرقعة أسلحة اوتوماتيكية. وحين انتبه إلى مصدر الصوت، رأى قبعات فولاذية تطل من وراء ربية مبنية من الأحجار الكبيرة والصخور، فقال بصورة لا إرادية "الله أكبر".

قال أحدهم من داخل الربية بصوت عال:

– قف في مكانك وارفع يديك، وإلا أطلقت عليك النار.

قال بتحد:

– أنا واقف في مكاني قبل أن تأمرني. ولكنني لن أرفع يدي إلا أمام الله، فأطلق النار إن شئت.

وتحدثوا فيما بينهم بكلام لم يفهمه، ثم قال آخر:

– ولكنك إلى أين ذاهب أيها الدرويش؟

– أنا ذاهب إلى قريتي، ولكنكم أنتم ماذا تفعلون هنا؟ لماذا تختبئون داخل هذه الحفرة مثل الجرذان؟ ماذا تنتظرون؟ هل الله أفقدكم عقولكم؟

سمعهم يضحكون بسخرية، قال أحدهم:

– هيا انصرف أيها الدرويش وأذهب في طريقك.

واختفوا داخل الحفرة.

شعر الدرويش كما لو أن شيئا غامضا قد طعنه في الأعماق، شيئا كدر مزاجه. وسار مطرقا رأسه باتجاه القرية.

كانت القرية تختفي وراء مرتفع هو في نفس الوقت مقبرتها، تغطيه أشجار البلوط والصنوبر. اندهش الدرويش حين رأى المقبرة عارية من الأشجار. وساوره الشك في اتجاهه، بيد أنه سرعان ما تأكد أن طريقه صحيح وأن المقبرة هي هي.. ولكن الأشجار، أين هي؟ من الذي قطعها؟ أليس قطع الأشجار من المقبرة محرم وكفر؟ ومما زاد في دهشته الصمت المطبق على المكان، كما لو أن القرية قد خلت من كلابها.

قال بلا إرادة منه: "يا الله يا ساتر، لبيك يا شيخ..". وفي هذه اللحظة تقمص الشيخ شكل طائر القبج، فأرتفع محدثا رفيفا قويا هز السكون، قال الدرويش بنشوة:

– لا، لن تخذلني أيها الشيخ. إنك تتواجد أينما حللت.

وبعد مسيرة قصيرة بلغ نهاية المرتفع. هذه هي القبور التي يعرفها، تدل عليها شواهد بألواح صخرية بمختلف الأحجام، تنتصب بصمت أزلي تتحدى الزمن. كان قد قرر أن يجلس هنا، بين الأسلاف ويلف سيكارة ويستمتع بالنظر إلى كل جزء من القرية. "ولكن، أين هي القرية؟". قالها بصوت أشبه بالنحيب. أراد أن يركض، بيد أن قوة خفية سحرته في مكانه، فلم يستطع أن يتحرك. تزاحمت مئات الأفكار في رأسه. هل الله غضب على القرية فضربها بصاعقة؟ أم أنها أصبحت ضحية للمعارك التي يتحدثون عنها ولا يعطيها هو أذنا صاغية؟ وتذكر أصحاب الخوذات المختبئين كالجرذان في حفرة في قمة الجبل، وهز رأسه.

وراح يجر رجليه ببطء إلى المكان الذي كان فيما مضى قريته. أكوام وأنقاض متراكمة هنا وهناك يطبق عليها الصمت. وثمة كلب هرم يرقد في ركن حفره بنفسه، يبدو كما لو أنه ينتظر عودة صاحبه. وبدت له الأشياء كما لو أن الحياة لم تكن سارية ذات يوم في هذه البقعة من الأرض. وعادت به أفكاره إلى طفولته، حيث كان يذهب يوميا مع أصدقائه الصغار إلى القرية الزائلة الواقعة وراء المقبرة للبحث عن الخرز الملونة والتماثيل الصغيرة بين آثارها والتي كان يقول عنها الكبار أنها كانت مدينة يسكنها الكفار قبل آلاف السنين، فغضب عليهم الله وضربهم بالصاعقة. رفع رأسه إلى السماء الصافية وراح يحدق في الفراغ اللانهائي، قال بغضب:

– يا إلهي، أين كنت عندما اغتالوا هذه القرية؟ أهذه هي عدالتك؟ إذا كنت غاضبا على شرور البشرية، فلماذا اخترت هذه القرية بالذات؟

مد يده إلى وسطه واستل سيف الدروشة من مكمنه. مسك المقبض بكلتا يديه وفكر في الطريقة التي ينهي بها حياته، ولكنه سرعان ما أعاد السيف إلى مكمنه قائلا: "لعنة الله على الشيطان

الرجيم". وسحب خنجره (الدبان) وراح يقطع به بسرعة وانفعال شعره ولحيته وهو يقول:

– سوف لا تطأ قدمي تكيتك يا إلهي ولن أر وجه الشيخ، إلا بعد أن انتقم لهذه القرية.

وأحس بالعطش يحرق أحشاءه، وسار باتجاه الينبوع. انبطح على الأرض ودفن رأسه في الماء البارد العذب الذي يتدفق برفق من أعماق الأرض. وحين اعتدل في جلسته رأى شيخا طاعنا في السن، مقوس الظهر تتقدمه عصاه، كما لو أنه شبح خرج من بين الأنقاض. وعندما اتضحت له معالم الشيخ، تذكر طفولته مرة أخرى، فأجهش في البكاء. قال الشيخ بصوت حازم:

– البكاء ليس من شيمة الرجال أيها الدرويش. النساء هن اللواتي ينحبن في المصائب. لقد قتلوا الجميع، فلم يبق سوى أنا وزوجتي العجوز وأنت. أنا وزوجتي لم يقتلونا لأن موتنا وحياتنا سواء لهم. وأنت، لم يصلوا إليك لأنك تعيش في كنف شيخ بليد لا يعرف من الدنيا سوى بطنه وشعوذته.

قال الدرويش وهو يحاول عبثا التغلب على دموعه:

– إنهم إذن هم الذين قتلوا الجميع وأحرقوا القرية.

علق الشيخ وهو يتقدم بوعاء من الينبوع:

– يا بني، إن هذه ليست المرة الأولى التي تحرق فيها هذه القرية ويباد سكانها. طالما أن هذا الينبوع الصافي يتدفق هنا كالأزل، فإن القرية ستعود مرة أخرى إلى الحياة. إنها لن تموت.

لايبزك ١٩٨١

لغز حمار هدايت

قال الحاج عزيز:

– الآن لا مجال للمناقشة، هيا اركب الحمار وسنرافقكما إلى الطريق المؤدي إلى تالاو.

– هل من الضروري ركوبه؟ ألا يجوز أن أسير وراءه؟

قال هدايت كأي خبير:

– كلا أبدا، إنه في هذه الحالة سيرجع إلى بيتي. وفي الطريق لا تتدخل في شؤونه. إنه سيوصلك إلى البيت مباشرة.

وعندما وصلنا إلى الطريق الترابي الضيق المؤدي إلى القرية المقصودة، توغلنا أنا والحمار في الظلام الدامس وتركناهم وراءنا.

كان الحمار يسير حسب الموا

كان علي أن أذهب في تلك الليلة إلى قرية تالاو في مهمة عاجلة. كان الوقت متأخرا حين أبلغت بالخبر. وكان الظلام دامسا إلى درجة لا يمكن للمرء أن يرى يديه. وبالنظر لانشغال الجميع بمهمات مختلفة، لم أتمكن من تكليف أحد بمرافقتي إلى تلك القرية. حاول الجميع وبمختلف الوسائل أن يشرحوا لي كيفية الوصول إلى هناك. أولا، الخروج من القرية باتجاه معين، عبور النهر في منطقة معينة، بعد ذلك اتباع المسلك الذي يؤدي إلى حقول نفط زنبور ثم الانحراف حول تل والسير في خط مستقيم..الخ. كل هذا يجب أن أنفذه في الظلام الدامس. قلت لهم وأنا أتذكر تجربتي المريرة في إحدى الليالي التي ظللت أدور فيها في حلقة مفرغة حتى الصباح:

– كل هذه الشروح أستطيع تنفيذها في النهار، أما في هذه الليلة الحالكة فمستحيل.

أطبق الصمت على الجميع، وفجأة وقف الحاج عزيز في مكانه وصاح فرحا كما لو أنه حصل على جائزة:

– کەرمکەی هیدایەت.. کەرمکەی هیدایەت.. (حمار هدايت.. حمار هدايت).

نظر الجميع إليه بدهشة. وبدا لي أن بعض الوجوه قد أدركت فورا ما كان يعنيه، فارتاحت هي الأخرى معه.

قال الحاج بلهجة المنتصر:

– إن حمار هدايت سيوصلك ليس إلى قرية تالاو وحسب، بل سيأخذك مباشرة إلى بيت صاحبك رشيد سيدا.

قلت له بعدم ارتياح:

– أرجوك يا حاج عزيز، لسنا الآن في معرض المزاح.

وقبل أن يتكلم هذا، أجاب آخر:

– كلا، إنه لا يمزح. لقد وجدنا الحل.

وبعد قليل جئ بالحمار. كان هادئا متوسط الحجم. وأحسست أنه حين رآنا وقد أحطنا به باهتمام غير عادي، أدرك أنه لا شك مكلف بمهمة. ومع ذلك ظل محتفظا بتواضعه. قلت وأنا أربت برفق على رقبته وأذنيه:

– هل تعتقد يا عزيزي الحمار، إنك ستوصلني هذه الليلة إلى الهدف الذي أريده؟

هز رأسه مصفقا بأذنيه:

– برررررر.

صفات التي شرحوها لي والتي لم أستطع استيعابها. وكم كنت آسفا لعدم تمكنه من النطق. لا شك أن له هو الآخر طموحا وأحزانا كان سيرويها لي بالتأكيد في تلك الرحلة الليلية، ولكن يظهر أنه آثر الصمت منذ الأزل على الثرثرة البشرية. ووجد أن السكوت من ذهب. ووجدت أنا الآخر لذة في الصمت. ورحت أستغرق في خيالاتي وأمضي بعيدا إلى حيث النجوم المتلألئة في أعماق السماء والموغلة في الظلام الدامس.

ومما أثار استغرابي أن الحمار بدلا من أن يتعب، كان يزيد من سرعته كلما اقتربنا من القرية، وكنت عبثا أحاول إيجاد وسيلة تفاهم لأعبر له أنه ليس من الضروري أن يرهق نفسه أكثر مما تتحمل طاقته.

عندما اقتربنا من القرية، وقف الحمار في مكانه فجأة. اجتاحني خوف لم أعرف مبعثه. وظننت أنه اخطأ في اتجاهه، فوقف ليفكر في الاتجاه الصحيح. ولمحت في الظلام رأسه وهو يمتد إلى أعلى كما لو أنه يريد أن يستطلع ما وراء الروابي محاولا اختراق حجب الظلام. ورفع أذنيه إلى أعلى مثل سلكين هوائيين لاقطين. وخفت أن يكون قد شعر بوجود ذئب على مقربة منا، فتحسست مسدسي. قلت له بصوت خافت وأنا أربت على رقبته:

– لا تخف يا عزيزي. إن مسدسي أسرع من الذئب.

ولمحته يرفع رأسه أعلى فأعلى. وبغتة أطلق نهيقا عاليا، طويلا، ممطوطا شق سكون الليل. قلت بلا إرادة مني:

– وأخيرا خرجت عن صمتك الذهبي.

ورددت الوديان صدى النهيق الذي أحسست به حزينا، قلت متوسلا:

– والآن، انتهيت من إبداء رأيك بلحنك الشجي، فإلى متى تبقى واقفا على هذا التل لا تتحرك؟

أجابني ببسط أذنيه الطويلتين إلى الجانبين مثل جناحي صقر. ورحت أحاول تفسير حركات أذنيه بلا جدوى. لو كان هدايت معي، لفسر لي كل هذه الحركات المليئة بالألغاز. وهبت نسمة خفيفة من جهة القرية حاملة إلينا ضجيجا خافتا من عواء الكلاب المتعبة، أعقبه نهيق شجي أخرجني من الإحساس بالغربة. وهنا انطلق صاحبي كما لو أنه جواد أصيل. وأطلق ساقيه للريح.

بعد مسيرة قصيرة بلغنا القرية. قادني صاحبي إلى زقاق ضيق ثم انعطفنا إلى زقاق فرعي أضيق. وأمام الباب الثالث إلى اليمين وقف الحمار وهو يضرب برأسه الباب المصنوع من ألواح الصفيح الصدئ بصورة هستيرية كما لو أنه يريد أن يشق الباب شقا. ترجلت وأنا أحاول تهدئته، ماسحا رقبته بيسراي وطارقا الباب بظهر يمناي.

عندما انفتح الباب، قفز صاحبي إلى باحة البيت مطلقا نهيقا أعلى من الأول ومتميزا بالفرح. كان يقفز ويضرب الأرض بحوافره. وحين لمحني رشيد سيدا من وراء الباب، أطلق ضحكة هستيرية، اختلطت بالنهيق المتواصل وبالتأوهات التي تطلقها الحمارة المربوطة في باحة البيت.

كنت أريد أن أقول شيئا، بيد أن لساني كان قد انعقد. كان الحبل المقطوع يتموج في الفضاء مثل ثعبان هائج، والحماران يداعبان بعضهما في نشوة غريبة ممهدين نفسيهما لحفلة عرس حمراء.

لايبزك ١٩٨٤

الشبح

تمت كتابة السيرة الذاتية للدكتاتور بالطريقة التي أرادها هو. وكان يعتقد أن الهموم التي تعصر قلبه ستزول وتحل محلها سعادة أزلية ترفعه إلى أعالي النجوم. كان يختلي إلى نفسه ويعيد آلاف الكلمات المكتوبة بالدم على ألواح ذهبية، فيرى أمامه آلاف الجماجم والهياكل العظمية والأطراف المقطوعة والجثث المشوهة. كانت الصورة تعجبه وتشيع في نفسه نشوة لذيذة تخدره، فيحس بالراحة التامة، بيد أن خوفا جنونيا لم يعرف سببه بدأ يحيط بقلبه ويفقده صوابه. وعبثا كان يحاول التخلص من هذا الخوف.

وعندما استشار بعض أطبائه الأخصائيين حول وضعه النفسي، عقدوه أكثر، فأرسل في طلب منجمه الخاص. وحين امتثل أمامه قال:

– أنظر، لا تحاول أن تخفي على الحقيقة، وإلا قطعت رأسك. إني أرى مستقبلي بأم عيني، ولذلك يجب أن تصارحني بكل شئ.

– نعم يا سيدي سأصارحك بكل شئ.

قلب المنجم أوراق الكتاب القديم بيده المرتجفة، ونظر في خطوط كفي الدكتاتور، واستمع إلى نماذج من أحلامه المرعبة، ثم قال:

– يا سيدي، لا أجرؤ على قول الحقيقة، أخشى أن تتأثروا بذلك.

اصطنع الدكتاتور ابتسامة صفراء وقال:

– لا تخف، صارحني بكل شئ.

– أرى أمامي جداول الدم يا سيدي، أرى الموتى ينهضون من قبورهم ويسيرون فوق بركان ضخم لم ينفجر بعد. نجمكم يا سيدي يتوغل في ظلام دامس، أكاد لا أراه.

نظر إليه الدكتاتور بجد وقال بلهجة استعطاف لم يعهدها المنجم من قبل:

– أستنتج من كلام جنابك أنني سأموت قريبا، ولكن كيف سيكون الأمر إذا تركت هذا البلد إلى مكان بعيد؟

قال المنجم وهو يرتعد من الخوف:

– هناك شبح يا سيدي يلاحقك دوما، والمشكلة أنه في كل مكان. إنه مثل الروح الهائمة. لا تقتله الرصاصة ولا يخرقه السهم ولا تمسكه اليد.

وفكر الدكتاتور في اثنين من أمثاله ممن خطفهم هذا الشبح. وتنهد بعمق قائلا وهو يؤشر له بالانصراف:

– كذب المنجمون وإن صدقوا.

ولم يصدق المنجم أنه خرج من الغرفة سالما.

السيرة الذاتية للدكتاتور

اجتمع الدكتاتور ذات يوم بكبار مستشاريه وطلب منهم أن يبتكروا طريقة جديدة لم يسبق لأحد أن جربها من قبل، وذلك في كتابة سيرته الذاتية منذ ولادته حتى لحظة اجتماعه بهم. وبعد أن شرح لهم الهدف من ذلك، طلب منهم أن يبدأوا بالمناقشة الحرة بمنتهى الديمقراطية.

قال المستشار الأول بسرعة كما لو أنه يخشى أن يسبقه الآخرون في ذكر فكرته:

– سنكتبها يا سيدي بالذهب الخالص.

قال الدكتاتور بامتعاض ودون أن ينظر إليه:

– اسكت.

قال المستشار الثاني:

– سنكتبها بحبات اللؤلؤ يا سيدي، فهي أغلى الأحجار الكريمة.

قال الدكتاتور بنفس اللهجة:

– اسكت.

قال المستشار الثالث مبتهجا:

– سنكتبها برحيق أجمل الأزهار في العالم يا سيدي.

قال الدكتاتور باحتقار:

– أنت آخر من يحق له الحديث عن الأزهار يا نتن، اسكت.

كان المستشار الرابع هو آخر من بقي. وكان من عادته أن لا يتكلم إلا بعد أن يتأكد من أن الجميع قد انتهوا من كلامهم. كان يعصر رأسه بيسراه بقوة، مفكرا في الجواب الذي يلائم ذوق ومزاج سيده.

قال الدكتاتور ملتفتا بكبرياء إلى المستشار الرابع:

– لقد سمعنا آراء العباقرة الثلاثة. بقي أن نسمع رأي جنابك. فإذا كان رأيك خرائيا مثلهم، فمن الخير أن تسكت.

قال المستشار الرابع بلهجة الواثق من نفسه:

– أعتقد يا سيدي أن اقتراحي سيكون موضع إعجابكم. إن سيرتكم الذاتية الغالية علينا لا تقدر بثمن، ولذلك فأنا لا أنظر إليها بعين التاجر الذي يمسك بالميزان ويزن الأشياء بالذهب أو الجواهر أو العطور. إن سيرتكم الذاتية أغلى بكثير من هذه الأشياء التافهة والزائلة. إننا سنكتب سيرتكم الذاتية يا سيدي بالدم، لنضعك في مقدمة أبطال التاريخ. سنأخذ قطرة واحدة من كل مقاتل سقط في المعركة. وهكذا نأخذ أكثر من خمسين ألف قطرة دم، نكتب بها سيرتكم الذاتية، فنخلدهم كلهم من خلالكم كما ونخلد أعظم معركة حدثت في التاريخ من خلال سيرتكم الذاتية. إذا كان هذا الاقتراح لا يعجبكم يا سيدي فهذا هو رأسي أمامكم، اقطعوه. وإنه لشرف عظيم لي فيما بعد، إذا أضفتم قطرة من دمي إلى تلك المحبرة.

انطبعت ابتسامة صفراء على وجه الدكتاتور وقال بارتياح ممزوج بعجرفة:

– كلا، إن رأسك سيبقى منتصبا، لأنه رأس يفكر. وإنك ستبقى المستشار الوحيد في هذا المجال. أما الثلاثة الآخرون فلا بأس أن تمجدهم بأخذ قطرة واحدة من جثة كل واحد منهم.

لايبزك ١٩٨٢

إجازة مرضية

كنت لسبب ما أحتاج إلى إجازة مرضية ملحة لا تقبل التأجيل، ولمدة لا تقل عن ثلاثة أسابيع. كان علي أن اقنع الطبيب بأني مريض فعلا. ولا شك أنه سوف لا يعتمد على كلامي فحسب، بل يلتجئ إلى أجهزته الدقيقة المتطورة التي لا يمكن للمرء أن يلف ويدور عليها.

ولما كنت خاليا من أي مرض، لذا حرت في أمري، ورحت أفكر في اختلاق مرض وهمي يستعصي على الأجهزة الدقيقة اللعينة اكتشافه. والمشكلة الأخرى التي كنت أعرف بها، هي وجود تعليمات مشددة إلى الأطباء، تمنعهم من تزويد مرضاهم بإجازات مرضية تتجاوز الأسبوع الواحد، إلا في الحالات التي تثبت بأن المريض يعاني فعلا من مرض يعيقه عن العمل. فكرت في أنواع الأمراض التي يمكن افتعالها، ورحت أسال نفسي: آلام في المعدة؟ أزمة قلبية؟ اضطراب في الدورة الدموية؟ مشاكل في الكلى؟ في الأذنين؟.. كلا أبدا، كل هذه الأمراض، ومهما كانت صحيحة لا يمكن أن تمنحني إجازة مرضية تتجاوز الأسبوع الواحد، إذ أن الطبيب سيقول لك بكل هدوء: مر علي بعد أسبوع، إذ ذاك سنقوم بالفحوص اللازمة ونمدد الإجازة لأسبوع آخر. وهذا بالضبط هو ما لا أحتاجه أنا، بل أريد إجازة مرضية لا تقل عن ثلاثة أسابيع.

قلت لصاحبي الذي له خبرة عجيبة في انتزاع الإجازات المرضية، بأنني أحتاج فعلا إلى إجازة مرضية لا تقل عن ثلاثة أسابيع، وهي ليست للتهرب من العمل، بل لسبب ماس جدا. هز رأسه كمن يعرف كل شئ، قائلا:

"أعرف أنك حصان شغل لا تتهرب من العمل، وأعرف لماذا تحتاج هذه الإجازة"

وبعد تفكير غير قصير، أطال خلاله التحديق بالمارة من خلال الواجهة الزجاجية للمقهى، التفت إلي مبتسما كما لو أنه وجد حلا لمشكلتي:

"هل تتقن التمثيل؟"

"طبعا أتقن التمثيل، ألم أحدثك عن نشاطاتي التمثيلية في الثانوية والمعهد؟ لماذا هذا السؤال؟"

استدار هذه المرة إلي بكل جسمه:

"إذا أتقنت التمثيل فعلا، فإنك ستحصل على أكثر من ثلاثة أسابيع"

قلت بصورة لا إرادية:

"مستحيل"

"سأعطيك عنوان طبيبة نفسانية جيدة، أذهب إليها فورا وقل لها بأنك مصاب بالأرق ولا تستطيع النوم بسبب الأحلام المزعجة والكوابيس. وسوف تسألك عن تفاصيل كوابيسك، لذلك عليك أن تختلق كوابيس مرعبة حقا"

قلت، دون أن اقتنع باقتراحه:

"لا داعي للاختلاق، أحلامي كلها كوابيس، ثم أنها لا شك ستعطيني حفنة حبوب منومة وتقول لي:

روح انجطل ويطبك طوب، إذ ذاك لا إجازة مرضية ولا هم يحزنون"

قال صاحبي بتذمر مصطنع ودون أن يلتفت إلي:

"انك سألتني عن حل لمشكلتك، وأنا عرضت عليك اقتراحي. والقرار هو في كل الأحوال بيدك أنت، والآن يجب أن أنصرف"

كنت لا أزال أمسك بالوريقة المحتوية على عنوان الطبيبة التي اعطانياها صاحبي. أردت أن أرميها، بيد أنني بعد تفكير غير طويل، قررت الذهاب إليها، فتركت أنا الآخر المقهى باتجاه الشارع الذي تتواجد فيه عيادة الطبيبة النفسانية، رغم اعتقادي بأن معظم الأطباء النفسانيين هم أنفسهم يعانون من الأمراض النفسية. وبعد بحث لم يدم طويلا، عثرت على العيادة. وتأكد لي أنها، بعد أن تأملت مظهر البناية ومعالم الطرف، شعبية غير ارستقراطية. دخلت البناية بدون تردد. صعدت السلالم الخشبية القديمة إلى الطابق الثاني ودخلت غرفة الانتظار أو بالأحرى ممر الانتظار. وسرعان ما زالت الرهبة التي كانت تحيط بقلبي. كان ثمة مريض واحد بملابس متهرئة ينتظر دوره على ما يبدو. تبينت من معالمه أنه يعاني من مرض عصبي أقرب إلى الجنون، فتذكرت نصائح صاحبي، وأنا أقول في نفسي: لن تجد مختبرا أحسن من هذا الأبله لتمثيليتك. قطبت حاجبي وأنا أحدق في وجهه بعينين، حاولت بكل جهدي، أن تبدوان جاحظتين. وقبل أن أنطق بكلمة، قال بلهجة ساكسونية وقحة وهو يقهقه:

"تعال اجلس يا صديقي، كل شئ هنا خراء في خراء، هل أنت من الجماعة أيضا؟"

قلت في نفسي، لا شك أن الكلمة الأخيرة هي الرمز الذي يوحد المجانين في محنتهم، لذلك علي أن أفكر جيدا قبل الإجابة على سؤاله. وقبل أن أفتح فمي، خرجت الطبيبة من غرفتها مودعة مريضها، وطلبت مني أن أتبعها. قلت لها بأن هناك من ينتظر قبلي وأنا أؤشر إلى الرجل. قالت الطبيبة:

"ما عليك منه، تعال أنت ودعه ينتظر"

وجدت أنها فرصة سانحة كي أمثل. قطبت حاجبي وأنا أقول بحدة:

"ولكن الرجل ينتظر قبلي، أن الدور له"

علق الرجل بمرح:

"أذهب، أذهب معها يا صاحبي، ألم أقل أنه خراء في خراء؟ أذهب ولا يهمك"

قالت الطبيبة بكل هدوء وهي تتأمل عيني:

"والآن ماذا قررت؟"

علمت من ملامح الطبيبة أن نظرتها إلي لا تقل عن نظرتها إلى الرجل الذي لا غبار على جنونه، ولكنها عندما ألقت نظرة على هويتي، راحت تدقق في وجهي بشكل آخر، فيه جد وتساؤل. وأحسست أن معاملتها لي قد تغيرت كليا. راحت تنظر إلي باحترام، ولكن باستطلاع فضولي. ورحت أتأمل وجهها، ولكن بعينين جاحظتين تحت حاجبين مقطبين: امرأة جميلة وبسيطة، بسيطة إلى حد اللعنة. لم تعتن لا بجمالها ولا بشعرها. رشيقة، ولكنها لا تعرف كيفية إظهار هذه الرشاقة التي كان من الممكن أن تحول العاقل إلى مجنون والمجنون إلى عاقل. فكرت أنها لا شك استيقظت هذا الصباح متأخرة وأسرعت إلى عيادتها دون أن تجد الوقت الكافي للوقوف أمام المرآة.

لاشك أنها تريد أن تتأكد ما إذا كنت فعلا من (الجماعة). إن أقل خطا مني يعني فشل مجمل العملية. علي الآن أن أتقن التمثيل كما قال صاحبي. فتحت عيني وقطبت حاجبي بكل ما في من جهد، وأنا أحدق في عينيها الناعستين. طلبت إلي أن أتخذ مكاني في المقعد الوثير المخصص للمرضى، وراحت تحدق في عيني بعد أن سلطت عليهما حزمة من الضوء القوي من مصباح يدوي صغير ودفعت جفوني بإبهامها إلى أعلى.

قلت في نفسي:

"والآن ستفضح كذبتك"

سألتني وهي لا تزال تحدق في عيني اللتين أجبرتهما على التحديق في عينيها بوقاحة:

"ما هي مشكلتك؟"

قلت بصوت متوتر:

"مشكلتي هي أنني مرهق، مرهق جدا يا سيدتي الطبيبة وأعاني من أرق شديد، وإذا غفوت تبدأ الطامة الكبرى. إنني بحاجة إلى راحة، راحة لا تقل عن ثلاثة أسابيع، وإلا سأجن"

"ماذا تقصد بالطامة الكبرى؟"

"الكوابيس التي لا أعرف كيف أتخلص منها"

"منذ متى وأنت تعاني من الكوابيس؟"

"منذ متى؟ سؤال لم يطرحه على أحد من قبل. منذ متى؟ يمكنني أن أقول لك يا سيدتي الطبيبة منذ ثلاثة عقود من الزمن"

علقت باستغراب:

"ثلاثة عقود من الزمن؟ يعني منذ أن كنت أنا في الخامسة من عمري؟"

" نعم يا سيدتي. ثلاثون عاما وأنا أعاني من الكوابيس"

"وهل خفت مؤخرا بالمقارنة مع البداية؟"

"لو حصل ذلك لما أتيتك يا سيدتي"

"هل يمكنني أن أسألك من أي بلد أنت؟"

قلت في نفسي، طالما أن اللعبة قد بدأت فعلا، فلأنزل إلى الأعماق، ولأر كيف سيكون تجاوبها. قلت وأنا أترقب تأثير كلامي على معالم وجهها:

"أنا قادم من بلاد الواق واق"

قالت بعد أن انطبعت لأول مرة ابتسامة رقيقة على وجهها:

"أنا في الحقيقة ضعيفة في الجغرافيا، ولكنني اعتقد أنني سبق أن سمعت بهذا الاسم. ألا يقع هذا البلد في قارة استراليا؟"

سالت بغباء واضح:

"وهل استراليا قارة؟"

قهقهت بصوت عال:

"يبدو أنك أضعف مني في الجغرافيا. على أي حال أين يقع بلدك الواق واق"

في الحقيقة كنت أنا الآخر لا أعرف ما إذا كان ثمة بلد بهذا الاسم، أم أنه مجرد اسم اطلعت عليه ضمن حكاية خرافية، قلت بلا مبالاة:

"ليس المهم أين يقع هذا البلد يا سيدتي، المهم ماذا يحدث في هذا البلد"

قلت ذلك وأنا تنتابني حالة هستيرية غريبة تراودني حين أتذكر بلدي. اختنق صوتي بحشرجة مفاجئة وتدفقت دمعة كبيرة لم أتمكن من حبسها. انتبهت الطبيبة لذلك، فقامت من مكانها واضعة يدها على رأسي وهي تواسيني. وسألتني ما إذا كنت أستطيع أن أتذكر بعض المقاطع من كوابيسي الآن، ريثما تحدد موعدا آخر للدخول في تفاصيلها.

"لا داعي لأن أتذكرها يا سيدتي، أنها مطبوعة ومحفوظة في ذهني، أستطيع أن أسردها لك بكل تفاصيلها"

قالت وهي تمد يدها إلى جهاز مربوط بمقعدي الوثير، الذي تحول إلى أريكة، بحيث أصبحت في وضع المستلقي على ظهره:

"أغمض عينيك وحدثني عن الكابوس الذي غالبا ما تحلم به"

الوضع الجديد للمقعد ونبرة صوت الطبيبة الدافئ بعثا في أعصابي رغبة عميقة في النوم. وحين أغمضت عيني بدأت الكوابيس تتلاطم فيما بينها. سمعتها تهمس في أذني بصوت حالم راح يسري في دمائي مثل الخدر:

"لا تخف، إنها مجرد أحلام مزعجة ستزول، ولكننا يجب أن نتحرى عن أسبابها، وعليك أن تساعدني في ذلك"

وجدت نفسي عاريا، حافيا وتائها في محطة مهجورة. القطار فاتني. وعلمت أنني في بغداد. كان الحراس المسلحون يبحثون عني. أخفيت نفسي تحت إحدى العربات، كنت معلقا بيت عجلتين. وراح القطار ينتقل بسرعة فائقة من نفق إلى آخر وأنا أنتبه بكل أعصابي كي لا اسقط تحت العجلات أو كي لا يمس ظهري الأحجار الناتئة المرصوفة بين السكتين الحديديتين. وفجأة تغير المشهد: وجدت نفسي بين ثلة من الجنود وهم ينهالون علي بأخامص بنادقهم، أحسست بمخي يتطاير في الهواء. إنها النهاية. ورحت أقاوم بكل ما أوتيت من قوة بأرجلي ويدي ورأسي وأنا أطلق صرخات مرعبة.

هزتني الطبيبة من كتفي بقوة وهي تحاول إيقاظي من غفوتي. فتحت عيني بصعوبة وكأنني عائد من الجحيم وأنا أسال نفسي ما إذا كنت نائما حقا؟

قالت الطبيبة مرتجفة وهي ما زالت ممسكة بساعدي:

"لو لم تستيقظ لحطمت كل أثاث عيادتي. أنك بحاجة إلى مصح وإجازة طويلة المدى يا سيدي. ولكننا يجب أن نبحث عن الأسباب الكامنة وراء هذه الكوابيس".

السيدة والهر الأغبر

كانت السيدة (د) تعيش منذ شهرين لوحدها، إذ أن زوجها المتقاعد، بالنظر لقلة راتبه التقاعدي، اضطر للعمل في مدينة أخرى. كانت بعد تناول الفطور تجلس في المطبخ أمام النافذة تقرأ الجريدة وتتأمل الجو وتفكر في إعداد وجبة الغداء. ولما كانت لا تأكل كثيرا، وذلك للحفاظ على رشاقتها، التي قالت عنها طبيبتها بأنها ضرورية لصحتها، لذا تطبخ كمية قليلة تكفي ليومين، بحيث أنها تبقى عاطلة عن العمل في اليوم الثاني. ولكي تتفادى مثل هذا الملل الذي بدأت تحس به في الأيام الأخيرة، راحت تطبخ يوميا، حتى تجد ما تلهي به نفسها. إن القراءة وحدها أو مشاهدة البرامج التلفزيونية أو المكالمات التلفونية مع صديقاتها لا تكفي لسد الفراغ الذي تعاني منه. لقد ترك غياب زوجها فراغا كبيرا في حياتها، إذ أن مطالبه الكثيرة كانت تسد جانبا كبيرا من وقتها. وكم يؤسفها الآن أنها كانت تتذمر من تلك المطالب البسيطة، التي كانت في الحقيقة تشكل جزءا مهما من حياتهما المشتركة. ولما تباحثا مسألة سفره إلى مدينة أخرى من أجل العمل، حاولت هي أن تقنعه للعدول عن فكرته وذلك باتباع سياسة اقتصادية جديدة في مصاريف البيت، أجاب أنه يعرف شيئا وهي تعرف شيئا آخر ثم سألها ما إذا كان بإمكانهما الاستغناء عن مصاريف التلفون والغاز والكهرباء والتلفزيون والسيارة الخ، أنها كلها بحاجة إلى الفلوس والراتب التقاعدي محدود. ولولا تطرقه المفصل إلى تفاصيل المصاريف الحقيقية التي لا تعرف هي عنها شيئا، لمنعته من تحقيق مشروعه، إذ أن صديقتها التي تتدخل في كل شئ وتعرف كل شئ، أدخلت منذ الوهلة الأولى مجموعة من الوساوس في قلبها:

"أنت ساذجة وطيبة القلب، لا تعرفين أخلاق الرجال، إنهم كلما كبروا كلما أصبحوا مراهقين يبحثون عن المغامرات. إنه حين كان يعمل، كانت تحيط به السكرتيرات والموظفات الجميلات، فيغازلهن ويخرج معهن إلى حيث اللهو والعبث... وأما الآن فهو منزو في ركن البيت، معزول لا يزوره أحد، فوجد أن أحسن فرصة للتخلص من هذه العزلة هو الذهاب إلى مدينة أخرى بحجة العمل، في حين يتمتع هناك بحريته المطلقة، بعيدا عن الحياة الروتينية المملة في البيت. الله وحده يعرف ماذا يفعل هناك".

ولما كانت تعرف طبيعة زوجها، لذا تمكنت من التغلب على وساوسها. وإذا كان زوج صديقتها سكيرا مدمنا وزير نساء، مات بالسكتة القلبية، فلا يجوز لها أن تجعل منه مقياسا لكل الرجال. وهي تعرف أن زوجها يسكن عند أخته المتشددة في مثل هذه الأمور. ومما خفف من وطأة

همومها، أن زوجها طمأنها بأنه لا يمكث هناك أكثر من سنة واحدة، حيث ستنتهي معاملة تقسيم الإرث بينه وبين أخته، إذ ذاك سيحصل كل واحد منهما على حصته التي ورثها من الأم. وتنتهي مشكلتهم المادية إلى الأبد. واتفقا أن يزورها مرة في كل شهر.

كان الجو جميلا في الخارج والشمس مشرقة حين اتخذت مكانها أمام نافذة المطبخ. وراحت تتأمل قطة سوداء، اعتادت منذ أيام أن تتخذ مكانها على السطح المقابل. كانت القطة قد تكورت في مكانها في حالة مريحة، تبدو كما لو أنها تحرس شيئا ما، إذ أنها تربض في مكانها لساعات دون أن تقتات شيئا، بيد أنها بين فينة وأخرى تغير وضعها بحركة جمناستيكية خبيرة. تارة تستلقي على جهتها اليمني ممددة قوائمها في الجهة المعاكسة أو تربض في مكانها تلف ذيلها الطويل على منتصف جسمها أو تقوم بلحس أجزاء، يستحيل على الإنسان بلوغها. إنها تبدو نظيفة جدا وجميلة، وأجمل ما فيها في نظرها، لمعان لونها الأسود تحت أشعة شمس الصيف الدافئة. وعرفت من نظرات القطة أنها تراها من خلال زجاج النافذة، إذ أنها حين تتحرك في مكانها تتابعها القطة بعينيها. ولكي تتأكد من ذلك وقفت في مكانها ولاحظت أن القطة قد انتبهت لذلك بدليل أنها وجهت أذنيها باتجاهها، رافعة رأسها إلى أعلى. وحين تركت المطبخ إلى الشرفة، تقدمت القطة عدة خطوات باتجاهها كما لو أنها تريد أن تستقبلها. إذ ذاك انتبهت إلى بقعة بيضاء ناصعة في عنقها، أشبه بالبدر في ظلام الليل الدامس. أشارت إليها بيدها ونادتها بود كي تقترب أكثر أو لعلها تأتيها مجتازة الجدار الفاصل بينهما، بيد أنها لم تستجب لندائها، بل أهملتها وهي تحدقها بنظرات جامدة. ورغم معرفتها الأولية بطبيعة القطط، قررت أن تشتري كتابا في طبيعة هذا الحيوان الغريب الذي يعيش مع الإنسان، دون أن يعرف هذا من طبائعها شيئا. جلبت قطعة من لحم الكبد المشوي من المطبخ، محاولة إغراءها للاقتراب منها، فلم تنجح المحاولة. واستنتجت في نفسها أن القطط لا تقبل الرشاوى، فاكتفت بأن وضعت القطعة بعد تفتيتها إلى شرائح صغيرة في صحن تركته في العراء، وانسحبت هي إلى المطبخ. وأخفت نفسها وراء الباب وهي تراقبها بحذر، دون أن تشعر هذه بها. عندما تأكدت القطة من خلو المكان، راحت تخطو خطوات وئيدة باتجاه الشرفة، مجتازة الجدار، وهي تلتفت بحذر يمنة ويسرة ولتتأكد من عدم وجود أحد. وتأكدت السيدة (د) بدورها، من شدة حذر القطة، من أنها غير أليفة، بل وحشية لا تثق بأحد. قالت في نفسها: "من يدري ماذا عانت بأيدي البشر". وتابعت في نفسها، إنها مسألة ثقة.

والتهمت القطة شرائح الكبد بلذة متناهية وتعرفت من خلالها على رائحة صديقتها الجديدة التي وضعتها في قائمة الناس الطيبين الذين يتبرعون بالطعام للقطط المشردة التي يعرفون ملاجئها. وعلى فكرة فإن كسب ثقة القطة مسألة في غاية الصعوبة، ولذلك لا يمكن مقارنة القط

بالكلب أبدا. على أية حال، إنها الآن ليست بصدد الدخول في تفاصيل طبيعة القطط، فهي سبق أن قررت شراء كتاب بهذا الموضوع، مهما كان ثمنه. وعادت القطة السوداء إلى مكانها الأول وهي تلعق بوزها وتنظر باتجاه النافذة.

بعد أيام قليلة توطدت الصداقة بين الاثنتين، فما أن تخرج السيدة (د) من المطبخ إلى الشرفة وبيدها الصحن المخصص لطعام القطة، إلا وتلوي القطة السوداء ذيلها وتهرع إليها لتناول حصتها المعتادة. ولكن السر الذي لم تتمكن السيدة (د) من سبر كنهه، هو تعلق القطة الفجائي بهذا المكان الذي يبدو لها كما لو أنها تحرسه ليلا ونهارا. ورغم أنها اشترت الكتاب واطلعت على محتوياته بدقة، فإنها لم تجد فصلا أو فقرة تتعلق بموضوع تعلق القط بمكان معين بهذا الشكل. بل بالعكس، إن القط حيوان يحب الحرية المطلقة ولا يلتزم بأي شئ، رغم أنه يستميت في الدفاع عن منطقته التي لا يحرسها بهذا الشكل الذي تقوم به هذه القطة السوداء المجنونة. وراحت تفكر في هذا الأمر بكل جد، حتى أنها أرادت أن تكتب لزوجها، لعله يسعفها في الجواب، بيد أن زيارة صديقتها لها قربتها من الحل.

جلستا في المطبخ أمام النافذة، تشربان القهوة، تقابلهما من الجهة الثانية القطة السوداء. وراحت تحكي لها القصة وتبدي لها رغبتها الحقيقية في امتلاك قطة وكيف أنها امتلكت ثقتها بإطعامها وهي تؤشر بيدها إلى القطة الرابضة في مكانها المعتاد. وفجأة انطلقت صديقتها محذرة، وهي تكاد تقلب فنجان القهوة بحركة يدها العصبية، كما لو أنها اقترفت جريمة شنيعة:

"ماذا تفعلين؟ هل أنت مجنونة؟ إن هذا العمل الذي تقومين به هو وباء، وباء، وباء لا يمكنك التخلص منه بسهولة. هل تعرفين ماذا تفعل هنا هذه القطة الولود؟ إنها لاشك تحرس أولادها الصغار الذين أخفتهم في مكان أمين تحت أنقاض صاحب البيت، ولكنهم سرعان ما يخرجون إلى النور حين تتكامل عيونهم، فإذا ظللت تطعمينهم، سيبقون متخندقين في مكانهم ويتحولون خلال مدة قصيرة إلى جيش عرمرم، يحاصر بيتك ويأكل الأخضر واليابس. لا تطعمي هذه القطة اللعينة، وإذا جاءتك مرة أخرى فاضربيها بالحجارة. هل أنت مستعدة لإطعام جيش من القطط؟"

قالت الصديقة الثرثارة كلمتها ومشت. ولم تأخذ السيدة (د) كلامها بالجد، تماما مثلما لم تأخذ كلامها بالجد حول زوجها، بيد أن الشئ الذي أقرته هو أن صديقتها على دراية بطبيعة القطط إلى حد ما. وتأكدت من مصداقية كلامها حين ظهرت إلى الوجود في اليوم الثاني ثلاث قطط صغيرة، راحت تملأ المكان حبورا بألعابها وحركاتها البهلوانية الجميلة. وراحت السيدة (د) تتأمل القطط الصغار ساعات بنشوة غريبة لم تعهد بها من قبل وتتمنى لو كان بإمكانها احتضانهم وإطعامهم جميعا. بيد أنها حين فكرت بجد فيما تحتاجه القطة الواحدة من المصاريف في اليوم الواحد، راحت تقلب الأمور بشكل آخر، بصورة واقعية أكثر وتفكر في كلام

صديقتها. ورغم كل ذلك توصلت إلى استنتاج جديد، وهو إحساسها بالنشوة المطلقة منذ تعرفها بعالم القطط، إذ أن التوتر الذي كان يلازم أعصابها قد زال بشكل عجيب.

بعد أيام قليلة من ظهور القطط اختفت إحداها فجأة، وكانت أصغرهم حجما وسوداء مثل الأم، وإذ هي تفكر في سبب اختفائها المفاجئ، دق جرس الباب وحين فتحته، وجدت جارها صاحب البيت المقابل، وبعد أن اعتذر لإزعاجها في ساعة الظهيرة هذه، قال أنه جاء لأمر مهم يتعلق بموضوع العلاقة بين العائلتين، فإذا سمحت له بخمس دقائق من وقتها، لبدأ بالموضوع فورا. قالت وهي ترجع إلى المطبخ:

"لحظة، سآتيك فورا، يجب أن أخفف لهب الطباخ"

عادت إليه وفي ملامحها بعض الحيرة:

"نعم أيها السيد الجار، تفضل"

قال الرجل وهو يحاول جادا أن يكون مؤدبا معها:

"بدءا أرجو المعذرة مرة أخرى لإزعاجك وفي الحقيقة فكرت أكثر من مرة ما إذا أفاتحك في الموضوع أم لا. أنت تعرفين يا سيدة (د) بأننا نعيش في مجتمع مدني له قوانينه وتقاليده وأعرافه.."

قاطعته قائلا وهي تكتم غضبها:

"وأخلاقه أيضا، أدخل الموضوع رجاء أيها السيد الجار"

"نعم، الموضوع، الموضوع هو أنك تسببين تجمع القطط على سطح كراجي التابع لمنزلي، وذلك بإطعامها بصورة منتظمة. ومن حيث نريد أو لا نريد تحول بيتي، بل مجال بيتينا نحن وأنتم إلى ساحة للقطط. لا يجوز أن يستمر الأمر بهذا الشكل. ولا تنسي أن القطط تتوالد بسرعة وتفترس العصافير المعرضة للانقراض"

قالت وكأنها لا شأن لها بالموضوع:

"وماذا تريدني أن أفعل؟ لماذا سمحت للقطة السوداء أن تحتل سطح كراجك؟"

"الحل بسيط جدا يا سيدة (د). أنت حين تكفين عن إطعامهم، ستنقلهم الأم إلى مكان آخر، إذ ذاك سنتخلص منهم نهائيا"

وجدت أن النقاش مع هذا السيد الجار سوف يطول، ولا سيما لأنه يمتلك شهية كبيرة للكلام كما يبدو. وحسما للأمر أكدت له بأنها أيضا ضد أن يتحول بيتها إلى ساحة مفتوحة للقطط السائبة، ولذلك سوف لا ترمي لها من الآن فصاعدا أي فضلة طعام.

عادت إلى مكانها أمام النافذة تراقب القطط الصغيرة وتفكر في القرار الذي تعهدت به أمام السيد الجار المؤدب جدا. وفكرت أنها منذ أن بدأت بالإطعام، ظهرت فعلا قطط أخرى غريبة جاءت من أماكن أخرى وراحت تتصارع فيما بينها للاستيلاء على المنطقة، التي هي في نفس الوقت مصدر أساسي لمورد الرزق. قررت أن تلتزم بالكلام الذي تعهدت به أمام الجار، ولاسيما بعد أن أطلعت في الكتاب على فصل حول خطورة إصابة القطط بمرض السعار الخطير. ومع ذلك ظلت تجلس أمام النافذة بين فينة وأخرى لتطلع على آخر أخبار القطط . القطة الصغيرة السوداء، التي هي أقلهم حجما، قد اختفت نهائيا. ومنذ أيام اختفت الأم أيضا وليس لها أي أثر. وفكرت السيدة (د) "ترى، هل قضى عليهما الجار؟ ربما ماتت الصغيرة جوعا، والأم في طريقها للبحث عما تقتات به هي وولداها الهزيلان، ولكن، ألا يمكنها أن تظهر ولو بلمحة بصر؟".

لاحظت أن بوادر الضعف تدب في جسد القطتين الصغيرتين وأرادت أن تقدم لهما الحليب، ولكن كيف؟ إن الطريق الوحيد الذي يؤدي إليهما هو الجدار الذي يمتد من شرفتها إلى سطح الكراج. والجدار يبلغ حوالي أربعة أمتار وتغطيه النباتات المتسلقة، يستحيل على القطط الصغيرة عبورها. وعادت يائسة حزينة إلى عملها المنزلي دون أن تتمكن من مساعدة مخلوقين يكاد الموت يختطفهما في أي لحظة.

يئست القطتان الباقيتان عن عودة الأم التي تركتهما بلا رعاية. وأستبد بهما الجوع ووجدتا أن الطريق الوحيد للنجاة هو عبور الجدار إلى حيث السيدة ذات القلب الرقيق. وبادرت القطة الصغيرة السوداء ذات مساء لعبور الجدار الذي تغطيه النباتات الكثيفة. وبعد أن قطعت مسافة لا تتجاوز المتر الواحد، التفتت إلى الوراء بحركة متهورة، لتتأكد ما إذا كان شقيقها يتبعها، فما كان منها إلا وانزلقت قوائمها ووقعت في البرميل الذي تتجمع فيه مياه المطر. وفي اليوم الثاني أصيبت السيدة (د) بصدمة عنيفة حين وقعت عيناها على الفطيسة المنتفخة، فاضطرت أن تستعين بجارها لإخراجها ودفنها في الحديقة.

كانت السيدة (د) لا تزال تحت تأثير صدمة موت القطة السوداء الصغيرة رغم مرور يومين على الحادث المرعب. ومما زاد في حزنها وكآبتها هو تأنيب الضمير الذي راح يلسع مشاعرها بسبب عدم تغطيتها للبرميل بالغطاء المخصص له، الأمر الذي يوحي لها بأنها هي المتسببة في قتل القطة السوداء الصغيرة المسكينة التي أرادت أن تجتاز الجدار بجرأة، إليها هي، لعلها تقدم لها شيئا تسد به رمقها. ولكن، أراد لها القدر شيئا آخر، فلقت حتفها إختناقا.

لم تتمكن السيدة (د) من تناول عشائها في تلك الأمسية. اتخذت مكانها في غرفة الجلوس أمام التلفزيون دون أن تفتحه، تتأمل وتسترسل في أفكارها وتبدو كما لو أنها أعلنت الحداد لموت أعز إنسان إليها. أحست بالاختناق، فقامت من مكانها وفتحت النافذة المطلة على الشرفة ثم عادت

إلى مكانها لترجع من جديد إلى شرودها. وفجأة أحست بشئ يمرق من خلال النافذة ويقفز إلى منتصف الغرفة. تصورته في بادئ الأمر طائرا تاه دربه، بيد أنها سرعان ما وجدت أمامها قطة ضامرة صغيرة بخطوط نمرية غبراء داكنة تنظر إليها بعطف واستسلام. وظلت متسمرة في مكانها لا تصدق عينيها ولا تأتي بحركة مخافة أن تهرب. وظلت تراقبها بجمود وعطف. وعرفت أنه هر، بخصيتين بحجم الحمص، وليس قطة كما تصورت من قبل. وظل الهر الصغير رابضا متكورا في مكانه، ينظر في عينيها باستعطاف.

اقتربت منه بحذر قائلة بصوت خافت:

" يا عزيزي، كيف تمكنت من عبور الجدار؟"

أجاب الهر بصوت يكاد لا يسمع: "مياو"، ثم اقترب منها ومسح رجلها بفروه وذيله الطويل. مدت يديها بحركة لا إرادية ورفعته إلى حضنها. وهي في طريقها إلى المطبخ، أحست به خفيفا بلا وزن، قالت كما لو أنها تكلم إنسانا:

" في البدء سنشرب قليلا من الحليب يا عزيزي ثم أفرم لك اللحم الذي سيعجبك".

المسألة

ليلة مفقودة من ليالي ألف ليلة وليلة

مسرحية

الشخصيات حسب الظهور على المسرح

الفارس نعمان: جبان يتصنع الشجاعة، له وجه غير معبر، أقرب إلى البلادة

الشيخ: والد الفارس ورئيس القبيلة

الحاجب

علي بن أحمد: عضو مجلس الشورى

تاج الدين: خال الفارس ورئيس عصابة في الصحراء.

الكورس: ثلاث مغنيات شابات.

رئيس مجلس الشورى

الشيخ الأول: عضو مجلس الشورى

الشيخ الثاني: عضو مجلس الشورى

الشيخ الثالث: عضو مجلس الشورى

أدهم: عضو مجلس الشورى.

الشيخ الرابع: عضو مجلس الشورى

عثمان بن علي: عضو مجلس الشورى، من الأنصار المتحمسين للفارس

الشيخ الخامس: عضو مجلس الشورى

رئيس الشرطة

أساس

رسول من التجار

الطبيب مع مرافقيه

رسول الأمير القفقاسي

فرقة غناء غجرية

المنادي

قائد الجيش

الرسول الأفرنجي

زعيم الأعداء

و آخرون...

المشهد الأول

(تظهر وجوه الممثلين بالتناوب وبحركات مسرحية مصطنعة أشبه بالدمى، من وراء الكواليس، ومن زوايا مختلفة، وهم يرددون بأصوات عالية ومنخفضة وعلى شكل سباق:

الفارس الغجري المهزوم، الفارس الغجري المنتصر.. المهزوم.. المنتصر.. المهزوم.. المهزووووم..

تتلاشى الأصوات ببطء بمصاحبة موسيقى شرقية هادئة، وتسلط الأضواء على مؤخرة المسرح المعتمة، حيث يظهر الفارس من وراء القضبان، أو داخل قفص، كما لو أنه طائر سجين)

صوت متناغم عميق من وراء الكواليس:

خليفة في قفص بين وصيف وبغى

يقول ما قالا لـه كما تقول الببــغا

أحد المتفرجين في الصفوف الخلفية من القاعة، بصوت عال:

وأين هو وصيف؟

يظهر وجه قبيح من وراء الكواليس ويقول: "ها هنا"، ثم يختفي.

المتفرج: وأين هو بغا؟

يظهر وجه قبيح آخر من وراء الكواليس، وفي الجهة المقابلة للأول ويقول: "ها هنا" ثم يختفي.

(يجري تعتيم المسرح بمقاطع موسيقية شرقية)

المشهد الثاني

(يبدو الفارس بملابسه الملونة المزركشة متأنقا، أشبه ببغاء ومثيرا للضحك. يعتمر عمامة ملونة تتوسطها ريشة. يتدلى من وسطه سيف يكاد طرفه يلامس الأرض. جسمه يميل إلى فخامة غير متناسقة، أقرب إلى بدانة فبلادة. يجلس أمام نافذة كبيرة من الطراز الأندلسي، تطل على حديقة عامرة بالأشجار الوارفة. يجلس مستغرقا في تفكير عميق وقد وضع مرفقه على منضدة شرقية أمام النافذة، مسندا رأسه على مؤخرة يده. يبدو كما لو أنه يفكر في مشكلة مستعصية، بيد أن ذبابة مزعجة تعكر عليه صفو تفكيره بطنينها الحاد. الطنين يملأ المسرح، تارة يرتفع وأخرى ينخفض)

الفارس: (*يجيل نظراته ببلادة في أنحاء المسرح باحثا عن الذبابة الهائجة. ثم يقوم من مكانه محاولا إمساك الذبابة بحركات بهلوانية. ويتذكر أنه يحمل سيفا، فيقف في منتصف المسرح، مادا يده ببطء ليستل سيفه، كما لو أنه يريد أن يفاجئ به الذبابة*)

أيتها الذبابة الحقيرة، لقد عثرت عليك. هذه هي نهايتك. سوف أقضي عليك بضربة واحدة من سيفي.(*يضرب الفراغ بالسيف بحركة بهلوانية، دون أن يصيب الذبابة*) إلى أين تولين وجهك أيتها الحشرة القذرة؟ سنرى من الذي سينتصر. (*الطنين يرتفع، وضربات السيف تشق الفراغ دون جدوى*) الآن، الآن، سأقص جناحيك أيتها الذبابة التافهة. (*يعيد المحاولة عدة مرات ويتعثر أكثر من مرة واقعا على الأرض بصورة مضحكة*) .

الشيخ: (*يدخل ويقف مبهوتا في إحدى زوايا المسرح، يتابع حركات ابنه البهلوانية، دون أن ينتبه إليه هذا*) يا بني..

الفارس: (*يفزع للمفاجأة، بانفعال*) أبتاه.

الشيخ: أراك في معركة حامية الوطيس. كيف يمكننا تفسير هذا القتال العنيف يا ترى؟ هل جننت؟ أم أنك تقاتل الأشباح.

الفارس: ألا تسمع هذا الطنين المزعج يا أبتاه؟ (*يشتد الطنين*) إنها ذبابة حقيرة عصت علي، إنها تمزق أعصابي.

الشيخ: هل فكرت يا بني بالفارق بينك وبين هذه الذبابة قبل أن تدخل معها معركة بالسيف؟

الفارس: الفارق بيني وبينها؟ إنها حشرة صغيرة قذرة لا تفكر وأنا..

الشيخ : (*مقاطعا بسخرية*) وأنت إنسان كبير نظيف يفكر.

الفارس: (*متباهيا*) أجل يا أبتاه.

الشيخ: وهل يحارب الإنسان يا بني ذبابة بالسيف؟ ومع ذلك فإنك لم تنتصر عليها.

الفارس: إنها استفزت أعصابي يا أبتاه، ولولا مفاجأتك لي ، لقضيت عليها لا محالة.

الشيخ: لا بل صببت عرقا أكثر دون أن تنال منها شيئا.

الفارس: وهل تريدني أن أقضي عليها الآن في أقل من لمح البصر؟

الشيخ: ولكن بشئ غير السيف.

الفارس: سألصقها على الجدار بضربة كتاب.

الشيخ: كلا يا بني، لم ينشأ الكتاب من أجل قتل الذباب.

الفارس: سأمسكها بيدي.

الشيخ: وكيف تسمح لنفسك بتلطيخ يدك بدم ذبابة قذرة؟

الفارس: (*منفعلا، دون أن يضبط نفسه أمام الأب*) كيف إذن يا أبتاه؟ لقد طعنت في السن وأصبحت كثير الكلام.

الشيخ: أجل يا بني، إنه الخرف، بل إنها النهاية أيضا. ما كنت ربيتك كي تقف في وجهي، ولكنه دم المرحومة أمك الغجرية، الذي يجري في عروقك.

الفارس: أبتاه، سامحني. إن أعصابي متوترة اليوم.

الشيخ: ليهديك الله إلى الطريق المستقيم يا ولدي. والآن لنعد إلى حديثنا الأول.

الفارس: نعم يا أبتاه.

الشيخ: لا زالت الذبابة تطن (*الطنين يشتد*)، كيف الخلاص منها؟ هيا أجبني، إنه امتحان يقرر مصيرك.

الفارس: لست أدري يا أبتاه. إنني لا أستطيع التفكير بعد. لقد نفذت وسائلي.

الشيخ: افتح النافذة يا بني.

(*الفارس يفتح النافذة*)

الشيخ: حسنا، والآن حرك يديك في الهواء دون عناء (الطنين يتلاشى)، هل رأيت؟ لقد غادرتنا بهدوء.

الفارس: أنت أدرى بكل الأمور يا أبتاه.

الشيخ: اذهب إلى صيدك يا بني، لعل أعصابك المضطربة تهدأ.

الفارس: (*بفرح طفولي*) أجل يا أبتاه، سأذهب فورا. (يخرج بسرعة)

الشيخ: (*يقف في منتصف مقدمة المسرح كما لو أنه يخاطب الجمهور و باستهزاء*) هه، ذلكهو ابني البطل، فارس القبيلة المغوار. تصوروا، كيف سيكون مصير القبيلة بقيادة مثل هذا الرجل الذي لا يعرف أن يحل و يربط. ومع ذلك يسمونه فارس القبيلة المغوار الذي طبقت شهرته الآفاق. من أين أتته العظمة والبطولة؟ لست أدري. إنه قد تجاوز الثلاثين دون أن يتحول إلى رجل حقيقي. توفيت والدته وهو في العشرين، وحتى ذلك الحين، كان يتبول

في فراشه. وعندما كانت الرياح تهب وتزمجر، كان يركض من غرفة إلى أخرى وهو لا يستطيع أن يتماسك من شدة الخوف والرعب. ولا يزال حتى الآن يخاف من الظلام. ولكن من الذي يستطيع أن يقول له أنك تخاف من الظلام؟ بل من الذي يستطيع أن يتصور تلك الحقيقة؟ المهم، له عصابته التي تحيط به أينما حل.

الحاجب: (*يدخل دون تكلف*) مولاي الشيخ.

الشيخ: ماذا وراءك أيها الحاجب؟

الحاجب: علي بن أحمد يا مولاي.

الشيخ: أهلا به.

علي بن أحمد: (*يدخل*) حييت يا أبا نعمان.

الشيخ: ليتني لم أكن أبا لنعمان.. أهلا بك يا علي بن أحمد، من أين أشرقت الشمس هذا اليوم؟ لعلك ضللت طريقك وقادتك قدماك خطئا إلي؟ ماذا دهاكم يا صحبي؟ إني لأشعر بأني وحيد في هذا العالم. إن أصدق أصدقائي لا يمرون علي، لعل الشيخوخة يا علي بن أحمد أفقدتني الصواب، ورحت أهذي بحيث لم أعد أحتمل بعد. أجل، أجل، لم يعد يحتملني حتى ولدي. (*يهمس مقتربا من صاحبه*) قل لي ألا أبدو وكأنني قاب قوسي أو أدنى من الموت؟

علي بن أحمد: أنت متعب يا أبا نعمان. لماذا أنت واقف؟ من المستحسن أن تجلس وترتاح. لا تقلق بالك بما أنت في غنى عنه؟

الشيخ: ماذا تقول؟ أو تريدني أن أدع الأمور تجري كما يشتهيه ولدي العظيم؟ أنت أعقل القوم يا ابن أحمد، وتتفوه بمثل هذا الكلام؟ فلنقرأ السلام على الآخرين.

علي بن أحمد: ولكن هل تدري ماذا يدور بين أبناء القبيلة؟

الشيخ: ماذا؟ يا مولاي ماذا؟ لا شك أنهم يقولون أن الشيخ أبا نعمان أصابه الخرف، ولا يريد أن يتنازل عن الزعامة لابنه نعمان. أليس كذلك؟ (*بصرامة*) أعلن في أرجاء القبيلة يا علي بن أحمد، أن الشيخوخة قد دبت في كياني وأني أقف على حافة القبر، وبأنني لا أستطيع مواصلة الزعامة. فليتشاوروا فيما بينهم وينتخبوا غيري. أهو ملك أبي؟ كان أبي حاديا للإبل، وأما أنا فجئت إلى هذا المكان بإرادة القبيلة، وهذه هي أساس المسألة. وها أن دوري قد انتهى، فليأت غيري، ولكن بنفس الطريقة التي جئت بها.

علي بن أحمد: ولكنك ما زلت قويا يا أبا نعمان. أنك ما زلت ذلك الرجل الأسطورة الذي قهر الأعداء ووحد القبيلة ونشر الأمن والطمأنينة.

الشيخ: والآن يا علي بن أحمد، أنتم الباقون وأنا السائر في طريق الموت. لقد آن الأوان كي تبحثوا عن رجل آخر يكون زعيما للبلاد.

علي بن أحمد: نفس الرنة القديمة. لقد قلنا لكم مرارا وتكرارا أن البلاد كلها لا تريد أن تنسى ذكركم. وأن الكل يريد أن يرث نجلكم الوحيد الزعامة من بعدكم، ويتشوق الجميع إلى سماع ذلك منكم قبل أن ترحلوا من هذه الدنيا الفانية.

الشيخ: (*يقهقه بسخرية*) إن ابني لا يقودكم إلا إلى الهلاك، إلى أعماق الجحيم، إلى الركوع أمام أقدام الأعداء. إنه سيهدم في بضعة أسابيع كل ما بنيناه طوال عقود. كلا، كلا، ثم كلا. إني لن أحل على روحي لعنة قومي يا علي بن أحمد. أنا لم أتسلم الحكم من أبي كي أسلمه لأبني. لست صاحب الأمر. افعلوا ما تشاءون.

علي بن أحمد: كن رحيما مع ابنك يا أبا نعمان. إنه فلذة كبدك، ثم أن القبيلة كلها تحبه.

الشيخ: لا يحبه سوى أهل الفساد يا بن أحمد، ثم أن أساس المسألة لا علاقة له بالأبوة. هل تعتقد أني أكره ابني؟ وهل هناك من يكره ابنه؟ إن أساس المسألة بيد القبيلة، فلماذا تلقون هذا العبء على عاتقي؟ أتحملون ذنبي يوم القيامة؟

الحاجب: (*يدخل*) مولاي، الأمير تاج الدين.

الشيخ: ماذا يريد هذا اللص المشؤوم؟ ليدخل.

تاج الدين: (*يدخل بخفة وهو بملابس بدوية سوداء، يبدو على ملامحه الخبث*) السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

(الشيخ وعلي بن أحمد يجيبان بصوت واحد وببرود)

الشيخ: هل دخلت أرض القبيلة وحدك يا تاج الدين أم معك زمرتك؟

تاج الدين: كلا يا أبا نعمان. إن رجالي لا يتركون الصحراء. لقد جئت وحدي. إن الشوق هو الذي دفعني إليك وإلى ابن أختي العزيز نعمان.

الشيخ: كيف تجري الأمور في الصحراء؟

تاج الدين: سيئة يا أبا نعمان. منذ أشهر ولم تمر أية قافلة، سوى قوافلكم.

الشيخ: ابحثوا عن مهنة أخرى، أو ارحلوا إلى ديرة أخرى. إن أرض الله واسعة.

تاج الدين: إننا في تنقل دائم، ولكن الحياة أصبحت قاسية لا تطاق يا أبا نعمان.

الشيخ: أما زلتم على عهدكم بعدم التعرض لقوافلنا؟

تاج الدين: بالتأكيد يا أبا نعمان. إنهم غالبا ما يحلون علينا ضيوفا. وأصبحنا الآن نعيش على هداياهم. أقول ذلك عن حق.

الشيخ: وما هي الأخبار التي تسمعونها؟

تاج الدين: الأخبار التي نسمعها؟ لقد تردد أن نعمانا سيكون أميرا للقبيلة، وأنك ستعلن ذلك على الملأ في أحد الأعياد القريبة القادمة. والحقيقة أنني سررت لذلك جدا.

علي بن أحمد: ألم أبلغك يا أبا نعمان بالحقيقة؟

الشيخ: الحقيقة، الحقيقة، الحقيقة، تلك مسألة تخصكم أنتم، وأما أنا فيخصني أساس المسألة.

تاج الدين: إنك لن تخسر شيئا يا أبا نعمان، إنه مجرد إعلان، وستبقى أنت تتحكم في أمور البلاد كما تشاء.

الشيخ: (*بانفعال*) أنا لن أتحكم في شئون القبيلة كما أشاء يا تاج الدين. هناك مجلس شورى، هو الذي يبت في الأمور. ثم أنك يا تاج الدين لا يحق لك التدخل فيما لا يعنيك.

علي بن أحمد: ولكنه لم يقل كلاما سيئا يا أبا نعمان. إنه كأي فرد منا تهمه مصلحة القبيلة. إنك نفسك تقر بأنك بين قاب قوسين أو أدنى من الموت. إن أي واحد منا لا يملك الحول والقوة تجاه الموت. فإذا جاء أجلك، لا سمح الله، فكيف يكون مصير القبيلة؟ إن كلمة واحدة منك تدع الأمور تجري كما كانت عليها منذ ثلاثين عاما.

الشيخ: لا أريد أن أسمع كلاما من هذا القبيل.

علي بن أحمد: ولكن يا أبا نعمان، أين هو صبرك وجلدك؟

الشيخ: (يخرج بغضب) لقد قلت لكم لا أريد أن أسمع أي شئ من هذا القبيل. دعوني وشأني.

تاج الدين: إنه قد تركنا لوحدنا. هل فقد نسيبي عقله؟

علي بن أحمد: إنها الشيخوخة، جعلته غريب الأطوار.

تاج الدين: (متشفيا) أجل، الشيخوخة. إنه لم يعد يصلح لقيادة بلادكم.

علي بن أحمد: ولكنه يتمتع بحب الجميع.

تاج الدين: بل إنه سيقودكم إلى الهلاك.

علي بن أحمد: ربما بعد موته.

تاج الدين: كلا، إن موته سيحل كل المشاكل.

علي بن أحمد: (حائرا) لست أدري ما الذي يريده هذا الرجل.

تاج الدين: إنها شهوة السلطة، أعمته وجعلته يعادي حتى فلذة كبده.

علي بن أحمد: لست أدري، لست أدري، هيا لنذهب.

(يخرجان. موسيقى)

المشهد الثالث

(ثلاث فتيات يحملن الجرار، في طريقهن إلى النبع)

الفتاة الأولى: (تغني بصوت حزين)

اليدري يدري

والما يدري

قبضة عدس

يا حبيبي ماذا جرى؟

من الذي وش و دس؟

آه، آه.. يا حبيبي

ما أحلى العذاب

ما أحلى العذاب.

أحببته دوما

أردته يوما،

لكنه كان سراب

اليدري يدري

والما يدري

قبضة عدس.

يا حبيبي ماذا جرى؟

من الذي وش ودس؟

الفتاة الثانية: آه يا إلهي، كم هو وسيم وقوي. لقد مر بنا هذا اليوم بجواده الأصهب ووراءه شلته وكأنه فارس الفرسان. لقد رأيته عن قرب، تصورن عن قرب، كان حزينا. ترى كيف تجد الكآبة طريقها إلى قلب إنسان يمكنه امتلاك كل شئ؟

الفتاة الثالثة: يقال أنه عاشق.

الفتاة الأولى: وهل العشق يجعل الإنسان حزينا؟ إنه يستطيع أن يمتلك كل شئ.

الفتاة الثانية: ترى من هي تلك المحظوظة التي ستكون قرينته؟

الفتاة الثالثة: وهل يحتاج مثله إلى زواج؟ إنه لم يترك في القبيلة فتاة دون أن يسعدها.

الفتاة الأولى: (مندهشة) ماذا تقولين؟

الثانية والثالثة: (بصوت واحد) الفتيات القبيحات فقط لا يعرفن من هو فارس الفرسان.

الفتاة الأولى: ولكنه مع ذلك متعلق بحب فتاة واحدة.

الفتاة الثانية: أجل، نعرف ذلك، إنه يحب ابنة خاله الأمير تاج الدين.

الفتاة الأولى: (*تغني المقطع الأول من الأغنية*)

(*الأغنية تتلاشى ببطء*)

المشهد الرابع

(اجتماع مجلس الشورى في خيمة. لوحة معلقة كتبت عليها بالخط الكوفي: "وأمرهم شورى بينهم". مقاعد متواضعة. ضوضاء وأحاديث جانبية غير واضحة مع همسات. عدد الأعضاء حسب سعة المسرح، ولا يقل عن عشرة. هناك فارق اجتماعي ملحوظ بين أعضاء المجلس في الملابس والأبهة)

الرئيس: (*يجلس في الوسط*) أيها السادة، أرجو الانتباه. (سكوت) في جلسة مجلس الشورى لهذا اليوم نستمع إلى وجهة نظر الشيخ علي بن أحمد، حيث التقى مؤخرا بشيخنا أبي نعمان. والآن يتفضل الشيخ علي بن أحمد بالكلام.

علي بن أحمد: (*يقف في مكانه بالقرب من الرئيس*) إن الرجل لم يتغير أيها السادة. أنا في الحقيقة لا أعرف ماذا يريد.

الشيخ الأول: وهل نحن نعرف ماذا يريد؟

الرئيس: أعتقد أننا قد بحثنا هذه المسألة مرارا وتكرارا.

الشيخ الأول: أجل، أننا بحثنا هذه المسألة، ولكننا لم نبحث أساس المسألة، ثم أنني أريد أن نبحث هذا الموضوع دون تأثير من أحد.

الشيخ الثاني: ما الذي تقصده بـ "دون تأثير من أحد"؟ أننا هنا نمثل مصالح القبيلة، ولا يؤثر علينا سوى القبيلة.

الشيخ الثالث: هناك من يؤثر على القبيلة نفسها. إن الأمور تبدو لي كما لو أن الحابل قد أختلط بالنابل.

الشيخ الثاني: (موجها كلامه بغضب إلى الأول والثالث) أنتما اللذان تحاولان تعقيد الأمور وزيادة الطين بلة.

الرئيس: أرجو عدم الدخول في نقاشات جانبية ومراعاة آداب المساجلة.

الشيخ الثاني: ولكنني أعيد طرح السؤال من جديد أيها الرئيس. وأريد أن أعرف ما هو المقصود بـ"دون تأثير أحد"، ترى من الذي يؤثر علينا؟

الرئيس: (*موجها كلامه إلى الشيخ الأول*) أرجو توضيح كلامك يا شيخ أدهم.

الشيخ الأول: أنني أوضح كلامي بطرح السؤال التالي: ترى، ماذا يفعل هنا في هذه الأيام تاج الدين، رئيس قطاع طرق الصحراء؟

الرئيس: (*باستغراب*) تاج الدين؟ ومتى دخل أرض القبيلة؟

(*ضوضاء وهمسات*)

لشيخ الأول: نعم، تاج الدين يا سادتي. وأضيف، بمن اجتمع يا ترى؟ ومن الذي فتح له بابه على مصراعيه؟

عثمان بن علي: (*متحديا*) أنا الذي فتح له بابه على مصراعيه. وهل في هذا ضير؟

الشيخ الرابع: إنه هنا كأي ضيف. ثم أنه خال نعمان.

الشيخ الخامس: ولماذا لم يحل ضيفا على نسيبه أبي نعمان؟

عثمان بن علي: إن أبا نعمان قد أصبح غريب الأطوار هذه الأيام. إنه لا يطيق حتى ابنه، فكيف بتاج الدين؟

الشيخ الخامس: هكذا نجازي الرجل الذي خدمنا ثلاثة عقود من الزمن؟ يا لنا من ناكري الجميل أيها السادة.

الرئيس: أرجو تجنب استعمال الكلمات النابية والطعون.

علي بن أحمد: أيها السادة، إننا ندور في حلقة مفرغة لا نهاية لها. كل واحد منا يقول ما يمليه عليه خياله. إن الرجل قبل كل شئ ليس غريب الأطوار كما تدعون. ثم أنه لا يريد أن يفرض نفسه علينا. هناك حقيقة واحدة ينبغي إدراكها، وهي أساس المسألة. كلكم يعلم أنني لا مع هذا ولا مع ذاك، لا مع الأب ولا مع الابن. (ضوضاء)

أحد الشيوخ: مع من أنت إذن؟

علي بن أحمد: أنا مع أساس المسألة.

(يسمع وقع أقدام وضجة في خارج المسرح. الكل ينتبه إلى مصدر الضوضاء. يدخل الحاجب مرتبكا)

الحاجب: مولاي الرئيس، رئيس الشرطة يريد مقابلتكم.

الرئيس: (*باستغراب*) رئيس الشرطة؟ ليدخل.

رئيس الشرطة: (يدخل وينحني *أمام المجلس*) السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الجميـــــع: (بصوت *واحد*) عليكم السلام ورحمة الله.

الرئيس: ماذا وراءك يا رئيس الشرطة؟

رئيس الشرطة: وصلتنا أخبار سيئة يا سيدي الرئيس.

(ضوضاء وهمســــــــــات)

الرئيس: أخبار سيئة؟ كيف؟

رئيس الشرطة: لقد حدثت غارة شديدة على إحدى قوافلنا الكبيرة في الصحراء يا مولاي. يقال أن أضرارا جسيمة قد لحقت بالأرواح والأموال.

الشيخ الأول: (بانفعال) منذ ثلاثين عاما ولم يجرؤ أحد على التقرب من قوافلنا، واليوم تنقلب الآية. إن وراء الأكمة ما وراءها.

الشيخ الثالث: من هو المعتدي يا ترى؟

الرئيس: أجل، سؤال وجيه.

رئيس الشرطة: ليس لنا أعداء في الصحراء يا مولاي. ربما ثمة قطاع طرق جاءوا من مناطق أخرى.

الشيخ الأول: كلا، كلا يا سادتي. إن شيخ اللصوص يسرح ويمرح بيننا.

رئيس الشرطة: من يكون يا ترى؟

الشيخ الثالث: إنه تاج الدين لا غير.

عثمان بن علي: إن هذا الكلام عار من الصحة، لنا حلفا ومعاهدة مع هؤلاء. إنهم يحمون قوافلنا. ثم أن الرجل هنا، فكيف تسنى له أن يقوم بهذه الجريمة التي هو براء منها؟

الرئيس: والآن، من هو المعتدي أيها السادة؟

رئيس الشرطة: أرى أن نستدعي تاج الدين ونحقق معه، طالما أنه متهم.

عثمان بن علي: إن هذا اعتداء صارخ على خال نعمان وعلى أولاد عمومتنا.

الرئيس: حسما للأمر نلتجئ إلى الشورى. من منكم إلى جانب استدعاء تاج الدين؟

(الأكثرية المطلقة تؤيد برفع الأيدي)

ومن ضد الاستدعاء؟

(أقلية ترفع الأيدي)

حسن، الأكثرية المطلقة إذن إلى جانب استدعاء تاج الدين. والآن بأمر من مجلس الشورى الناطق الشرعي باسم القبيلة، يجري استدعاء تاج الدين من قبل رئيس الشرطة لمعرفة ما يجري في الصحراء.

رئيس الشرطة: سمعا وطاعة يا مولاي.

(يخـرج)

الرئيس: والآن ماذا تريدون؟ هل نبحث المسألة التي بدأنا بها، أم ننتقل إلى موضوع الاعتداء على قوافلنا؟

عثمان بن علي: نبحث موضوعنا الأول.

الشيخ الثالث: لا بل نبحث موضوع الاعتداء.

أدهم: كلا، أرى أن نبحث الأمرين معا ونربطهما ببعضهما. إن الاعتداء لم يجر بمعزل عن الموضوع الأول.

عثمان بن علي: هذا هراء أيها السادة. إننا لا نستطيع أن نبحث موضوعين في آن واحد.

علي بن أحمد: ادخلوا الموضوع أيها السادة من أي باب تشاءون، وأنهوا مسألة الزعامة بأي شكل كان. المهم أن نتوصل إلى نتيجة. إن بقاء الأمور معلقة ليست من صالحنا.

عثمان بن علي: إذا كان الرجل يريد أن يتملص من المسئولية، فلنبحث المسألة وننتخب من نريد.

أدهم: إنه لا يريد أن يتملص من المسئولية، بل يريد منا أن نلتجئ إلى أساس المسألة، لأن الشيخوخة قد استبدت به.

عثمان بن علي: إنه إذا كان لا يريد أن يفسح المجال لابنه بالذات، فكيف به ينصحنا للالتجاء إلى أساس المسألة؟

أدهم: أنا أحتكم بالنسبة إلى هذا الكلام إلى علي بن أحمد.

علي بن أحمد: هذا إجحاف بحق الرجل ليس إلا.

الرئيس: يتضح لي من مجمل الكلام أن أبا نعمان غير متشبث بالزعامة كما يشاع. ويبدو أنه غير راض من سلوك ابنه ولا يريد أن يتحمل وزره. ولابد ثمة أسباب لعدم الرضا هذا. إن العجلة من الشيطان والصبر من الرحمن، ولذلك أرى أن نبحث هذا الموضوع معه بالذات. إننا لا يمكننا أن نستغني عن رأيه.

عثمان بن علي: (بخيبة *أمل*) لم نفعل شيئا، لقد عدنا إلى حيث بدأنا.

الرئيس: والآن نعود إلى مسألة الاعتداء على قافلتنا. ويمكننا من خلال الحديث أن نربطها بالموضوع الأول إذا استدعت الضرورة.

أدهم : إنني أيها السادة، أرى أن ثمة حبائل تحاك ليست ضد شيخنا الكبير أبا نعمان حسب، بل ضد كيان قبيلتنا وكرامتها. إني أنذركم من هذا المكان بأن مصيرا مظلما ينتظرنا إن لم نتدبر الأمر. صحيح أن أبا نعمان قد طعن في السن وأنه لم يعد ذلك الرجل الذي يشهر سيفه ويتقدم العساكر لدحر الأعداء، ولكن هل من الإنصاف أن ننعته بمختلف التهم والنعوت؟ ثم من يستطيع أن يثبت بأن كل أبن يشب على سر أبيه؟ ربما يشب الابن على سر خاله. (همهمة وضوضاء) ما بال بعضكم يريد أن يجردنا من تقاليدنا؟ ها هو شيخنا الكبير يطالبنا بالعودة إلى أساس المسألة الذي يكمن فيه سر قوتنا. إن أول الغيث قطرة يا سادتي، فما الاعتداء الآثم على قوافلنا سوى جس نبض وبداية لهجوم أكبر. إن وجود تاج الدين بيننا له علاقة مباشرة بمسألة الاعتداء.

علي بن أحمد: الحقيقة إنني مع هذا الكلام. ينبغي العودة إلى أساس المسألة. وهذا هو بيت القصيد.

الشيخ الأول: أجل، ينبغي العودة إلى أساس المسألة.

الرئيس : يبدو لي أن مهمات جديدة تنتظرنا.

عثمان بن علي: (*باستهجان*) إن الرعاع والصعاليك هم الذين يزعقون بالعودة إلى أساس المسألة، لأنهم لا يستطيعون أن يثبتوا وجودهم إلا من خلال الفوضى. إننا لا نعاني من أي مشكل. إن المشكلة الوحيدة تكمن في إصرار أبي نعمان على عدم التنازل من كرسيه لابنه.

أدهم: (بتحد) إذا كان الرعاع والصعاليك مع أساس المسألة، فأنا معهم. وأما بدعة التنازل عن الكرسي للابن، فلن ترى النور عندنا.

الحاجب: (يدخل) مولاي، رئيس الشرطة مع الأمير تاج الدين.

الرئيس: ليتفضلا.

تاج الدين: (*منفعل ومتحرك، يحاول اصطناع الهدوء*) السلام على من أتبع الهدى. (*يلتفت يمنة ويسرة متطلعا في وجوه الجالسين بفضول واستهجان*) أهـا، لقد استدعيت إذن إلى مجلس الشورى الموقر. إنه ليسعدني جدا أن تسنح لي فرصة اللقاء بأعقل شيوخ البلاد. لعل الشيوخ الكرام يحتاجون إلى استشارتي كصديق ارتبط بهذه القبيلة برابطة الدم والمواثيق المقدسة. أنا أضع كافة خدماتي تحت تصرفكم إذا كانت المسألة في صالح الطرفين.

الرئيس: إن مجلس الشورى هو مصدر العدالة والحق، لا تعلو عليه روابط الدم والصداقة. وهنا في هذا المكان يكمن أساس المسألة، ولذلك استدعيناك أيها الأمير تاج الدين لأمر يتعلق بالمصالح العليا للبلاد.

تاج الدين: (*متصنعا*) سلامة البلاد؟ إذا كلن ثمة خطر يداهم قبيلتكم، فإني سأدخل معكم معركة المصير حتى النهاية وذلك إكراما لروح شقيقتي التي هي أم زعيمكم المنتظر. (همهمة وضجة).

الرئيس: لنا جيوشنا التي بإمكانها الدفاع عن بلادنا. إن المسألة تتعلق باتهام موجه إليك. لقد جرى في الصحراء اعتداء آثم على إحدى قوافلنا. والصحراء خالية سوى من أفراد جماعتك. كيف يمكننا تفسير هذه العملية يا سيد تاج الدين؟

تاج الدين: (*يقهقه بسخرية*) هجوم من قبل رجالي على إحدى قوافلكم؟ يا للخيال الخصب الذي نسج هذه الحكاية. بربكم أيها الشيوخ العقلاء، لماذا تمزحون معي؟ هل أعددتم لي مقلبا؟

الرئيس: (*بصرامـة*) لا مزاح في الأمر يا سيد تاج الدين. أنت أمام اتهام، عليك الدفاع عن نفسك.

تـاج الدين: إنني أحتج بشدة على هذا التصرف إزائي وأعتبره إهـانة لي. ولا شك أنكم أعددتم هذه الدسيسة بمعاونة أبي نعمـان. (*ضوضاء وهمهمة*). ثمة بيننا مواثيق وعهود ينبغي إعادة النظر فيها قبل أن تفكروا بالتحقيق معي.

الرئيـس: يا سيد تـاج الدين، إن المسألة هي مجرد اتهام. إننا نريد أن نفرز الحق عن البـاطل. إذا كنت بريئا، فإن الأمور ستبقى كما هي فيما بيننا، وأما إذا ثبت العكس، فسننسف كافة العهود والمواثيق، ونلتجئ إلى أساليبنا في إعادة الحق إلى نصابه.

تـاج الديـن: أيها السادة، إن الاتهام خـال من الصحة لسبب بسيط جدا، هو تواجدي هنا منذ أيام عديدة. ثم أن رجالي لا يستطيعون التحرك بدوني، ولاشك أنهم يعرفون من لهم ومن عليهم.

(*ضجة وضوضـاء خـارج المسرح. الكل ينتبه إلى المصدر*)

الحاجـب: مولاي، رسول قـادم من مكان بعيد يريد مقابلتكم بسرعة ولأمر مهم للغاية.

الرئيـس: ليتفضل.

الرسـول: (*يدخل. يبدو عليه التعب والارتباك*) السلام عليكم ورحمة الله.

الجميـع: (*بصوت واحد*) وعليكم السلام ورحمة الله.

الرئيـس: ماذا وراءك أيها الرسول؟

الرسـول: مولاي، حدث هجوم آخر على قـافلة أخرى. إن الخسائر لا تعد ولا تحصى. وقد نجا البعض بأرواحهم بصعوبة.

تـاج الديـن: (*متشفيا*) قولوا أيها السادة، إن هذا الاعتداء أيضا مني.

الرئيـس: إننا سوف نلقن أعداءنا درسا لن ينسى. شكرا يا بني، أنتظر خـارج المجلس لحين الانتهاء من أمورنا. (*يخرج*)

تـاج الدين: أيها السادة، إن القبـائل الرحل والبدو قد كثرت هذه الأيام وهي تبحث عن الخبز والكلأ بحد السيف. لقد أصبحت حياتنا نحن أيضا في خطر.

الشيخ الثـاني: إني أطالب بإخلاء سبيل الأمير تـاج الدين فورا وتقديم الاعتذار له بـاسم مجلس الشورى. واننا ينبغي أن نوطد علاقتنا به أحسن من أي وقت مضى، ذلك أننا نمر بفترة عصيبة لم نعهد بها من قبل. إن الأخطار تحدق بنا من كل مكان.

أدهـم: إن الاتهام الموجه ما زال نـافذ المفعول، بل أن الخبر الأخير رسخه أكثر، بدليل أننا لا

أعداء لنا في الصحراء. إن المحكمة يجب أن تستمر حتى إذا جرت تحت صليل السيوف.

تاج الدين: افعلوا ما تشاءون يا سادتي ووزعوا الاتهامات كيفما شئتم. إنكم لا تستطيعون تغطية منازعاتكم وفشلكم في إدارة شئون الدولة بإلقاء التهم على الآخرين.

أدهم: أرجو من الرئيس أن يضع حدا لهذا الهذر. بأي حق يتطاول على كرامتنا ويطعن في قيادتنا في عقر دارنا؟

تاج الدين: (بسخرية) قيادتنا، من الذي يقودكم؟ نسيبي العظيم أبو نعمان الذي لا يعرف سوى الرقص على إيقاع طبول صديقه الحميم أمير بلاد ما وراء القفقاس؟

رئيس الشرطة: (*يستل سيفه من غمده*) أنا لا أتحمل بعد سماع مثل هذا الإسفاف يا مولاي الرئيس.

الرئيس: دعه يتكلم واعد السيف إلى غمده. نحن في محكمة عادلة. كل فرد هنا سيتحمل مسئولية كلامه.

تاج الدين: أما زلت أعامل بعد كمتهم؟

الرئيس: بالتأكيد يا سيد تاج الدين.

أدهم: أرجو من الرئيس أن لا يسمح بالتطرق إلى مسائل سياستنا الداخلية واستقلالنا.

الرئيس: حسن يا سيد تاج الدين، هل أنت مازلت مصرا على رفضك الاتهام الموجه إليك؟

تاج الدين: أنا مصر على ذلك كل الإصرار.

الرئيس: نحن مصرون أيضا على اتهامنا لك، ولا سيما بعد أن وصلنا النبأ الأخير بحضورك، بدليل أن المواثيق الموقعة فيما بيننا تؤكد أنه إذا حدث أي اعتداء على قوافلنا في الصحراء فان المسئولية تتحملها أنت، حتى إذا كان المعتدي جهة أخرى.

تاج الدين: (بتحد) إن ذلك العهد قد مضى. وإنني أؤكد لكم أن الاعتداءات ستستمر أكثر فأكثر، طالما وطدتم علاقاتكم بالأمير القفقاسي. وأنا من جانبي لا أستطيع تحمل مسئولية حراسة قوافلكم.

الرئيس: حسن، سنعيد النظر في المواثيق بعد أن ننتهي من مسألة الاعتداء، ثم أن كلامك هذا هو اعتراف ضمني بحدوث الاعتداء من قبل رجالكم. عليكم باعادة كل ما نهبتموه وتعويضنا بالرجال العزل الذين سقطوا صرعى غدركم. (*يوجه كلامه إلى أعضاء المجلس متفرسا في الوجوه*) هل هناك من يعترض على هذا القرار.

المجلـس: (سكوت)

الرئيـس: أعلم أن السكوت من الرضا.

تاج الدين: لقد قلت لكم بأنني لست مسئولا عن الاعتداء، ومع ذلك فإنني سأتباحث اتهامكم ومسألة إعادة النظر في المواثيق مع أبناء قبيلتي.

الرئيس: إلى جانب قرارنا، سنعتبر الأمر هدنة فيما بيننا لحين التحقيق في أمر الاعتدائين. يمكنك أن تترك المكان يا سيد تاج الدين.

تاج الدين: (يخرج) في أمان الله أيها السادة، الأيام بيننا.

(الشيوخ يتبادلون النظرات باستفهام، فئة لا ترد وأخرى ترد ببرودة)

(المشهد يتلاشى بموسيقى شرقية)

المشهد الخامس

(الفتيات الثلاث، حاملات الجرار في طريقهن إلى النبع)

الثانية: ما بالك اليوم يا خالدة لا تغنين ولا تمرحين؟ هل سمعت خبرا مؤلما؟

الأولى: حلمت يا صديقتي أحلاما مزعجة، استيقظت على أثرها مذعورة، فلم استطع النوم طيلة الليلة الفائتة. أنا متعبة اليوم جدا.

الثالثة: هل حلمت بحبيبك وهو يهجرك؟

الثانية: (بسخرية) ربما أنها حلمت بفارس الفرسان وهو يشيح عنها بنظره.

الثالثة: هيا ابدئي بغنائك الشجي، ودعينا من أضغاث الأحلام.

الثانية: كلا، إني أريد أن أعرف الحلم. هيا حدثينا يا خالدة عما حلمت به، وسوف أفسر لك كل شئ.

الأولى: حلمت بالثلوج وهي تتساقط بكثرة وتغطي كل شئ. وكان الناس يحتفلون بحفلة زواج فارس الفرسان. ولا أدري بالذات ما الذي حدث، بيد أن ما أتذكره بوضوح هو أن الناس كانوا يتقاتلون فيما بينهم بلا رحمة، وراح الدم يسيل في كل مكان. ثم استيقظت مذعورة. وما زال الذعر يدب في اوصالي.

الثانية: إنها أضغاث أحلام يا عزيزتي، لابد أنك أكلت قبل النوم مباشرة.

الثالثة: إنه حلم باطل يا خالدة، هيا ابدئي بالغناء.

الأولى: *(تغني بصوت حزين وأكثر رقة من قبل)*

المشهد السادس

(في بيت الشيخ أبي نعمان. نفس ديكور المشهد الثاني. أبو نعمان متمدد على أريكة أمام النافذة المطلة على الحديقة وقد انهارت قواه. في الجهة اليمنى، قرب رأسه تقف زوجته الشابة مع ولديه الصغيرين، ومن الجهة الأخرى يحيط به عدد من أعضاء مجلس الشورى ورئيس الشرطة وشخصيات أخرى)

أبو نعمان: (*بصوت واهن*) أما زال تاج الدين يسرح ويمرح بيننا؟

الرئيس: لقد أجرينا معه هدنة ليتشاور مع رجاله بشأن قضية الاعتداء على قوافلنا وإعادة النظر في مجمل المواثيق المعقودة بيننا.

أبو نعمان: إن هذا الثعلب يعرف جيدا أين يكمن ضعفنا. إننا كلما ابتعدنا عن أساس المسألة، توغل هو أكثر فأكثر في طعننا من الخلف. إن وراء الأكمة ما وراءها. تاج الدين يعرف من أين يؤكل الكتف، ولذلك فإنه لا يتوكأ على عصا هشة. لابد ثمة جدارا يحمي ظهره.

أدهـــم: حقا يا أبا نعمان، إن سر انتصاراتنا كان يكمن في اعتمادنا على أساس المسألة، ولذلك كان هذا هو جوهر موضوعنا، وأن أساس المسألة هو أساس وجودنا.

الشيخ الثاني: مولاي، يا أبا نعمان، لا أدري ماذا جرى في هذا الزمن العجيب. إني لأستغرب من هذا الكلام ضد خال ابنكم الذي لم يزل حليفنا. إن ما يؤسفني حقا، هو أن بعضا منا قد وقع تحت تأثير الأمير القفقاسي. كم كانت جميلة تلك الأيام التي كنا لا نعرف فيها شيئا عن هؤلاء.

أبو نعمان: (*ينتفض في مكانه بانفعال*) يا ناكر الجميل، إن هذا السيف الذي يتدلى من وسطك هو من صنع قفقاسي. ألم يقف هذا الأمير إلى جانبنا في أتعس أيامنا؟ ألم يزودنا بأحسن الرماح والسيوف والبارود؟ ألم يشق لنا القنوات لإرواء أراضينا الجدبة؟ إلى متى نظل لا نفرق بين أعدائنا وأصدقائنا؟

(*ضجة في خارج المسرح. يدخل الحاجب*)

الحاجب: مولاي، الرسول القفقاسي.

أبو نعمان: (بحيوية) أهلا به، ليتفضل.

الرسول القفقاسي: (*يدخل وهو بالزي القفقاسي التقليدي*) السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أبو نعمـــــان: أهلا وسهلا برسول صديقي العزيز، كيف حال الأمير؟

الرسول القفقاسي: في صحة جيدة يا مولاي، إنه يدعو لكم بالخير، بيد أنه قلق بسبب الأنباء المتضاربة حول الاعتداءات على قوافلكم السالمة. إنه يضع كافة إمكاناته تحت تصرفكم. ويسرني أن أبلغكم بأن الأسلحة التي طلبتموها في حينه، في طريقها إليكم، وستصل خلال اليومين القادمين.

أبو نعمـــان: هذا هو الصديق الحقيقي الذي يتذكرنا في يومنا الأسود.

الحاجـــب: (*يدخل*) مولاي، رسول قادم من القدس.

أبو نعمـــان: (*يردد باستغراب*) رسول قادم من القدس؟ يا الهي جنبنا شر الشيطان. إن قلبي ينبئني بالشر. ليدخل.

الرســـول: (*يدخل بملابس سوداء*) مولاي، جئت لأنقل لكم أنباء مشئومة، سوداء مثل ملابسي هذه. لكم يحز في قلبي أن أتقمص دور غراب البين.

أبو نعمـــان: (*بدهشة وذعر*) ماذا وراءك يا هذا، تكلم.

الرســـول: لقد حلت الكارثة المتوقعة يا مولاي. مجازر لم نشهد لها مثيلا. لقد ذبح أمير القدس الآلاف من أبناء عمومتنا في أرض فلسطين. وتدفق البدو إلى المدينة وهم يقتلون وينهبون بدون وازع من ضمير.

أبو نعمـــان: (*يضع يده على قلبه بألم*) ماذا أسمع يا إلهي؟ مجازر بين أفراد عائلة واحدة؟ لمصلحة من كل هذا؟ (*يجيل عينيه الغائرتين في وجوه الحاضرين*) لمصلحة من.. لمص..لح..ة من..؟ (*ينقطع الصوت وتعقبه آهة. يتمدد بلا حراك على الأريكة. ضجيج وضوضاء*).

علي بن أحمد: يا إلهي، بدأت المصائب تتوالى علينا.

(*الطبيب يدخل بسرعة مع أثنين من مساعديه*)

أدهـم: أفسحوا المجال للطبيب.

الطبيب: (بغضب) لقد سبق أن قلت لكم جميعا بضرورة بقائه وحيدا وعدم زيارته.

عثمان بن علي: ولكنه هو الذي استدعانا.

الطبيب: (*يرفع رأسه بعد الفحص ساهما، الكل ينتبه بصمت*) أنا لله وأنا إليه راجعون، رحمه الله وأسكنه نعيم جناته.

علي بن أحمد: (ينحني على الجثمان) يا إلهي، أحقا فقدناك يا أبا نعمان؟

(الزوجة والولدان يبكون بصمت، الشيوخ يمسحون الدموع. ضجة وضوضاء)

عثمان بن علي: كان ينبغي عليه أن يوصي بابنه نعمان خلفا له.

أدهـــــم: كلا، كان رأيه صائبا. لقد أوصانا أن نعود إلى أساس المسألة.

علي بن أحمد: ولكن أين هو نعمان يا ترى؟

أحدهـــــم: الله أعلم.

أدهـــم: أيها السادة، إن المصيبة قد حلت، وفقدنا أعز إنسان إلى قلوبنا. والموت هو الأجل الذي لا مفر منه. والآن، طالما أننا مجتمعون في حضرة روحه الطاهرة، فإنني أقترح أن يكون رئيس مجلس الشورى خلفا له ريثما يتم انتخاب الرئيس الجديد.

الأكثرية المطلقة: اقتراح وجيه نؤيده بكل قلوبنا.

الأقليـــــــة: لا يوجد ثمة من يسد هذا الفراغ عدا ابنه نعمان.

(المتواجدون على المسرح ينقسمون بالتدريج إلى فريقين متخاصمين، يتجادلان بأصوات عالية وإشارات وكلام غير مفهوم. النقاش الحاد يتطور إلى الدفع بالأيدي والضرب. يتدحرج بعض العمائم وتتمزق القمصان. شخصيات من مختلف المراتب الاجتماعية تتدافع إلى المسرح من وراء الكواليس وتنضم إلى الفريقين المتخاصمين مستعملة العصي والهراوات والسيوف. يسقط بعض الجرحى على الأرض. يستغل بعض اللصوص الوضع، فيسطون على ما يقع بأيديهم. قبل أن تحسم المعركة يجري تعتيم المسرح بمصاحبة موسيقى صاخبة).

المشهد السابع

(في خيمة تاج الدين في الصحراء. الجو يتميز بالأبهة والفخفخة. تاج الدين ونعمان يجلسان على أفرشة وثيرة تحيط بهما مجموعة من الجاريات الجميلات، يحملن الأواني والأقداح).

تاج الديـــن: أرأيت يا نعمان، يا بني، كيف أصبحت الأمور؟ إن المرحوم والدك كان يريد من كل قلبه أن يجعلك خلفا له، ولكن هؤلاء الشيوخ المخرفين هم الذين كانوا يوسوسون له ويلعبون بعقله إلى أن قتلوه. والله وحده يعلم بأي سم أوقفوا نبضات قلبه. وسترى كيف أنهم سيقدمون البلاد كلها لقمة سائغة للأمير القفقاسي. لقد بدءوا يحاربونني أيضا، ذلك لأنني وقفت إلى جانبك. والآن قد آن الأوان كي تتحرك قبل فوات الأوان.

نعمــــان: ولكن كيف، ماذا أفعل؟ إنهم يعادونني جميعا، حتى أنني لا أستطيع أن أتفوه أمامهم بكلمة واحدة. لا أدري من أين أبدأ؟ إنني حائر يا خالي، حائر.

تاج الـدين: يا بني، أنك مازلت بعد قليل الخبرة، أجل. الذنب ليس ذنبك. لقد دللك المرحوم والدك وأبعدك عن هموم الحكم، ولم يطلعك على أسراره. إنك ينبغي أن تبدأ بداية جديدة، وتتبع طريق لم يسبق لهم أن اتبعوها من قبل.

نعمان: إنك يا خالي العزيز تأخذ الأشياء ببساطة، وتتصور أن كل شئ ممكن التحقيق. إن المرحوم قد ربطنا بألف ميثاق وحلف، إني أراها قيودا متداخلة لا يمكن فكها. إنهم في كل صغيرة وكبيرة يرجعون إلى ما يسمى بمجلس الشورى أو إلى بدعة أساس المسألة.

تاج الدين: (*يجلس القرفصاء ثم لا يلبث أن يقف فيتحرك في أرجاء المسرح*) بالذات هذه المسألة يجب أن تستغلها أنت، إنها جدار يعرقل سير الأمور. إن إزاحة هذا الجدار تضع الأمور كلها بيدك. إن كل ما أريده منك هو أن تنتبه إلى كلام خالك الذي لا يريد سوى مصلحتك. قبل كل شئ يجب أن تستغل سمعة والدك وحب القبيلة له. وينبغي عليك أن تخطو كل خطوة باسمه ثم توجه ضربتك الحاسمة والمفاجئة إلى زمرة الشيخ أدهم. ويمكنك أن تتهمهم بأنهم هم الذين اغتالوه ودسوا له السم. ألم يتهموني بضرب قوافل قبيلتكم؟ وبعد أن يتحقق ما تريد، تضرب بكل المواثيق في عرض الحائط ومن أجل تثبيت قدميك سأضع كافة رجالي وإمكاناتي تحت إمرتك. وحين تبدأ بتسجيل الانتصارات ستكون البطل الذي لا ينازعه منازع.

نعمــــان: والقبيلة؟ هل تعتقد أنها تماشيني؟

تاج الدين: (*يقهقه باستهزاء*) القبيلة!.. القبيلة ليست سوى قطيع من الخرفان يركض وراء راعيه يا ولدي.

نعمان: إن هؤلاء الشيوخ لا يقتحمون، ماذا إذا فشلت في تحقيق ما أريد؟

تاج الدين: (بحركة *تمثيلية مصطنعة*) كلا، لن تفشل. إنك يجب أن تضع الانتصارات نصب عينيك وتقول دوما: إنني سأنتصر، أنتصر، أنتصر.. ثم أنك لست وحدك في مواجهة الشيوخ الصعاليك. إن وجهاء القبيلة وتجارها الكبار والأغنياء سيبقون إلى جانبك حتى الموت.

نعمان: (*يفرك يديه فرحا*) إنك تحرك دمائي بعنف يا خالي العزيز. إني لأحس كما لو أريد أن أحلق من الفرح. (*يقفز من مكانه بحركة بهلوانية*) سوف ألقن هؤلاء الأوغاد الذين

وسوسوا لأبي، درسا يذكره التاريخ إلى الأبد. سوف أدعهم جثثا بلا رؤوس (يستل سيفه ويضرب الفراغ) إنني سأنتصر، سأنتصر، سأنتصر..

تاج الدين: (يتنفس *الصعداء*) كانت عواطفي كلها معك يا بني. هل تتذكر فصول الربيع التي كنت تقضيها معنا في الصحراء؟ ورحلاتنا المشتركة للصيد؟ ألم أقل لك مرارا وتكرارا أنك أبن أمك؟ إنني أنا الذي رباك يا بني. وها قد آن الأوان كي ترى الدنيا من أنت.

نعمان: أجل، يا خالي العزيز. إن عرى العاطفة كانت مفقودة بيني وبين أبي. كان يحتقرني دوما. كان لي أبا بالاسم فقط.

الاثنـــان: (يتعانقان) سنموت من أجل بعضنا البعض.

المشهد الثامن

(نعمان يطل من إحدى شرفات القصر، يحيط به بعض أعضاء مجلس الشورى المؤيدين له ومجموعة من الصعاليك واللصوص المسلحين بأنواع الأسلحة).

المنـــادي: بسم الله الرحمن الرحيم. أيها الناس، اسمعوا وعوا. قل جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقا. اليوم أيها الناس، بعد أن أدينا صلاة الجمعة، ولأول مرة في ظل الحرية، ابتهلنا إلى الله سبحانه وتعالى أن يبقي لنا فارس الفرسان وأميرنا نعمان، ذخرا لأمة المسلمين والحق والإيمان. أقول، إن أميرنا الذي يجسد والده العظيم بكل جلائله، يتقدم ليدشن للقبيلة عهدا جديدا من الرخاء والطمأنينة. عهد الانتقام من الأعداء واستعادة ما سلبوه غدرا. (بصوت جهوري مفتعل) والآن نحن وإياكم مع أميرنا المحبوب نعمان فارس الفرسان.

(ضجة، همهمة وضوضاء. تصفيق وهتافات)

نعمان: (*يلتفت يمنة ويسرة بخوف ووجل ويده تكاد تلامس مقبض سيفه. يسعل وينطق بصعوبة*) أيها الناس، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. أخاطبكم من هذا المكان الذي طالما سمعتم منه أقوال المرحوم والدي. وأنا، في الوقت الذي أعاهدكم بمواصلة نهجه، على يقين تام بأن أبناء قبيلتي المقدامة سيكونون في صف موحد إلى جانبي. إنني لا أريد أن أطيل كلامي، إذ أن خير الكلام ما قل ودل. قبل كل شئ ينبغي أن أصارحكم ببعض الحقائق التي أخفيت عليكم. إنني بفضل معونتكم سأعيد الأمور إلى مجراها والحق إلى نصابه. أيها الناس، لقد كادت الكارثة أن تقع، بعد أم وقعت المصيبة الكبرى. إن نفرا من أصحاب النفوس المريضة التي قتلتها شهوة السلطة قد أقدمت على أبشع

جريمة عرفتها البشرية. (*يتصنع البكاء ويتظاهر بمسح دموعه*) أجل أيها الناس، يا معشر قومي، لقد اغتالوا والدي غدرا وبهتانا، وذلك لأنني غبت عنه يوما واحدا فقط. والدي الذي قضى حياته من أجل رفاهية القبيلة. وأرادوا بحجة العودة إلى أساس المسألة، أن يتسلطوا على مقاليد الحكم. ولكنني استطعت، بفضل يقظتكم، أن أقفز على هاماتهم وأعود باسمكم أنتم إلى أساس المسألة، التي كانوا لا يعرفون عنها، سوى القشور. (*ضوضاء، هتافات قوية مضادة وأخرى مؤيدة ضعيفة، يرافقها التراشق بالقشور*). إني أيها الناس، أحذركم من هنا بأن كل من تسول له نفسه للدفاع عن أولئك الأوباش، سيكون ليس بأحسن من مصائر أولئك الذين نالوا العقاب العادل، فما زالت جثثهم معلقة في ساحات المدينة. (*صمت مطبق وهلع*) إن الصعاليك الذين نشروا الفوضى لا مكان لهم بيننا. وأما أراضينا التي اغتصبت منا بفضل الإهمال والتخاذل، فسوف نعيدها بحد السيف. إن هذا العام سيكون عام الانتصارات على أعدائنا في كل مكان، وسترفرف راية بلادنا في كل الآفاق. ويسرني أن أبشركم بأن جيوشنا الباسلة تطارد فلول العدو في هذه اللحظات، وتلحق بها هزائم لم تشهدها من قبل.

(ضوضاء، هتافات مضادة ومؤيدة تتطور إلى شجار وضرب بالعصي والهراوات. مع اشتداد المعركة، يجري تعتيم المسرح بمصاحبة موسيقى شرقية راقصة).

المشهد التاسع

(خيمة شبه مظلمة. ثمة قنديل يضيئ أحد الأركان. أرائك ومصطبة صغيرة. نعمان منكمش على نفسه مثل طفل مذعور وفي حالة شبه جنونية، منزويا في أحد أركان المسرح كما لو أنه يريد أن يخفي نفسه عن الأنظار، يلتفت برعب إلى الزوايا. يتجمد في مكانه بغتة، مركزا نظراته الجامدة في زاوية معينة، حيث يتراءى له شبح وجه يلمع في الظلام. تصاحب حركاته دقات طبول مرعبة، غير عالية).

نعمان: يا إلهي، النجدة، النجدة. كلا، كلا، كنت لا أريدها، لا أريدها أبدا. لقد تورطت. سوف لا أتجاوز الخندق. يجب أن تتوقف المعارك. يجب أن تتوقف مهما كان الثمن. (*أصوات ووقع أقدام خارج المسرح*) النجدة. ترى، هل وصلت النجدة؟ متى؟ متى تصل النجدة؟

تاج الدين: (*يدخل بهدوء وينظر باستغراب*)

نعمان: (*يهجم على تاج الدين ويتشبث به كطفل مذعور*) أنقذني، أنقذني يا خالي العزيز. لقد جئت في اللحظة المناسبة (*ينهار رابضا على ركبتيه أمام تاج الدين*) إن عيناي لا تريان بوضوح، ورأسي يكاد ينفجر من الألم. لم أذق طعم النوم منذ ثلاثة أيام. إن شبح قائد

جيش العدو يلاحقني في كل لحظة. إني أخشى أن يحتلوا كل جزء من أراضينا.

تاج الدين: (*يحاول تهدئته*) وما قيمة الأرض يا بني؟ هل نحن ثعالب أم بنات آوى كي نتقاتل في سبيل الدفاع عن مناطق صيدنا ومأوانا؟ ومتى كانت القبائل تمتلك أرضا. أرض الله واسعة يا بني. اليوم هنا وغدا في مكان آخر. المهم بقاء القبيلة سالمة.

نعمان: ولكنني أخشى أن يأخذوني أسيرا ليجعلوا مني أضحوكة أمام الناس. إنني مستعد أن أفعل أي شئ. المهم هو إنقاذ جلدي. إن سمعتي الشخصية هي سمعة القبيلة.

تاج الدين: (*بتباه*) لا داعي للقلق يا بني. إن رجالك لا زالوا يحتفظون بالخندق ويستميتون في الدفاع عنه، بيد أن هذا القتال لا جدوى منه، ولذلك يمكنك أن تأمر بإيقاف المعارك قبل أن تستفحل الأمور. وهناك من أبدى استعداده للتوسط لدى الأعداء، رغم أن الأمير القفقاسي يحث على استمرار القتال لغاية في نفس يعقوب.

نعمان. إن الخندق يا خالي العزيز ليس كله بأيدينا. لقد تمكن العدو من اجتيازه في منطقة العين المرة. إني أخشى أن نفقد الخندق كله، إذ ذاك سنكون في قبضتهم. إني أرحب بأي وساطة، ولكن القبيلة، القبيلة، ماذا أقول لها؟

تاج الدين: دعني وشأن قبيلتك الخرانية الآن، هناك أمور أهم. أنظر، إن العدو هو الآخر مرتعب من الوضع، ولذلك يجب استغلال اللحظة المناسبة يا بني. قل لرعاعك، أن الأمير القفقاسي قد خانك وإن أسلحته كانت رديئة، ولذلك عليك أن تتوجه إلى أصدقاء جدد. ثم أنك حر في اختيار أصدقائك. إنك إذا وطدت علاقتك مع ملك الأفرنج، فإنه لاشك، سيخفف من مساعداته لعدونا الذي يستمد قوته منه.

نعمان: (*يقفز بحركة بهلوانية*) فكرة رائعة يا خالي العزين، ولكن كيف يمكن تصحيح الأمور بعد أن ساءت وتعقدت؟

تاج الدين: ارأيت يا بني؟ هذا ما لم يعلمك إياه المرحوم والدك. السياسة يا بني مثل امرأة عاهرة، اللسان يقول شئ والرأس يفكر في شئ آخر. تصور، أين هو الآن الأمير القفقاسي، وأين هو أدهم وعلي بن أحمد وغيرهم؟ إن هؤلاء الصعاليك هم الذين عقدوا الأمور بيننا وبين أصدقائنا التقليديين الأفرنج.

نعمان: ماذا يمكننا عمله الآن؟ إن الوقت يمر بسرعة. إني أحس بحوافر خيول الأعداء وكأنها تقترب منا وتطوقنا من جميع الجهات.

تاج الدين: مهلا يا بني، لقد زارني قبل أيام رسول ملك بلاد الأفرنج وطلب مني أن أتكلم معك،

وأن نحتكم جميعا إلى العقل، فهو في الحقيقة معجب جدا بشخصيتك ودهائك. وقال أن ملك الأفرنج معجب جدا بخطابك الأخير.

نعمـــان: (*فاركا يديه ببلاهة*) أحقا قال ذلك؟

تاج الدين: (*مواصلا بتباه*) ثم أن رسول ملك الأفرنج قال أنه يعرف بأن العدو قد اغتصب أرضكم بالقوة. وأنهم مستعدون لتقديم الضمانات الكافية لحل سلمي عادل شامل.

نعمـــان: يا إلهي، إنه أكثر حرصا منا على أراضينا. إني اكتفي بالخندق، بالخندق حسب.

تاج الدين: كلا يا بني، سنحصل على أكثر من ذلك.

نعمـــان: آه يا إلهي، كم أنا مشتاق لعناق هذا الرجل.

تاج الدين: هل أستطيع أن أفهم من كلامك أنك مستعد للقاء به؟

نعمان: ولكن يا خالي العزيز، وهل يحتاج كلامي إلى تأويل؟ إن كل ما تراه أنت صحيحا، أراه أنا أيضا كذلك. إنني من الآن فصاعدا، سأرى الأشياء بعينيك وسأفكر برأسك.

تاج الدين: وماذا إذا قلت أن الشمس تطلع من الغرب؟

نعمـــان: إذا اقتضى الأمر أن تقول ذلك، فعلي أن أصدقك.

تاج الدين: أنت ابن أمك حقا يا ابن شقيقتي التي لن أنسى روحها الطاهرة إلى الأبد.

نعمان: ولكن، قل لي يا خالي العزيز، كيف يمكننا اللقاء بملك الأفرنج؟ وهل يستطيع أن يؤثر فعلا على العدو بإيقاف المعارك؟

تاج الدين: إنه هو الذي يدير المعارك يا عزيزي. وعلى فكرة، إنه ينتظر جوابنا. والوصول إليه هو أبسط ما يكون. إن رسوله هناك وراء الخندق. سنرسل له اليوم مبعوثا، وغدا يتم اللقاء إن شئت.

نعمـــان: أهكذا بسرعة؟

تاج الدين: أليس خير الأمور عاجلها؟

نعمـــان: إذن اتفقنا. ستجري الأمور كما تشتهي أنت، سأنام هذه الليلة ملء جفوني.

(*وقع أقدام خارج المسرح. يدخل قائد جيش القبيلة مع عدد من المرافقين*)

القائـد: السلام عليكم ورحمة الله.

الاثنان: (*بصوت واحد*) وعليكم السلام ورحمة الله.

نعمــان: (*متصنعا الوقار*) بشرنا يا قائد جيشي الحكيم، هل من جديد وراء الخندق؟

القائـد: مولاي فارس الفرسان، إن قواتنا تقاتل ببسالة لا نظير لها، وهي في تقدم مستمر. لقد ألحقنا بجحافل العدو خسائر لم نتوقعها. إننا إذا واصلنا زحفنا بهذا الشكل، فسنعيد كل أراضينا المغتصبة.

نعمــان: ومنطقة العين المرة؟ ألا تريد أن تحدثني عنها؟

القائـد: مولاي، إنها الحرب. إن اجتيازهم للخندق لا يعني أنهم انتصروا.إن مواصلة القتال كفيلة بإبادة الذين اجتازوا الخندق.

نعمــان: اسمع قائدي العزيز، إننا لا نريد مواصلة القتال. إن القبيلة كلها ضد إراقة الدماء. إني آمرك بإيقاف القتال فورا. بلغ هذا القرار إلى كافة قادة الفيالق.

القائـد: مولاي، مولاي، ماذا تقول؟ إن مقاتلينا الآن في ذروة معنوياتهم العالية، إنهم سيوصموننا بالخيانة العظمى إن فعلنا ذلك.

نعمــان: إن مصالح القبيلة العليا تقتضي إيقاف القتال. عليك تنفيذ الأمر، هل سمعت؟

القــائد: (*يخرج وصوته يتلاشى وراء الكواليس*) ولكنها الخيانة، الخيانه، الخيااااانة..

المشهد العاشر

(حاملات الجرار في طريقهن إلى النبع)

الأولى: (*تغني بصوت حزين*)

اليدري يدري

والمايدري قبضة عدس

يا حبيبي ماذا جرى

من الذي وش و دس.. ....

الثانية: ما بالك يا خالدة تعيدين وتصقلين هذه الأغنية؟ أليست لك أغنية أخرى تناسب هذه الأيام؟

الثالثة: إنني أسمع خالدة هذا اليوم وكأنني أسمعها لأول مرة في حياتي.

الثانية: أجل يا صديقتي، أشاطرك رأيك، رغم أن الكلمات هي نفسها. إن الأغنية تبدو لي اليوم غريبة وجديدة، لعل مرد ذلك يرجع إلى حزن خالدة لموت شيخنا أبي نعمان.

الأولى: الحقيقة إنني بكيت لموت أبي نعمان، ولكن حزني الآن هو لسبب آخر.

الثانية: حدثينا عن السبب يا خالدة، هل أنه الحرب؟ إننا يجب أن نفرح للحرب، لأنها ستعيد إلينا أراضينا المغتصبة. إن رجالنا الشجعان قد اجتازوا الخندق ببسالة، أليست هذه مسألة مفرحة؟

الأولى: مهل، مهلا يا عزيزتي. إن الأمور تجري عكس ما تقولين. إن حلمي الذي لم تستطيعي تفسيره، قد تحقق الآن. إن الدماء التي أريقت في سبيل استعادة أراضينا المغتصبة، قد أهدرت عبثا.

الثالثة: لك الحق كل الحق يا خالدة. لقد استرققت السمع ليلة أمس إلى ما يدور من الكلام في مجلس والدي، فسمعت أشياء كثيرة من هذا القبيل. ويقال أن نعمانا ليس سوى إنسان متهور وجبان وسوف لا يقود بلادنا إلا إلى الهلاك.

الثانية: إن أعداءه هم الذين يروجون مثل هذا الكلام.

الأولى: أية أعداء يا صديقتي؟ وهل أبقى عدوا واقفا على قدميه؟ ألم تري الجثث التي قطعت رقابها وهي معلقة من أرجلها؟

الثانية: سترنا الله من سوء العاقبة.

الثالثة: وإلى متى يظل نعمان يفعل ما يشاء؟ وتبقى القبيلة بدون مجلس شورى؟ الأولى: يقول والدي أن أبا نعمان هو الذي جمع شمل القبيلة وأسس المدن العامرة ووفر لنا المياه ووزع الأموال بالعدل بين الناس، والآن جاء ابنه نعمان كي يهدم في أيام قلائل ما بناه والده منذ ثلاثة عقود. ويقول إنه ينفذ خطة خاله تاج الدين، الذي يريدنا أن نتحول مثله إلى غجر بلا أوطان.

ثلاثتهن: *(ينظرن إلى بعضهن البعض بفرح طفولي وابتسامات. كلهن بصوت واحد)*

اليدري يدري

والما يدري قبضة عدس..... ....

(يجري تعتيم المسرح ببطء وبمصاحبة موسيقى شرقية حزينة)

المشهد الحادي عشر

(في الصحراء. ظلام. الرجال يبدون كالأشباح. الأضواء تسلط عليهم ببطء. تاج الدين يقف في مقدمة منتصف المسرح وإلى جانبه رسول الملك الأفرنجي وهو متأنق جدا، بيده عصا، يعتمر قبعة عالية، يرتدي السموكن ويدخن الغليون. نعمان يقف في أقصى يسار المسرح، مديرا ظهره لهما. وفي أقصى اليمين يقف زعيم الأعداء، مديرا ظهره لهما أيضا. عندما يغمر الضوء الباهت المسرح، تتراءى من بغيد تلال رملية وصخور وصبير، إذ ذاك يعدل كل من نعمان وزعيم الأعداء وضعهما، بحيث أنهما يديران ظهرهما إلى بعضهما، كدليل على أنهما لا يريدان التفاوض مباشرة).

الأفرنجي: (*يعدل من وضع رباطه، متقدما إلى الجمهور بلغة عربية مكسرة*) في الحقيقة إنني قبل كل شئ أحب أن أتقدم، أحم، أقدم شكري واعتزازي لأخي الأمير الكبير وصديقي العزيز حامي حماة الصحراء تاج الدين، حفظه الله، الذي لعب دور حمامة السلام في هذه الفترة الحرجة من تاريخ هذه الأمة العظيمة. إننا إذ نلعب هذا الدور المشرف، إنما في سبيل الله ، إذ لا ناقة لنا في هذا الموضوع ولا بعير. ولقد فكرنا، صديقي تاج الدين وأنا في حل عادل لم يسبق له مثيل في التاريخ، ألا وهو طريقة الخطوة خطوة. وسترون بأنفسكم كم هي عادلة وحكيمة هذه الطريقة التي سيفرح لها كل إنسان طيب. (*يرجع إلى مكانه الأول بأسلوب مهذب مصطنع. ينظر إلى تاج الدين بمودة، مؤشرا له بالبدء بالكلام*)

تاج الدين: (*يتوجه إلى المكان الذي تركه الأفرنجي ويعدل من وضع عمامته*) الحقيقة، ليس لي ما أضيفه إلى الكلمات الذهبية التي تفوه بها صديقي وأخي العزيز الذي اعتاد أن يلعب دوما مثل هذا الدور الإنساني في سبيل الله. والله وحده يعلم أننا لا نريد سوى مصلحة الطرفين وإيقاف نزيف الدماء البريئة. وسوف يذكر لنا التاريخ هذا الموقف الذي لن ينسى إلى الأبد. إنني هنا لا يسعني إلا أن أنحني إجلالا أمام هذا الحل العبقري الذي تفتق عن ذهن ملك بلاد الأفرنج الذي تربطنا وإياه روابط تاريخية لن تنفصم عراها. (*يرجع إلى مكانه الأول*)

(تاج الدين والأفرنجي يتهامسان بحيث يكادان يلتصقان ببعضهما. يحركان أيديهما ويهزان رأسيهما بغبطة. يتوجه الأفرنجي إلى زعيم الأعداء وتاج الدين إلى نعمان. يصل كل واحد منهما إلى صاحبه بمصاحبة موسيقى شرقية راقصة مرحة. تجري الهمسات لهنيهة بين الجهتين. الأفرنجي وتاج الدين يعودان إلى مكانيهما. ينظران إلى بعضهما بثقة وانتصار).

الأفرنجي: لما كانت غايتنا هي العدالة وخدمة الطرفين بدون تحيز، ونظرا لمراعاة ظروفهما وحفاظا على ماء الوجه، فإننا ارتأينا أن يكون التقارب بخطوة خطوة وبشكل غير مباشر وعادل.

تاج الدين: أجل، إنها سياسة الخطوة خطوة العبقرية، ذلك أن ظروف الطرفين لا تسمح حاليا باللقاء المباشر. لقد راعينا في ذلك أساس المسألة أيضا.

الأفرنجي: أجل.. أجل..أحسنت أيها الأمير تاج الدين، نحن الأصحاب الحقيقيون لأساس المسألة. بدون العودة إلى أساس المسألة لا يمكن حل أي مشكلة. وهكذا يمكننا خلق جو من الثقة التامة.

تاج الدين: إن أزمة الثقة هي مصيبة المصائب، ولكن الجهود المخلصة ستتغلب على هذه المشكلة إن عاجلا أو آجلا.

الأفرنجي: كما أن مشكلة المخاطبة المباشرة والزيارات المتبادلة سيحلها الوقت والنوايا الحسنة.

تاج الدين: المهم هو الالتزام الصحيح بأساس المسألة وعدم الانصياع لضغوط الرعاع والصعاليك.

الأفرنجي: نعم.. نعم.. بالتأكيد، هذه نقطة مهمة جدا لتحويل سياسة الخطوة خطوة إلى واقع ملموس وتقليد.

(الأفرنجي وتاج الدين يتهامسان. تاج الدين يهز رأسه بالموافقة)

تاج الدين: والآن، باسمه تعالى نبدأ بمهمتنا التاريخية لتقريب الطرفين المتخاصمين، ونحن لا نريد جزاء ولا شكورا.

الأفرنجي: والآن يجب أن يعتبر الخصمان نفسيهما صديقين حميمين لا عداوة ولا بغضاء بينهما.

تاج الدين: (*مبتسما ويمرح*) لا ضير إذا هما كتما هذا الشعور في البداية، إذ أننا نقدر ظروفهما الصعبة.

الأفرنجي: قلنا مسبقا أن الثقة ستنشأ بمرور الزمن. والآن سنتهيأ جميعا للخطوة الأولى.

(ينظر إلى تاج الدين كما لو أنه يأمره بالبدء بالموضوع)

تاج الدين: والآن، سنبدأ بالخطوة الأولى. واحد، اثنان، ثلاثة... (*نعمان وزعيم الأعداء يخطوان، بصورة مثيرة للضحك ويمصاحبة ضربة من آلة نحاسية، خطوة واسعة إلى الوراء*)

الأفرنجي: (*منشرحا ومحركا عصاه في الفضاء*) رائع، رائع، رائع..

تاج الدين: (*يفرك يديه بفرح*) هذا ما يسمونه في لغة السياسة بالخطوة التاريخية. والآن، الخطوة الثانية. (*يسكت هنيهة*) واحد، اثنان، ثلاثة...

(يرجع نعمان، بمصاحبة ضربة من آلة نحاسية، خطوة أوسع إلى الوراء، أما العدو، فيخطو، بمصاحبة نفس الآلة، خطوة إلى أمام، أي أنه يرجع إلى نفس مكانه الأول).

(تاج الدين يراقب نعمان فقط، متجاهلا العدو).

الأفرنجي: (*يرقص فرحا*) عظيم، عظيم، عظيم، يا صديقي العزيز الأمير تاج الدين. إن التاريخ سوف يسجل لك هذا الدور بأحرف من نور.

تاج الدين: (*مغتبطا ودون أن يلتفت إلى العدو*) والآن، الخطوة الثالثة. واحد، اثنان، ثلاثة.

(العدو يخطو خطوة إلى الوراء، ويخطو نعمان خطوة واسعة إلى الوراء أيضا. وتستمر العملية بنفس الطريقة التي بدأت بها، إلى أن يصل نعمان إلى العدو، دون أن يكون هذا قد ترك مكانه خطوة واحدة. ويتماس الظهران مع بعضهما. الأفرنجي وتاج الدين يتنفسان الصعداء وينظران إلى بعضهما بغبطة وسرور ويدوران في مكانيهما بحركات كوميدية وهما متشابكي الأيدي، ثم يتعانقان بقوة).

الأفرنجي: (*يقفز كما لو أنه تذكر شيئا*) دقيقة واحدة يا عزيزي الأمير تاج الدين. أريد أن أتأكد ما إذا كان الظهران متلاصقين؟ (*يقترب منهما بخفة ويحاول عبثا أن يمرر عصاه بين الظهرين، يصيح بصوت عال*) الظهران أصبحا ظهرا واحدا يا تاج الدين.

تاج الدين: (صائحا بصوت أعلى) لا بل دخل الطيفان في لباس واحد يا عزيزي جوني.

(*الأفرنجي وتاج الدين يتعانقان ويقفزان*)

(تدخل فرقة موسيقية غجرية بشكل متناسق من جميع جهات المسرح مع مجموعة من الراقصات والراقصين والمهرجين والعازفين على مختلف الآلات الموسيقية. يتقابل تاج الدين والأفرنجي ويرقصان على إيقاع الطبول. نعمان وقائد العدو يلتفتان إلى بعضهما بدلال ثم يتعانقان ويتخذان مكانيهما على دكة حجرية في منتصف المسرح، كما لو أنهما العروس والعريس).

(*يجري تعتيم المسرح ببطء إلى أن يطبق الظلام*)

المشهد الثاني عشر

(نفس المشهد الأول. نعمان داخل قفص، يحيط به كل من تاج الدين والأفرنجي، وهما يتحدثان إليه بالإشارات. نعمان يحرك رأسه بين الاثنين بحركة آلية، أشبه برقاص الساعة. يخرج المخرج أو أي شخص آخر من وراء الكواليس متوجها إلى الجمهور، علما أن عملية المحادثة الصامتة تبقى مستمرة بإيماءات مختلفة، دون أن يلتفت أي منهم للمخرج).

المخرج: سيداتي وسادتي، قبل كل شئ أرجو المعذرة لتطفلي هذا وسماحي لنفسي بتوجيه الاستفسار إليكم، ما إذا كنتم بحاجة إلى فصل آخر من هذه المسرحية؟

نفس المتفرج الجالس في الصفوف الخلفية: كلا، كلا..

المخرج: ولكن لماذا؟.. إن المسرحية لم تنته بعد.

(تظهر رؤوس كافة الممثلين من وراء الكواليس. الجميع بصوت واحد وبصورة إنشادية)

لأن المشهد

يمثل يوميا

خارج المسرح...

النهاية

أسطورة مملكة السيّد

قصة

١

– لماذا يا ولدي؟ لماذا؟... هل فقدت عقلك؟... ماذا كان سيحصل لو كنت جديداً على المهنة؟... ألم يكن الرعي مهنتك منذ صباك...

قال ذلك الشيخ الذي أطلّ من وراء التل بظهره المقوّس ولحيته البيضاء وهو يتوكأ على عصاه. كان قوياً ثابت الخطوات، يبدو عليه العناد. وقف في مكانه ملتقطاً أنفاسه وهو ينظر حواليه بحزن وألم. وكان الغضب الكامن في أعماقه يحول دون أن يستكين.

وكان الراعي المستمر في مكانه قد نكس رأسه، يحدق في ظله الذي استطال بشكل غريب وأمتدّ الى الجانب الثاني من الوادي، خارقاً اللون البرتقالي الذي غطّى كل شيء. وكان قرص الشمس الباهت يميل الى الغروب، باعثاً حوله كتلة من الألوان المتداخلة. كان يَحسّ بطنين حاد يخرق رأسه، قادماً من مكان مجهول في أعماقه ليعود مرةً أخرى وينتشر في جسده المتعب الذي شعر كما لو أنه أصيب بالشلل. أراد ان يقول شيئاً. أحس بالكلمات تخرج من أعماقه وتصل ببطء الى فمه، ولكن اللسان كان يأبى أن يحوّلها الى صوت مسموع، فتتبدد كالفقاعات في داخله.

ولاحظ ان ظلّه يستطيل أكثر...

كان في صغره يركض وراء ظلّه محاولاً الأمساك به وضارباً إياه بالعصا. وكانت اللعبة المفضلة لديه في ليالي الشتاء هي الركض وراء ظله المتراقص على جدار الكوخ، حيث جده يمسك بالفانوس من خلفه متنقلاً به يمني و يسرى الى ان يتعب ويلقى بنفسه في حضن جده. ويمسد الجد رأسه الصغير بيده المعروقة و يهمس في أذنه بصوت متناغم دافيء حكاية من العصور الغابرة أو يغني له مقطعاً من أغاني الرعاة يختتمها بنصيحة: «إذا وقعت من صهوة حصانك على الأرض فلا تتأوه يا ولدي مثل جبان رعديد. اقفز على ظهر حصانك مهما كان ألمك شديداً. لا تتوان عن فعل ذلك حتى إذا تحطمت ظلوعك أو انكسرت رجلك. إن حصانك سيوصلك الى مكان أمين، أنه لن يخونك. كل ما في الأمر هو أن تحسن قيادته».

كان شروده يستطيل مثل ظله. أراد ان يرفع رأسه بنظرةٍ الى الشيخ، ولكن الظلّ كان يشده الى الأرض ثم أنه أحسّ أن الإثم أثقل من رأسه.

أهكذا و بهذه السرعة ينسى الإنسان نفسه؟ كان الظلّ يحفر في مشاعره مثل قطرات مطر نيسان التي تتوغل أعماق التربة. وأحس بالحقد يزداد و يتكاثف في داخله متحولاً الى سم قاتل يكاد يحرق دمه. وتنهد بعمق.

نغزه الشيخ بطرف عصاه، قائلاً بإنفعال:

– أتراني أتكلم مع حجر؟ هل أصابك مسّ من الجنون؟ أتريد ان اهشمَ رأسك بضربة من عصاي حتى أعيد لك عقلك؟ هه؟ تكلم...

... أحياناً، سواء شاء الإنسان أم أبى يتحول الى طفل، فهل ان أحساساً مثل هذا بدأ يجتاح مشاعره؟ هل من الممكن ان تحتل اللاأبالية مكان الحقد و تخف وطأة ثقل الإثم من على رأسه، فيبدأ بالتفكير بصورة غير منفعلة؟ كم جميلة هي الطفولة. وأحس بيد رقيقة تمسد له رأسه وبالكلمات الدافئة المتناغمة تخرق حاجب الطنين في أذنه... وأغمض عينيه، ولكنه سرعان ما فتحهما بعد ان تراءت له صورة المجزرة. رفع رأسه بهدوء وقال بصوت كبير:

– ماذا تريدني أن أقول؟ لقد حصل ما حصل... وماذا يجدي الكلام؟

لم يستطع الشيخ ان يكبت غضبه الذي انفجر، فراح يهزّ كتف الراعي بقوة كما لو أنه يريد ان يبعث الحياة في جثة ميتة:

– أتقول ماذا يجدي الكلام أيها الأبله؟ فما الذي يجدي إذن؟ تحجرك في مكانك؟ واكتئابك مثل أرملة يائسة؟ هه؟... ماذا يجدي إذن؟

قال الراعي وقد أرتسمت على وجهه إبتسامة مشرقة غيرّت ملامحه كلها فجأة:

– العمل... العمل يا شايب...

٢

كان الراعي يتنقل فيما مضى بكل حرية بحثاً عن الكلأ لقطيعه الكبير الذي كان يزداد عدده عاماً بعد آخر بصورة ملفتة للنظر. وكان يجتاز السهوب والوديان والجبال الوعرة ليلاً ونهاراً دون ان يهاب أي شيء. ورغم الهجمات المباغتة للذئاب الشرسة هنا وهناك، فان ضحاياه كانت قليلة بالنسبة الى تكاثر القطيع. كان قطيعه يعيش في ربيع دائم. وفي أشهر الصيف حين كان الكلأ يجف في أطراف الجزيرة وسهل أربيل والحويجة يكون هو قد انتقل بقطيعه الى ذرى جبال كردستان، حيث العشب الطري والأرض النديّة ومياه العيون. كان له ثلاثة أصدقاء أوفياء: حصانه وكلبه وبندقيته. كان كلبه إذا رأى ذئباً فمن المستحيل ان يتخلص من أنيابه الحادة. وأما إطلاقات بندقيته فلا تذهب عبثاً. لقد بدأت نكبته في أحد أيام الخريف حين عضّ ذئب مسعور كلبه ففقده دون ان يعوضه، فبقي معتمداً على بندقيته في الحفاظ على القطيع.

وذات يوم من أيام الصيف القائض حيث الماء والكلأ كانا شحيحين أكثر من أي وقت مضى، كان في طريقه للبحث عن الكلأ، وكان قد ترك وراءه أميالاً طويلة مرّ خلالها بمحاذاة غابات النخيل اللانهائية وضفاف الأهوار وأراضي السبخ الهشة التي لا ينبت فيها سوى الشوك والعوسج. كان يواصل سيره تحت اشعة الشمس المحرقة بلا كلل، وإذ هو يحلم، من خلال السراب الممتد أمامه مثل بحيرة لا نهائية، بالمروج والمياه، وجد نفسه بغتة أمام منطقة واسعة من المراعي الخضراء تُرعى فيها عدة قطعان. سحب زمام حصانه الأصهب فجأة وبلا إرادة منه و وقف يتأمل المكان مبهوتاً. كانت الأغنام ترعى بإطمئنان. وأما الرعاة الثلاثة وكلابهم فقد استغرقوا في نوم عميق تحت ظلال الأشجار الوارفة. ومما جلب انتباهه سياج من الأسلاك الشائكة يحيط بالمنطقة الخضراء. وبدا له ان السياج انما وضع لتحديد المنطقة أو ان العمل مازال جارياً لتثبيته، ذلك لأن السياج كانت تتخلله ثغرات كثيرة.

صاح بصوت عال:

– هي ي ي ي ي ... من هناك؟

لم يجبهُ أحد. كانوا قد استغرقوا في نوم عميق لا يُسمع سوى شخيرهم العالي. أطلق رصاصة فوق رؤوسهم. استيقظ أحدهم متثائباً بكسل، بينا بدأت الكلاب تعوي بخمول هازة ذيولها في أماكنها دون ان تتحرك. وراحا يحدقان في بعضهما بإستطلاع كما لو انهما قد التقيا من قبل. وصاح الراعي المتثائب الذي سرعان ما قفز من مكانه:

– أوه... حمزة، أهذا أنت؟... أنت حقاً؟ كنت أبحث عنك، بل كلنا كنا نبحث عنك وها انك جئت

بنفسك. حسناً فعلت بمجيئك... انظر، هذه هي النعمة الحقيقية، ينابيع المياه والخضرة الدائمة. إننا نعيش هنا مثل الأمراء... لا تسكع بين البراري والجبال، ولا سهرات الليالي خوفاً من الذئاب وبنات آوى... هنا تستطيع أن تنام ليلاً ونهاراً. تعال إلينا يا حمزة وتخلَّص من حياة الشقاء والركض وراء الكلأ...

قال حمزة بإستغراب وعيناه مازالتا تسبحان فوق المروج والحقول الممتدة الى ماوراء الأفق:

– قُل لي، كيف وجدتم هذا المكان؟... ثم... يترآءى لي أن هذا المكان ليس مرعى مشاعة للجميع...

– طبعاً مرعى مشاعة للجميع يا حمزة...

– الا تحسون هنا بالملل؟

قال الراعي الذي لاحظ حمزة ان علائم البلادة قد زادت على وجهه الذي زالت عنه ملامح حياة الرعي القاسية:

– حين تعيش هنا اسبوعاً واحداً ستتحسر على الأيام التي ذهبت من العمر بحثاً عن الكلأ يا حمزة. كل شيء متوفر هنا. اننا نتناول هنا ما لم نحلم به في حياتنا... حمزة، هل تتذكر أيام كنا نرعى الغنم سوية ونتحدث عن الحياة التي يمارسها أهل المدن؟ وكيف كنا نتصور الشراب الذي يسكرون به؟ أجل، اننا نشرب الآن أفضل أنواعه... أنني لا أريد ان اغريك حتى تأتي إلينا، فأنت أدرى بمصلحتك، ولكنك صديقي يا حمزة فأنا أيضاً أريد مصلحتك...

قال حمزة متظاهرا بالغضب وهو يبلع ريقه:

– أبن القحبة، هل تريد أن تضحك عليّ؟ منذ متى تعلمت على المقالب؟

أرتاح الراعي للشتيمة بعد ان تأكد بأن كلامه لم يذهب عبثاً:

– ثق باللّه العظيم يا حمزة، ان كل ما أقوله صحيح. ليس لي أي مصلحة في الكذب. جرِّب، أبق معنا وسترى كل شيء بأم عينك. ان صاحب المقاطعة يعرفك ويريد ان يتحدث معك في هذا الموضوع... ثم إذا لم يعجبك الوضع يا حمزة فإن للسياج ثغرات كثيرة، تستطيع ان تترك المكان متى ما شئت فأنت في كل الأحوال لم تخسر شيئاً.

قال حمزة وشكهُ المعهود رسم ألف علامة إستفهام حول مجمل الموضوع:

– ولكن كيف؟... هل ان صاحب المقاطعة يوفر لكم كل هذه الامتيازات حباً بسواد عيونكم؟ وبدون مقابل؟

– أنه يملك معملاً للألبان قريباً من هنا، نبيع له الحليب بسعر مناسب، كما يجب ان نبيع له

الصوف أيضاً، وأما ماذا يفعل بالحليب والصوف فأمر لا يهمنا. كل ما في الأمر هو أننا يجب ان نبيع له إنتاجنا، ولذلك فأنه يعمل من أجل ان يجمع شمل كل رعاة المنطقة حتى يعمَّ الخير ويستفيد الكل.

قال حمزة بأستغراب مفكراً في هذا الشيء الذي لم يسبق له ان عهد به من قبل:

– هذا كل ما في الأمر؟

قال الراعي بلهجة المقتنع:

– هذا كل ما في الأمر يا حمزة؟

أطرق رأسه هنيهة وشرد ذهنه. كان أحد الرعاة قد فكّ سرج الحصان وسقاه وقدم له العلف اللازم في اصطبل قريب... قال حمزة كما لو انه يدمدم مع نفسه:

– لاشك أن هناك أمر غامض.

– كلا أبداً، لا تخلق لنفسك تصورات وهمية لا أساس لها. إننا نحن الرعاة لا نستطيع التخلص من هذه العادة القبيحة، عادة الشك بكل شيء. صحيح ان الرجل كان شقياً فيما مضى، ولكنه الآن صاحب عائلة وأولاد ومنصرف لشؤون معمله دون ان يضرّ أحداً، وهو فعلاً بحاجة إلينا، ثم أننا لانعطيه الحليب والصوف مجاناً.

وقبل ان يكمل حديثه ظهر صاحب المعمل:

– يا لها من صدفة جميلة، أنظر ها هو قد جاء. لاشك أنه رآك من بعيد فعرفك... أرجو ان تكون لطيفاً معه. إن أقل تعنت منك سيعيده الى ماضية ونحن يجب ان نساعده حتى يتخلص من ظل الماضي.

وعرف حمزة بسليقته ان حضور الرجل ليس من باب الصدفة. ان الرجل الذي أعتنى بالحصان قد أختفى لفترة غير قصيرة.

نظر حمزة الى ملامح الرجل بشك وريبة. وكان قد سمع عنه أشياء كثيرة غير مريحة مثل الاشتغال مع المهربين وقطاع الطرق واللصوص ومتهم بأكثر من حادث قتل... وأما الآن فيملك معملاً كبيراً للالبان.. أين هذا من ذلك؟ واختلطت عليه الأمور وقال في نفسه: «اللصوصية والقتل شيئان يلازمان حياة الريف... قد أقتل أنا أيضاً إذا تعرض قطيعي للخطر، وقد أضطر للسرقة أيضاً إذا أستدعت الحاجة. والإنسان يمكن ان يتوب أمام الله، والله غفور رحيم. وإذا كان الزمان قد تغيَّر بهذا الشكل فلماذا أظل راكباً رأسي أشك في كل شيء ولا أعرف التفاهم والمصلحة؟». وقطع صوت الرجل سلسلة أفكاره، قائلاً بحرارة:

– أهلاً وسهلاً بالأخ العزيز حمزة... لقد كنت أنتظر هذه اللحظة على أحرَ من الجمر... ثق أنني بحاجة إليك يا حمزة وأعتقد أنك لاتخيب ظني فيك ولا تخذلني. وعانقه الرجل بقوة غامراً وجهه بالقبلات:

– انت أخي وصديقي، المقاطعة مقاطعتك أفعل بها ما تشاء...

وأشار بغمزة من عينه الى الراعي الآخر ان ينصرف، ثم مدَ يده ماسكاً حمزة أخذا إياه بإتجاه بيت فخم وراء سور من الأشجار. وكان حمزة يسير كالمأخوذ دون أن يصدق ما يجري حواليه. كان يخيَل إليه أنه في حلم وكلمات الرجل الهادئ تتسرب الى أذنيه كالسحر:

– ان لك مكانة خاصة في قلبي يا أخي حمزة. إنني سوف أعاملك غير معاملتي لهؤلاء، فأنت الراعي الوحيد في المنطقة والذي له القدرة الحقيقية على الرعي.

كانت الدهشة قد عقدت لسان حمزة. وأحسَ في أعماقه ان المفاجأة قد ايقظت في داخله كل الطيبة الرعوية المتوارثة عن الأجداد عبر آلاف السنين، وتحول الرجل أمام عينيه دون إرادة منه الى ملاك طاهر أبيض يسبح في الفضاء بكل براءة وعفة.

تناولا وجبة طعام شهية معاً، فالقضية اذن وصلت الى حد الخبز والملح. ولابد ان يزول كل أثر للضغينة والحقد والشك. ان الرجال الحقيقيين هم من يلتزمون بالعهود ولا يطعنون حتى أعداءَهم من الخلف، أجل، هكذا بدا الرجل وتصرف أمام حمزة، الراعي الذي لم يعرف الكذب والخديعة والنفاق، الذي تمردَ قبل أكثر من أربعة عقود على الاقطاعي الشرس الذي حول حياة الفلاحين الفقراء في المنطقة الى جحيم لا يطلق. وكان الرجل (السيدَ) كما كان الرعاة يسمونه، يعرف جيداً ان حمزة صعب المراس وان ترويضه في داخل المقاطعة عملية غير سهلة وعليه ان يكون حذراً كل الحذر، فان العصفور إذا خرج من القفص فإنه لن يعود اليه أبداً، ثم ان هذا العصفور سينقلب عليه صقراً، بيد ان السيد لم يكن من الرجال الذين يتميزون بالصبر الطويل أو من النوع الذي يتخذ من الآخرين أصدقاء له، وكان حمزة يعرف هذه الحقيقة ولكن طيبته الفلاحية التي بلغت حدَ السذاجة كانت تسدل الستار على هذا الجانب الأسود من شخصية السيدَ. ثم انه فكَر أكثر من مرة بأن الخروج من هذا المكان، اذا اقتضت الضرورة، ليس بالأمر الصعب ولاسيما ان السياج مفتوح من أماكن عديدة فلم الخوف وضرب الأخماس بالأسداس؟

تناول السيدَ بيديه الأثنتين وقال بإستعطاف لم يعهده حمزة من قبل:

– ثق أنني لا أطمح في أي شيء. كل ما في الأمر هو ان يبقى القطيع داخل المقاطعة وتعاهدني بعدم بيع الحليب والصوف الى شخص آخر. انك لاتستطيع ان تقدر الخسائر اذا توقف المعمل يوماً واحداً عن العمل...

أضاف حمزة بعد ان وافق على هذا الشرط:

– ولكنني لا أوافق على ان يختلط قطيعي بالقطعان الأخرى.

قال صاحب المقاطعة بنوع من عدم الارتياح:

– كما تشاء.

تابع حمزة بلهجة اصرار:

– ولا أخفي عليك سراً إذا قلت لك أنني أحب أغنامي بشكل غريب، فقد أعتنيت بهم واحداً واحداً وربيتهم بكل عناية فنموا وكبروا وتكاثروا أمام عيني، وسهرت الليالي حتى اجنّبهم هجمات الذئاب الشرسة وجبرت بيدي كسورهم، ولذلك لن أقبل ان يتعرض أي واحد منهم للذبح مهما كان السبب، وعلى فكرة فأنني لم أذبح خروفاً واحداً في حياتي...

قال صاحب المقاطعة بنوع من الاستخفاف، وهو يحاول عبثاً إخفاء تهجمه الملازم له:

– هل هناك شرط آخر يا حمزة؟

– أريد مكاناً خاصاً داخل المقاطعة أسيجه فيما بعد بنفسي...

– ولكن، لم هذه التعقيدات؟

– لأنني معظم الأحيان أستيقظ في الليل وأراقب أوضاع القطيع... عادة قديمة لا أستطيع التخلص منها مع الأسف...

قال السيدّ بنبرة، أحس بها حمزة غير مريحة:

– اتفقنا يا حمزة... والآن يمكنك ان تقود القطيع الى داخل المقاطعة.

كان القطيع كبيراً، وأندهش صاحب المقاطعة من أنه قد أحتل أكثر من نصف الأراضي المخصصة للرعي. أعتراه شعور من الحسد، وقال في نفسه: «أبن الزانية، كيف أستطعت ان تُكون كل هذا القطيع؟ كيف سيكون مصير المقاطعة بعد موسم الولادة وجنابه لا يوافق حتى على ذبح خروف واحد. إذا بقيت الأمور كما يشتهي هو فمعنى ذلك انه سيحتل المقاطعة كلها بعد أعوام قليلة... المهم انه دخل السياج».

كان حمزة يستنشق بنشوة رائحة الغبار المتصاعد الذي تركه الأغنام وراءها. لا يدري لماذا أحس بزهو كبير. وحين تأكد من دخول القطيع كله، تنكب بندقيته وتبعه الى داخل المقاطعة، ولكنه قبل ان يجتاز البوابة شعر بضربة يد خفيفة على كتفه، وحين التفت الى مصدر اليد واجهه السيدّ بأبتسامة خبيثة قائلاً:

– ارجو ان تعطيني هذه.

قال حمزة دون أن يفكر وبصورة لاإرادية:

- مستحيل...

ضحك السيدً وقال بصوت اجش:

- انك لا تحتاج إليها ياصديقي، ثم لماذا هذا العبء؟

- كلا، إنها جزء مني... إنها مصير قطيعي.

- لا يا صديقي العزيز لا، ثق انك لا تحتاج اليها. ثم ماهي حاجتك اليها؟ ممً تخاف؟

- الذئاب... كيف أحمي القطيع من الذئاب؟

قهقه السيد بسخرية وهو يقول بثقة مطلقة بالنفس:

- الذئب الذي يعبر السياج لم يولد بعد يا صديقي... ان مثل هذه الذئاب لاتوجد سوى في الخيال، ثم أنني وافقت على كل شروطك.فلماذا لاتوافق على شرط واحد لي؟ هذه ثقتك العالية بي؟ ألم نأكل الخبز والملح معاً قبل قليل؟ لا يا صديقي العزيز لا، انها بداية غير حسنة. ان شرط عملنا هو الثقة المطلقة.

إنني اطمئنك بتحمل مسؤولية ضياع أي خروف شخصياً.

سلًمه البندقية على مضض وبشيء من الإنفعال. تنفس السيدً الصعداء وقال قبل ان يختفي:

- ستجد في هذه المقاطعة الجميلة كل الراحة والإطمئنان والسعادة...

٣

كان السيدً قد اعتاد أن يذبح مرة في الأسبوع خروفاً سميناً أو خروفين من أحد القطعان الموجودة على أرضه دون ان يخبر أصحابها، وكان هؤلاء يعرفون ذلك، ولكنهم يغضون النظر عنه، وذلك لثقتهم المطلقة بأنهم لايستطيعون إيجاد مكان أفضل من هذا. ثم انهم اذا اخذوا قطعاتهم الى البراري والجبال فإن حصة الذئاب أو المرض والهلاك تكون في كل الأحوال أكثر بكثير، في إعتقادهم، من هذه الحصة البسيطة التي يكمركها السيدً. وكان السيدً هو الآخر يعرف جيداً أن هؤلاء قد تعلموا على الراحة فمن المستحيل ان يعودوا الى طراز معيشتهم القديمة، ولاشك ان حمزة سيتحول الى واحد منهم بمرور الزمن، عند ذلك يعرف كيف سيتصرف بخرفانه السمينة التي تتكاثر مثل الذباب.

عندما بدأ حمزة حياته الجديدة معهم، سمعهم يتهامسون فيما بينهم بإتجاه ضرورة إحترام مشاعر السيد والحفاظ على صداقته بكل الوسائل. وكانوا يعتبرون العيش في مقاطعة السيد شرفاً لا يضاهى.

كان حمزة يستطيع ان يعرف بنظرة واحدة يلقيها على القطيع، ما إذا كان ينقصه حتى رأس

واحد. كان ينام في النهار وفي الليل يتخذ مكانه وسط القطيع المتجمع في المكان المخصص له.

مرّت أسابيع دون أن يمس أحد القطيع. وذات ليلة مظلمة رأى رجلاً يعبر السياج فهرع اليه بخفة. وقبل ان يقود الخروف الى ماوراء السياج أمسك به، ولكن السارق أستطاع ان يتخلص منه بضربة قوية من كعب مسدسه على مؤخرة رأسه.

،في اليوم الثاني وجد ان أحسن رأس قطيعه قد أختفى. وكان الصداع حاداً مؤلماً. وقرر ان يذهب لمقابلة السيد. وقبل ان يبلغ صف الأشجار ظهر رجلان قويان بملامح جامدة يحمل كل واحد منهما بندقية رشاشة. قالا بصوت واحد وبلهجة آمره:

– أرجع الى حيث أتيت، السيد غير موجود هذا اليوم.

قال بإلحاح:

– ولكنني يجب ان أراه هذا اليوم. أبلغاه بطلبي هذا فوراً. هناك أمر مهم جداً.

نظرا إليه بأستخفاف وبدون أكتراث. قال أحدهما:

– لقد قلنا ان السيد غير موجود هذا اليوم، فهلاّ تفهم لغتنا؟

قال الثاني:

– لقد سافر السيد الى مكان آخر لإنجاز بعض الأعمال المهمة وعندما يرجع سنبلغه بطلبك. والآن نرجو ان ترجع الى حيث أتيت.

كان يذهب في صبيحة كل اليوم الى نفس المكان بغية اللقاء به دون جدوى الى ان انقضى أكثر من أسبوع حيث جاءه أحد الرجلين يطلب منه المجيء لمقابلة السيد.

كانت أوصاله ترتجف من الغضب حين قابل مالك المقاطعة، لكن هذا راح يهدئ أعصابه بإعتذاراته الكثيرة لعدم تمكنه من اللقاء به منذ أول يوم وذلك لعدم وجوده على أرض المقاطعة، ثم طلب إليه أن يذكر له سبب المقابلة... أدرك حمزة لأول مرة ان لا علاقات صداقية في هذا المكان وان أي لقاء بالسيد لايجوز إلا إذا تعلق بالعمل، وأحس انه رغم إعتذاراته الكثيرة غير المقنعة فان لقاءه هذا يختلف إختلافاً جوهرياً عن لقائهم الأول. قال حمزة بلهجة صارمة:

– كنا قد اتفقنا بأنك ستضمن سلامة القطيع، ولكنك اذا كنت في وضع لا يساعدك على ذلك فأعد لي البندقية.

قال بعجرفة ذكرته بإقطاعي منطقتهم، والذي تمرد عليه قبل أعوام طويلة:

– لا يا حمزة لا... لاتخف... اني سأضمن لك سلامة القطيع. لقد حدث خطأ في تلك الليلة. ان الرجل الذي عبر السياج لم يقصد قطيعك انت، لذلك أرجو ان تنسى هذا الموضوع...

– الأمر سيان ياسيدي سواء أقصد قطيعي أم قطيع غيري. المهم أنه عبر السياج. هذه مسألة لايمكن السكوت عنها.

قال بحدة وعجرفة اكثر:

– أنظر يا حمزة... أنت مسؤول عن قطيعك فقط وأما قطيع غيرك فمسألة لاتخصك. وأحب ان أقول لك بأن لاتتدخل فيما لايعنيك. لقد قلت لك مسبقاً بأن لك مكانة خاصة عندي وبأنني سأعاملك غير معاملتي لأولئك، لذلك عليك ان تمدّ رجلك بقدر لحافك...

كان حمزة لم يتعود على سماع مثل هذه اللهجة سوى من أعدائه، بقى مبهوتاً لهنيهة. وتذكر أن تحديه للاقطاعي الذي كان يمتاز بنفس اللهجة والغطرسة هو الذي جعله ان يختار البراري والجبال والحياة القاسية وعدم التقيّد بالأستقرار في المنطقة. والآن يجابهه هذا بنفس الأسلوب، فما هو موقعه يا ترى بالنسبة الى هذا السيد؟ وماذا يتصور السيد يا ترى...؟ هل أنه دخل المقاطعة كصديق أم خادم يأتمر بأوامر سيّد يريد ان يحل محل سيّد آخر؟ تزاحمت الكلمات في رأسه. وقف في مكانه كما لو انه لايستطيع الكلام إلاّ وقوفاً بصرامة:

– أعتقد اننا نعرف بعضنا البعض جيداً ياسيد... ولقد أعترفت بنفسك بأنني لست كالرعاة الآخرين، ولذلك أحذرك بأن أي مس بقطيعي يعني القطيعة التامة بيننا...

وترك المكان دون ان ينتظر الجواب، وفي دخيلته شعور غريب أوحى اليه أنه متسكع يطرق أبواب اللئام.

٤

كان الرعاة الثلاثة قد التصقوا ببعضهم البعض بهلع ينتظرون على أحر من الجمر قدوم حمزة. وعندما رأوه قادماً مرفوع الرأس وبخطوات ثابتة يبدو كما لو انه خرج ظافراً من معركة مصيرية، جمدوا في أماكنهم وهم يقيسونه طولاً وعرضاً مستغربين من رجوعه سالماً. قال الأول:

– كلاهما مجنونان، جنبنا اللّه شرّ التصادم بينهما.

قال الثاني:

– ان وجود حمزة بيننا مسألة من صالحنا، لذلك ينبغي علينا ان نسانده.

قال الثالث برعب:

– معاذ اللّه ان نفعل ذلك. ان السيد إذا غضب علينا فأننا سنفقد كل شيء. إنكم لاتعرفون كم هو رهيب...

وعندما أقترب منهم حمزة بأبتسامته العريضة، أضاف الثالث متوسلاً:

– حمزة، ثق أني أريد مصلحتك. كان من المستحسن ان تسكت. ماقيمة رأس واحد بالنسبة لثروتك؟

حدّجه حمزة بنظرة فيها سخرية وقسوة قائلاً:

– أنا لم أعرفك في حياتي سوى جبانا رعديداً، فخير لك ان لاتتدخل في شؤون الرجال.

قال الثاني:

– حمزة، أننا بحاجة اليك. أخشى ان تغضب ذات يوم وتتركنا هنا لوحدنا. ثق ان اللقمة التي يقدمونها لنا هنا لا أستطيع بلعها لأنها من لحم أغنامي.

قال الأول:

– كفى كلاماً... دعوه الآن يخبرنا عما جرى بينه وبين السيد...

قال حمزة بهدوء محاولاً إعطاء صورة واقعية للسيد الذي تحول أمام أعين هؤلاء الى لغز اسطوري لايمكن حله:

– ان هذا الذي جعله الزمن الردئ سيداً يريد ان يقتنع فعلاً بهذه التسمية التي لا يصدقها هو بنفسه. وليس هذا حسب، بل انه يريد ان يجعل من نفسه أسكندر ذي القرنين هذا الزمان، فأما ان نخرج هذه القطنة من أذنه ونجبره على السير في الطريق الصحيح، أو نتركه يفعل ما يشاء ونتبعه مثل الكلاب السائبة. إذ ذاك سيتحول فعلاً الى أسكندر ذي القرنين. ولعلمكم فقد حذّرته من عاقبه مسّ قطيعي...

قال الثلاثة بدهشة وبصوت واحد:

– ماذا قال؟

– لم أنتظر جوابه... قلت كلامي وخرجت...

قال الثالث وهو يكاد يبكي:

– يا إلهي... ماذا فعلت يا حمزة... لقد خربت كل شيء... الى متى تظل راكباً رأسك؟ قال الثاني:

– حسن فعلت يا حمزة، ليعرف السيد ان هناك من لاينحني أمامه... أننا إذا تماسكنا فيما بيننا فإن أي متسلل مهما كان لايستطيع عبور السياج.

قال الأول:

– يؤسفني أنني لا أستطيع مواجهة السيد بكلمة واحدة حتى إذا ذبح قطيعي كله.

قال الثالث:

– ان قطيعي أمامه... يستطيع ان يفعل به ما يشاء.

انصرف الأثنان ويقى الثاني واقفاً في مكانه، بينما ذهب حمزة الى قطيعه غاضباً وهازا رأسه بألم وهو يقول:

– لم لا؟... لم لا يتحول أسكندر ذي القرنين إذا كان هؤلاء الخصّيان هم رعاة هذا الزمان؟

٥

عندما بدأ الظلام ينتشر في سماء المقاطعة ترك الراعي الثاني منزله وهو يلتفت يمنى ويسرى بحذر شديد، فلما لم يجد أثراً لأحد تسلل بخفة الى منزل حمزة. وكان هذا مستلقياً على عباءة من الفرو مستغرقاً في تفكير عميق يبدو كما لو انه يخطط لمشروع ما.

قال حمزة متفحصاً ملامح صاحبه بأستغراب:

– ما بالك ترتجف من الخوف؟ هل حصل لك شيء؟..

قال الراعي بصوت مرتجف وخافت:

– لا يا حمزة لم يحصل لي شيء، لكنني كنت أخشى ان يراني أحد وأنا في طريقي اليك!...

تربع حمزة في مكانة بدهشة وقال:

– ماذا تقول؟ هل ان الزيارات ممنوعة؟

– طبعاً يا حمزة... ان الزيارات في الليل ممنوعة منعاً باتاً.

أنكمشت ملامح وجه حمزة:

– ماذا؟ أنا أحلم؟ أم أنك في وضع غير طبيعي؟

– لا يا صديقي حمزة لا... لا أنت تحلم ولا أنا في وضع غير طبيعي. هذه هي الحقيقة.

قفز حمزة من مكانه بخفة وراح يذرع أرض الغرفة جيئة وذهابا وهو يقول دون ان يلتفت الى صاحبه:

– أنني أكتشف هنا كل يوم شيئاً جديداً...

هزّ الراعي رأسه:

– وستكتشف أشياء كثيرة أخرى يا حمزة.

أطرق حمزة رأسه وراح ينظر الى الأرض كعادته كلما أستعصى عليه شيء، ثم رفع رأسه ناظراً في وجه صاحبه:

– أننا يجب ان نفعل شيئاً...

قال الراعي متحسراً:

– لا نستطيع القيام بأي شيء يا حمزة، لأن الراعيين الآخرين متفقان مع السيد بحيث أنهما أصبحا جزءاً من حاشيتهِ.

– عجيب... وكيف يوافقان ان تسرق أغنامهما أسبوعياً دون ان يحركا ساكناً؟

– لا تكن ساذجاً يا حمزة... إنهما أصلاً لا علاقة لهما بالرعي. والسيد هو الذي أشترى لهما معظم أغنام قطيعيهما. أنهما مجرد واجهة لجذب الرعاة الآخرين الى المقاطعة. ولقد سمعت منهما ان السيد قال لهما ذات مرة انه سيجلب جميع رعاة المنطقة الى مقاطعته شاءوا أم أبوا، لذلك فان مهنة الرعي خطوة خطرة جداً. وأكد لهم ان الرعاة إذا لم يوافقوا على المجيء الى مقاطعته فإنه سيبيد أغنامهم بلا رحمة...

قال حمزة كالواثق من نفسه وبإعتداد:

– لقد كنت على حق حين تصورت ان الرجل يريد ان يكون أسكندر ذي القرنين هذا الزمان. كان أبي محقاً أيضاً عندما قال ان الشجرة العوجاء لن تستقيم، لذلك يجب قطعها... ولكن كم من الماء تحتاج هذه العجينة يا ترى؟

– تصور يا حمزة... في أول لقاء بيننا كاد السيد ان يكسر ضلوعي من شدة العناق والترحيب، وأما الآن فأنني لا أتذكر متى التقيت به آخر مرة. انه يعاملنا مثل الخدم.

قال حمزة بإصرار:

– أؤكد مرة أخرى أننا يجب ان نفعل شيئاً...

قال الراعي بصوت كسير فيه نبرة اليأس:

– أنا بالنسبة لي لا تتوقع مني خيراً فقد أجتزت مرحلة الكهولة. والحقيقة أنني لا أستطيع التنقل بين السهول والجبال. لقد تعبت وتعودت على الراحة والإسترخاء، ويؤسفني ان أقول لك بصراحة بأنني أهاب هذا السيد ولا أريد ان أدخل معه في أي خصام.

– قل لي، هل أخذ بندقيتك أيضاً؟

– حتى خنجري أخذه.

قال حمزة وهو يتحسس خنجره في وسطه:

– عجيب أمر هذا الرجل. ان كل شيء هنا يبدو لي غريباً...

– أني أشك حتى في مسألة وجود المعمل يا حمزة... تصور سألت ذات يوم بنيّة صافية أحد الحراس عن موقع المعمل. وكأنّني كفرت كفراً عظيماً لا غفران بعده.

هل تدري ماذا فعلوا بي يا حمزة؟

نزع الراعي قميصه وراح يريه ظهره، قائلاً:

– تفضل أنظر...

قال حمزة بدهشة:

– ما هذا؟ من شوَّه ظهرك بهذا الشكل؟

لبس قميصه وأعتدل في جلسته قائلاً:

– هذا كله بسبب ذلك السؤال.

– أنا لا أفهمك... كيف يشوه ظهرك بهذا الشكل بسبب سؤال عادي لا أهمية له؟

مدّ الراعي يده مصافحاً حمزة وقائلاً بصوت مرتجف:

– ثقتي مطلقة بك يا حمزة، ولكن أرجو ان يبقى هذا الكلام سراً بيننا، لأن عاقبة النطق به هي الموت.

– تكلّم، لا داعي ان تنصحني بإلتزام الصمت...

– تصور، مسك الحارس يدي وقال بأبتسامة خبيثة، تعال أريك المعمل. ثم أخذني الى البناية الواقعة وراء صف الأشجار. وهناك قادني عبر أحد الأبواب الخلفية الى غرفة بلا نوافذ جلس فيها ثلاثة رجال أقوياء بوجوه مخيفة وملامح قاسية لم أرى مثلها من قبل. سلمت عليهم فلم يرد أحد منهم. كانوا ينظرون إليَّ بشزر، قال لهم الرجل الذي قادني الى هناك، ان هذا الراعي المحترم جداً يريد ان يعرف موقع بناية المعمل. وهنا بدأ التحقيق. لا أراك اللّه يا حمزة تحقيقاً من هذا النوع. طلب مني الرجل الجالس وراء المكتب ان أقترب منه. ولما أبديت أستغرابي وأستفسرت عن سبب جلبي الى هذا المكان فاجأني صاحبي الى جانبي بصفعة قوية أفقدت توازني ثم قال، جلبناك الى هنا حتى نريك المعمل... ألا تريد ان ترى المعمل أيها الراعي العظيم؟... هكذا ببساطة تلقيت الصفعة يا حمزة، أنا الذي لم أتلق أي صفعة في حياتي. ثق لو كنت أحمل سلاحاً لقتلتهم جميعاً. وفي تلك اللحظة عرفت لماذا جرّدوني من بندقيتي كما تذكرت في نفس الوقت مثلاً ضربةً من أبي رحمه اللّه بعد ان عرف أنني قد أعرت حصاني لصديق لي فقال «يا ولدي، ثلاثة أشياء لا تعار، المرأة والبندقية والحصان». وعضضت على شفتي لنسياني وصيّة والدي. وقفت مبهوتاً حائراً شارد الذهن. وقال الرجل الجالس وراء المكتب، هل تريد ان تقول الحقيقة أم نريك نجوم الظهيرة؟ قلت أية حقيقة، أنا لا أفهم هذا النوع من التعامل، أين نحن؟ ماذا تريدون مني؟ لا أريد ان أطيل عليك الحديث، نزعوا ملابسي وشدوني على حقلة حديدية مثبتة على الجدار وراحوا يلهبون ظهري بالسياط، وهم يضحكون ويعربدون

ويفاجئونني بين آن وآخر بركلات على رأسي وظلوعي ويكررون نفس السؤال: قل الحقيقة، لماذا تريد ان تعرف مكان المعمل؟... وهكذا بقيت في تلك الغرفة الرهيبة طيلة أسبوع كامل وهم يمارسون معي كل أنواع التعذيب والإهانات التي لا استطيع وصفها لك. وبعد أسبوع أخرجوني من الغرفة وبعد ان عالجوني طلبوا مني ان أقدم تعهداً بعدم ذكر أي شيء عما حدث وإلا فان الموت تحت تعذيب آخر سيكون مصيري. سواء أصدقت أم لم تصدق يا حمزة، تلك هي قصتي، وها أنا أجلس أمامك وقد فقدت في هذا المكان رجولتي وإنسانيتي.

قال حمزة كالحالم:

– ألم تفاتح السيد بهذا الموضوع؟

قال مبتسماً بسخرية:

– لا تكن ساذجاً يا حمزة، هل تعتقد ان هؤلاء يستطيعون التصرف بهذا الشكل بدون أوامر سيدهم؟ أنت أول شخص أفاتحه بهذا الموضوع. لقد طلبت مراراً وتكراراً مقابلته، ولكن دون جدوى...

قال حمزة وهو يحاول عبثاً الخروج من شروده:

– ان هذا الوضع يجب ان يتغيّر...

قال الراعي الآخر كاليائس وهو يقوم من مكانه:

– ولكنك ستحتاج لذلك الى قوة خارقة يا حمزة... أنني يجب ان أذهب الآن وأرجو منك ان تكون حذراً جداً...

٦

أستغرق حمزة ساعة كاملة في شروده، أستعرض خلالها كل حياته في السهول والجبال والأهوار ومغامراته ومشاكله مع الاقطاعي، وكانت كلمات الراعي تتقاطع مع موجة أفكاره لتستقطب كلها في نقطتين راحتا توخّزانه بشكل عنيف، الأولى، بندقيته التي سلمها دون تفكير والثانية، قصة المعمل.

فكر، أنه اذا طلب البندقية من السيد لابد سيشك في أمره، ثم انه ليس غبياً إلى هذه الدرجة بحيث يعيدها إليه ببساطة، وإلاّ فلماذا أخذها منه؟ أجل، ثلاثة أشياء لاتعار، الإمرأة والبندقية والحصان. ولكن المشكلة الآن أدهى وأمر، فالرجل لم يستعر منه البندقية ولا هو أعاره إياها، بل انه سلّمها له، فالتسليم شيء والاعارة شيء الأخر، ولذلك قرر ان يكتشف سر المعمل مهما كلفه الأمر. كان الظلام في الخارج دامساً جداً. أراد كخطوة أولية ان يمشي بمحاذاة السياج ليرى ما

اذا كان ثمة طريق سري يؤدي الى المعمل، ولكنه، غيّر رأية بعد ان أقتنع بأن المشي حول المقاطعة سيتعبه، ثم انه حسب حساب الهجوم المباغت من أحد الحراس، الأمر الذي يجب ان يوفر له طاقته.

ترك المصباح مشتعلاً، ووضع مخدة في الفراش مغطياً اياها بقطعة قماش خفيفة كما لو انه نائم. امتطى صهوة حصانه وراح يسير بمحاذاة السياج. قرر ان يطعن بخنجره أي إنسان يعترض طريقه. بعد مسيرة قصيرة بلغ نقطة الحراسة الاولى، فوقف لهنيهة. ورأى من خلال النافذة العالية ان الحارس نائم، وواصل سيره. كان الحارسان في النقطتين الثانية والثالثة نائمين أيضاً. أستغرب من الأمر وواصَل السير بشجاعة أكبر. وعندما وصل نقطة الحراسة الرابعة رأى من خلال النافذة العالية ان المصباح يشتعل بدون وجود أحد في الغرفة. قال في نفسه: «لا شك ان الحارس ينصب لي كمينا في الظلام». قفز من على ظهر حصانه بخفة، ومسك مقبض خنجره بقوة. كانت عيناه قد تعودتا على الرؤية في الظلام. وراح يجيلهما ببطء في أرجاء المكان. كان الحارس جالساً على مبعدة عشرة أمتار من نقطة الحراسة، سمعه يقول بصوت خافت.

– لاتخف يا حمزة، تعال لنشرب الشاي معاً ونتحدث في أمور الزمان.

أحسَّ حمزة من نبرة صوته أنه لا يضمر شراً، فقال بصوت خافت وهو يقترب منه:

– حذار ان تحاول إستعمال سلاحك...

– كلا يا أخي لاتخف، ليست لي أي عداوة معك ثم ان بندقيتي خالية من العتاد الحقيقي...

قال حمزة بدهشته المعتادة:

– غريب أمركم، أنني بدأت أكتشف هنا ليس كل يوم حسب، بل كل ساعة شيئاً جديداً. مامعنى وضع عتاد غير حقيقي في البندقية؟ هل الثقة مفقودة بينكم؟

قال الحارس وهو يقدم له قدحاً من الشاي:

– نعم، الثقة مفقودة هنا يا سيد حمزة، ولكن كل ما أرجوه هو ان نتكلم بصوت خافت. أنا أعرفك جيداً وسمعت عنك الكثير، وقد أعجبني موقفك كثيراً جداً عند مواجهتك الجريئة للسيد. هل تعلم أنه منذ تلك اللحظة يشتعل مثل البركان من شدّة الغضب؟ انك أول من يواجهه بهذه الجرأة في حياته، نحن الحراس ننام عادة في أوقات حراستنا، ولكنني اليوم لم انم من شدة فرحي. ثق أنني كنت سآتيك بنفسي لو لم نلتق الآن.

قال حمزة بسخرية ويده ما زالت قابضة على الخنجر:

– من شدة فرحك؟ ألستم كلكم من طينة واحدة؟ هل تريد أنت الآخر أن تضحك عليّ؟

– هسسسسسس... أرجوك... تكلم بصوت خافت. ان السيد إذا عرف أننا جالسان هنا نشرب الشاي معاً لقامت القيامة.

– ألست من أقرب الناس اليه؟ إن لم يثق بك لما جعلك حارساً على حياته وممتلكاته

– هذه هي المشكلة التي لا يفهمها الآخرون يا حمزة. ان هذا الإنسان الذي نصب من نفسه سيداً علينا كان لا شيء. لقد اخضعنا جميعاً بقدرة قادر وجعلنا تحت سيطرته، نحن الذين كنا نستنكف قبوله شريكاً صغيراً في هذه المقاطعة. وها انه لم يكتف بإذلالنا يجعلنا أتباع مرؤوسين له حسب، بل جعلنا حراساً عاديين ببنادق خالية من العتاد الحقيقي لعدم إعتماده علينا. إننا قد أسعدنا مجيئك الينا، ولكن مما أثار أستغرابنا و دهشتنا هو تسليمك إياه لبندقيتك، انت الذي لا تجهل ماضيه!

تنهد حمزة وقال بألم:

– أفهم كلامك جيداً يا صاحبي. كنت أعتقد أن الإنسان يستطيع ان يعيش بسلام وبدون بندقية، وكنت أريد ان أفتح حقاً صفحة جديدة مع هذا الرجل الذي صدّقت كلامه، ولكن لا يأس، ان الرياح ستهب ذات يوم عكس ما يشتهيها صاحبنا. ثق يا حمزة، أنني أثمن فيك روحك العالية، ولعل وجودك بيننا يغير من الطبيعة الشرسة للسيد، لذا أرجو ان تتحرك بهدوء وتتحلى بالصبر وإلاّ فإنه سينقلب عليك ذئباً لا يعرف الرحمة.

قال حمزة بصرامة:

– أنظر، اذا كنت صادقاً حقاً في كلامك، فأرجو ان تساعدني في شيء واحد فقط، إذ ذاك نستطيع ان نفيد بعضنا البعض فكلانا كما ترى لسنا مرغوبين من قبل السيد.

قال الحارس فوراً وبإرتياح:

– هذا صحيح، وأنني مستعد ان أساعدك بكل إمكاناتي.

– أريد ان أعرف حقيقة المعمل الذي يذهب اليه حليب كل هذه القطعان. أريد ان أراه بعيني.

قال الرجل هازا رأسه وهو يصب قدحاً آخر من الشاي:

– يا صديقي، هل تعلم كم هو خطير سؤالك هذا؟

قال حمزة بثقة وإعتداد:

– أعلم ذلك كل المعرفة.

قال الحارس بسخرية:

– لا أبداً يا حمزة، لا تعرف ذلك...

قال حمزة كما لو أنه يعرف كل شيء:

– لقد أرسل هذا السؤال أحدهم الى التعذيب الوحشي والإهانات...

قال الحارس كاتماً ضحكته:

– لا يا صديقي لا، ان الذي تقصده قد طرح ربع سؤالك. وأما الحقيقة فإن العشرات قد سلخت جلودهم وهم أحياء وسملت عيونهم وشوهت جثثهم ولايعرف أحد مصائرهم حتى الآن... والعملية مازالت مستمرة حتى هذه اللحظة.

شعر حمزة بقشعريرة في كيانه وقال:

– إذن لابد ان للمعمل سراً كبيراً...

قال الحارس بحسرة:

– أجل، ان هذا السر هوالذي جعلني حارساً بسيطاً بعد ان كنت أحد الاصحاب الحقيقيين لهذه المقاطعة...

نهض حمزة قائلاً:

– لا أستطيع ان أتحمل أكثر. يجب ان أواصل سيري.

نهض الحارس بدوره أيضاً ومدّ يده ليصافح حمزة بقوة:

– سأريك المعمل، بشرط ان تضمن لي بقاء هذا السر بيننا فقط، لأنك تعرف جيداً كيف ستكون عاقبة الأمور.

٧

دخل الراعي الثاني منزله متسللاً كاللص وبسرعة وهو يتنفس الصعداء لأن أحداً لم يلمحه عند مغادرته منزل حمزة. وبعد فترة قصيرة حيث أستعاد تنفسه الطبيعي، سمع دقات قوية على الباب أحس بها كما لو أنها إطلاقات نارية تصيب قلبه. قال بصوت خافت وهو يحس كما لو انه يموت: «هذه هي نهايتي، لقد وشوا بي...». أراد ان يقول شيئاً ولكنه لم يستطع، بيد انه شعر بنوع من الارتياح حين سمع صوت الراعي الأول وهو يصيح: «أين أنت يا صديقنا العزيز؟» وهنا أستطاع ان يقول:

أدخل، الباب مفتوح...

دخل الراعيان وعلامات البهجة مطبوعة على وجهيهما، قالا بصوت واحد:

– هيا تحرك بسرعة، فنحن مدعوّن لحفلة ضخمة أقامها السيد، مابالك وكأن الدنيا مقلوبة على رأسك؟

قال وهو يفرك عينه متصنعاً الإستيقاظ من النوم:

– لقد أخذتني غفوة نوم فداهمتني أحلام مزعجة.

قال الأول:

– لقد جاءك خادم السيد ليبلغك بحضور الحفلة، ولكنه لم يجدك فطلب إلينا أن نبلغك بذلك. هيا ألبس أحسن ملابسك.

قال الثالث:

– سنتناول اليوم أشهى المأكولات ونشرب أفخر المشروبات...

قال الثاني:

– وحمزة؟ هل بلغتموه؟

قال الأول:

– ماشأنك وشأن حمزة؟ هذه ليست مهمتنا. إن حمزة لا يكف عن خلق المشاكل وإذا ظلّ راكباً رأسه سيدفع الثمن غالياً...

قال الثاني:

– ماهي مناسبة الحفلة؟

قال الثالث:

– لابد انها حفلة خاصة للقَاء بنا وبحث شؤون المقاطعة، خاصة وأننا لم نلتق بالسيد منذ مدة طويلة.

قال الثاني:

– ان أي بحث لشؤون المقاطعة بدون حمزة لايجوز، وانه يجب ان يحضر.

قال الأول بإشمئزاز ممزوج بالإستهزاء:

– هذا الكلام أعرضْه على السيد في الحفلة.

أضاف الثالث:

– حتى يهينك بكلماته الجارحة. والآن هيا أسرع، لا مجال للكلام الفارغ.

عندما بلغوا صف الأشجار، سمح لهم الحارسان بالمرور. وبعد مسيرة قصيرة وصلوا بوابة القصر. كان الراعي الثاني لم يرى هذا القصر من قبل. قال في نفسه وهو يتأمل الأعمدة العملاقة والزخارف الجميلة «يا الهي، متى بنى صاحبنا هذا القصر الفخم؟». أحس بالرهبة، وتذكَر أيامه

في غرفة التعذيب التي لا يدري من أي باب دخلها. وشعر بموجة من الألم توخز ظهره. أيقظه البواب من شروده حين قال:

– أرجو الإنتظار في هذه الغرفة لحين مجيء أحد الأخوان لمرافقتكم الى مكان الحفلة.

دخلوا غرفة الإنتظار. بدأ قلب الثاني يخفق بشدة، تذكر لقاءه بحمزة وفكر، «ترى هل شاهدني أحد الحراس؟ هل سمع أحد كلامنا؟» وأحسَّ بآثار السياط تلسع ظهره.

بعد فترة إنتظار دامت أكثر من ساعة جاء أحد الحراس وطلب اليهم ان يتبعوه. مرّوا بعدة دهاليز وممرات أدت بهم الى حديقة كبيرة تنيرها أشرطة من الأضواء الملونة. وبعد ان إجتازوها دخلوا الى بناية ثانية فخمة تحيطها أنواع الأشجار. قادهم مرافقهم الى غرفة إنتظار أخرى، طالباً منهم الإنتظار لحين مجيء حارس أخر. بعد فترة إنتظار غير قصيرة، قال الثالث بصوت خافت:

– لابد أنهم يريدون تجويعنا حتى نأكل بشهية.

أجاب الأول بإشارات من يديه ان لا يتكلم أحد، لأن هناك آذان إصطناعية في الجدران. وخيّم عليهم الصمت:

بعد فترة إنتظار طويلة جاء حارس متألق وقال بأسلوب مهذب:

– أعتذر للتأخير، فكما تعلمون فان المدعوين كثيرون جداً. وهناك وجهاء ذو أهمية كبيرة جاءوا من أماكن بعيدة ومن بين الضيوف أجانب وصحفيين، ورغم ان هؤلاء جاءوا للاطلاع على منجزات السيد العظيمة في المقاطعة، فإنه يحبذ عدم الأختلاط بهم، لأن نواياهم قد تكون سيئة. وهناك هيئة ستقوم بترتيب الضيوف حسب الأهمية وأنتم ستكونون في أخر الصف، طبعاً لأنكم أصحاب البيت. وتابع بعد ان فتح باباً سرياً في مؤخرة الغرفة:

– هل ترون هذا الصف من الرجال؟ أنهم في طريقهم لمصافحة السيد لهذه المناسبة السعيدة. وعندما ينتهي الصف تلحقون أنتم به وتسيرون وراء بعضكم البعض وأما من منكم يكون في مقدمة مجموعتكم فهذه مسألة تخصكم أنتم فقط ان السيد لا يريد ان يتدخل أحد في شؤونكم الداخلية.

قال الأول وهو يراقب الصف السائر ببطء وراء الباب:

– أنا سأكون في المقدمة لأنني أول راع له شرف الدخول لأول مرة الى مقاطعة السيد.

قال الثالث:

– لا بل أنا الذي سيكون في المقدمة، لأنني أملك أكبر القطعان في المقاطعة بإعتراف السيد نفسه.

قال الثاني بسخرية:

– هل يمكنكما ان تقولا لي ماهي المناسبة التي نحتفل بها؟

قال الثالث:

– ولماذا تهمك المناسبة؟ ألا تكف عن أسئلتك الكثيرة؟ المهم أننا نحتفل ويكفي ان نتمتع برؤية السيد ونتشرف بمصافحته، فلولاه لكنّا الآن نسرح بين السهول والجبال مثل الثعالب.

قال الأول:

– لا مجال للجدل الآن، وعلينا ان نتفق من يكون في مقدمة مجموعتنا. قال الثالث:

– طبعاً أنا.

قال الأول:

– لا بل أنا.

قال الثاني وقد أمتزجت علامات السخرية بالألم على وجهه:

– حسما للنزاع أرى ان تسيراً جنباً الى جنب، وأما أنا فسأسير وراءكما.

قالا بصوت واحد:

هذا أحسن حل.

أضاف الثالث وهو يراقب صف الرجال المتحرك ببطء:

– ولكن، انظرا، انهم يسيرون وحدان وراء بعضهم البعض...

قال الثاني محاولاً إقناعهما برأيه:

– هذا لا يهم ابداً، ان السيد سيجد في هذا الحل إبداعاً كبيراً، وسترون كيف أنه سيرتاح لذلك.

قال الأول قافزاً في مكانه بفرحة:

– هيا لنخرج، ها هي نهاية الصف.

وعندما أتخذوا أماكنهم في نهاية الصف بالشكل الذي أتفقوا عليه مرّ بهم الرجل المتألق قائلاً:

– أرجو ان تنحنوا عند مصافحة السيد، حتى يشعر الضيوف بمدى حبّنا وإحترامنا له.

قال الراعي الثاني ساخراً:

– هل تعلمان ان مكاني أفضل بكثير من مكانيكما؟ إنني آخر رجل في الصف. ان الصف حين يستدير الى الوراء للخروج من هذا المكان سأكون أول رجل في الصف كله.

أراد الثالث ان يقول شيئاً، بيد ان أحد الحراس ضرب على كتفه بقوة قائلاً بلهجة إحتقار:

– الكلام ممنوع... أحترموا أنفسكم أيها الرعاة.

قال الراعي الثاني في نفسه وهو يراقب الرجال الذين يمرون بالسيد الواقف بغطرسة وكبرياء في مكان عال ومن ورائه مجموعة من الرجال المسلحين، وهو يمدّ يده اليهم بدون إكتراث: «يا الهي، كيف أستطاع هذا الشقي الحافي ان يتحول الى مالك مقاطعة ورجل ينحني له هذا العدد الكبير من الناس؟». أستغرق في تفكير عميق موازناً خطواته مع الخطوات البطيئة للآخرين. أحس بنفسه وضيعاً ضئيلاً كما لو ان أحدهم يركله بحذائه ويلقي به في هاوية عميقة. تحسر وتنهد بعمق، وشعر بمزاجه يتكدر أكثر فأكثر، رفع رأسه ليجيل نظراته في المكان. كانت صفوف طويلة من الموائد العامرة بأنواع المأكولات والمشروبات تغطي ساحة الحديقة الواسعة وتنتهي عند منصّة كبيرة أشبه بالمسرح، تعتليها فرقة موسيقية تجهز نفسها للعزف. وكانت هناك مجموعة من السيدات المتألقات لم يسبق له ان رأى مثلهن من قبل. وفجأة جمد في مكانه. وتوقف هنيهة، وراح قلبه يخفق بشدة. أراد ان يصرخ... أن يقول شيئاً، ان يقوم بحركة يجلب إنتباه الجميع اليه، ولكن شللا ما كان يقيّد كل جزء في جسمه. وفرك عينه كما لو أنه لا يصدقهما... أجل أنه هو، هو بالذات... الرجل الذي كان جالساً وراء المكتب في الغرفة الخالية من النوافذ. إنه اذن الساعد الأيمن للسيد. وإلا كيف يمكنه الجلوس الى جانبه ومشاركته في الترحيب بالناس بهذا الشكل؟ ها أن بينه وبينهم أمتار قليلة... كيف يمكنه أن يصافح يداً عذبته طيلة أسبوع؟ هل أنا جننت؟ هل أنا أحلم؟ أين أنا؟ وفجأة توقف الصف. وترك السيد مكانه مع حاشيته، طالباً بإشارة من يده البدء بالأكل. وبدأت الفرقة الموسيقية بالعزف. بقي الرعاة الثلاثة وعدد من الرجال الذين لا يتجاوزون أصابع اليد الواحدة ممن لم يبلغوا منصة السيد حائرين في أماكنهم، ينظرون الى بعضهم البعض بإستغراب دون ان يتفوه أحدهم بكلمة.

قال الثالث بإستغراب:

– ألا يريد السيد ان يصافحنا؟

قال الأول محاولاً تبرير الموقف:

– لقد تعب من كثرة هزّ يده. المهم أننا نتمتع برؤيته، ألا يكفي هذا؟

قال الثاني دون ان يظهر على وجهه أي أثر:

– أذكر ان المرحوم والدي قال لي ذات مرة: «ثمة عيبان في المساهمة بالأعراس، العيب الأول هو الدخول الى حفلة العرس والعيب الثاني هو الخروج من حفلة العرس»:

– كلامك الفارغ لا يجلب لنا سوى النحس.

قال الأول والثالث بصوت واحد! ثم راحا يجيلان عيونهما في أنحاء المكان بحثاً عن المقاعد الشاغرة.

جاء الحارس المتألق الذي فتح لهم الباب السري وقال بأسلوبه المهذب:

– أرجوا العودة الى غرفة الإنتظار لحين إنتهاء الضيوف من الأكل، حيث سيأتي حارس آخر لمرافقتكم الى المائدة المخصصة لكم.

قال الثاني بسخرية بعد ان أنصرف الرجل:

– حقاً انهم يريدون تجويعنا حتى نأكل بشهية كبيرة. ان هذا النوع من الكرم لا يعرفه سوى السيد.

٨

قال الحارس لحمزة بصوت خافت:

– سيبقى حصانك هنا ونذهب نحن، ولكن حذار ان تتكلم إذا سأل أحد عن هويتنا. ان كلمات السر لنقاط الحراسة كلها عندي. ومن حسن الحظ ان البوابة الرئيسية مفتوحة هذه الليلة. والحراس كلهم مشغولون بالحفلة الضخمة التي أقامها السيد هذه الليلة.

أستفسر حمزة بإستغراب:

– حفلة ضخمة؟ ماهي المناسبة؟

ضحك الحارس قائلاً بسخرية:

– لا يدري إلا اللّه ماهي المناسبة. انه يقوم بإحياء مثل هذه الحفلات بين حين وآخر ليظهر نفوذه وقوته بين شيوخ المنطقة، كما أنه يستغل مثل هذه المناسبات المفتعلة ليهين البعض ويكرم من يشاء.

قال حمزة:

– عجيب أمر هذا الرجل، انه لم ينحرف قيد شعرة عن سيرة والده.

قال الحارس مواصلاً كلامه:

– ومن عادته أيضاً انه يتوج مثل هذه الحفلات بالدم، حيث يرسل أفراد عصابته لإغتيال أحد خصومه الكثيرين، متظاهراً فيما بعد انه كان مشغولاً بحفلته ولم تكن له اية علاقة بالحادث.

قال حمزة:

– حقاً ان توبة الذئب في قتله... إنه سيلاقي نفس مصير والده الذي لم يمت ميتة طبيعية.

قال الحارس بيأس:

– ولكنه قوي يا حمزة وخبيث، وهو مثل الصلّ، لقد شدّنا كلنا في غفلة من الزمن من أيدينا

وأرجلنا بخيوط سحرية لا نستطيع التخلص منها.

سكت الحارس هنيهة محدقاً في النجوم المتلألئة في أعماق السماء اللانهائية المظلمة. وكان الصمت عميقاً جداً، ثم أضاف متأوهاً:

– يا لها من مهنة تعسة هذه التي أمارسها، حارس المجزرة البشرية.

قال حمزة بدهشته المعهودة وبصوت عال:

– ماذا تقول؟

أجاب الحارس كالمأخوذ وبصوت واهن واضعاً يمناه على كتف حمزة.

– لا ترفع صوتك يا سيد حمزة. أننا الآن واقفان على حافة الجحيم. إن أي خطأ منا سيوقعنا في أعماقه. ويا ليتنا نموت إذ ذاك ميتة طبيعية سريعة. سنمر بسلسلة من العذابات لاتنتهي. ستتحول الدقيقة الواحدة الى دهر. سيطلب الي أن اسمل عينيك، ويطلب منك ان تبصق في وجهي، هكذا يجب ان نعذب ونهين بعضنا البعض أمامهم. والآن لأريك المعمل المزعوم، ولكن إذا كانت أعصابك ضعيفة فعليك ان تعود الى منزلك.

قال حمزة بصرامة:

– لاتخف يا صاحبي، لقد دفنت العديد من أبنائي بيدي ثم أنني لا أريد ان أرى كل شيء، لأنني لست ممن يتمتعون برؤية المعذبين. كل ما في الأمر هو أنني أريد أن أتأكد من الحقيقة.

– إننا سنسير بهذا الإتجاه، وإذا سمعت أحدهم ينادي علينا فلا تتكلم ولا ترتبك. وإعتباراً من هذه اللحظة لا تتكلم أنت، وأما أسئلتك أو تعليقاتك فيمكن أن تؤجلها لحين عودتنا الى هذا المكان.

وسارا بمحاذاة سور من الاسمنت:

– ان المعمل المزعوم يتكون من عدة قاعات طويلة معظمها تحت الأرض وهي ترتبط ببعضها بأبواب سرّية. وهناك دهليز طويل ويطوقها من كل الجوانب واجهات زجاجية خاصة تطلّ على هذه القاعات، بحيث ان السائر في هذا الدهليز يشاهد كل مايجري في داخلها، في حين لا يمكن مشاهدة ما في الدهليز من داخل القاعة. إن هذه كلها كانت سراديب مظلمة تعود لقلعة قديمة تقع وراء هذا السور مباشرةً كانت تعود لأحد الشيوخ الكبار. والقلعة لا يمكن رؤيتها إلاّ بعد إجتياز السور. ويتمشى هو وأصدقاءه عادة داخل الدهليز يتمتع برؤية العمليات الجارية داخل القاعات. وأحياناً يشرف بنفسه على تعذيب خصومه الشخصيين ممن لهم وزن كبير. والويل لمن يعذبه بنفسه. كانا يواصلان السير بحذر وبخطوات وئيدة. وكان الظلام عميقاً وكثيفاً. وكانت الأصوات البعيدة المختلطة بالموسيقى تأتي من مكان الحفلة البعيد وتشق الصمت. وثمة مصابيح ملونة خافتة تتلألأ عبر مسافات متباعدة.

قال الحارس بعد سكوت طويل:

– ان البوابة التي دخلت منها مع قطيعك، ليست هي البوابة الرسمية لدولة السيد. هل ترى تلك الأبواب الثلاثة؟ هناك تنتصب البوابة الرسمية، حيث ترفرف فوقها راية السيد التي تتوسطها بقعة دم.

بدأت علامات الاستفهام تتحرك داخل رأس حمزة. وراحت الأسئلة تتبلور فيه دون ان يستطيع النطق بها. دولة السيد؟... راية السيد؟... البوابة الرسمية؟

قال الحارس بغتة:

– أنا أعرف ان أسئلة كثيرة تدور في رأسك. أنك ستجيب عليها فيما بعد بنفسك، ولكن ما أحب ان أقوله لك هو ان السيد يعتبر هذا المكان دولته هو بالذات. هذه حقيقة لايدركها كثيرون مع الأسف. وكل من يقول غير ذلك يقاد الى سراديب القلعة. هل تدري أنه كان يبحث عنك ليلاً ونهاراً؟ وأنت كنت شغله الشاغل؟ كان يخاف من بندقيتك خوف الفأرة من القط. ومنذ ان سلَّمته بندقيتك ينام هادىء البال، بيد ان ما يزعجه حتى الآن هو أنك لاتقرّ بحقيقة كون هذه الدولة والراية تعودان له، ولكنه يكتم غضبه أمامك لأسباب عديد.

كانت أفكار كثيرة تزدحم فى رأس حمزة. أراد إن يقول شيئا رغم الخطر الكبير، ولكنه أستكان الى عقله ووجد انه إذا أنجرٌ وراء عاطفته فإن العاقبة ستكون وخيمة. قال في نفسه: «لابد ان أستعيد بندقيتي، وسأفعل ذلك مهما كان الثمن...»

قال الحارس بصوت خافت أقرب الى الهمس:

– لقد أقتربنا من المكان. ان مفاتيح الدهليز عندي. سنقوم بجولة في الممرات وسترى بأم عينك ما يجرى في هذه السراديب الرطبة، وبالمناسبة فان العمليات مكثفة هذه الليلة. الله وحده يعلم كم من الأجساد البشرية ستلقى هذه الليلة في حوض النار السائلة، حيث يتلاشى الانسان في أسرع من لمح البصر، وهذا القسم هو آخر مرحلة لمن لا يريد الرضوخ لدولة السيد. وفي الوقت الذي يكون هو مهيئاً للمجيء الى الدهليز مع رجاله للتمتع برؤية العمليات بعد إنتهاء الحفلة، نكون نحن قد أنتهينا من جولتنا. أؤكد مرة أخرى ان تضبط أعصابك. حتى آهة صغيرة لا يجوز ان تطلقها وإلاّ سيكون مصيرنا الموت بأبشع وسيلة، لأن هناك أدوات إرسال دقيقة موزعة في كل مكان تنقل ما يدور بين السجناء.

إنعطفا الى طريق جانبي أدى بهما الى جدار عال مصبوب من الأسمنت. سارا بمحاذاته. وبعد مسيرة غير قصيرة إلتفا حوله، ثم دخلا غابة من الأشجار الكثيفة. ووقفا أمام لوح من المرمر أشبه بشواهد القبور. بدا لحمزة انه سبق ان مرّ بهذا المكان. وقف أمام المرمر، متى كان ذلك يا

ترى؟ أنه متأكد بأنه يعرف هذا المكان... وراح يبحث في ذاكرته عن السبب الذي جاء من أجله الى هنا... وعرف ان ذلك كان قبل مدة طويلة، طويلة جداً، وربما انه حلم بهذا المكان وها ان حلمه يتحقق، وجلس القرفصاء محاولا قراءة الكتابة المنقوشة على المرمر. عرف الحارس ما يبغيه حمزة فجلس هو الأخر القرفصاء شاعلا عود ثقاب أمام اللوح مباشرةً، وهزَ حمزة رأسه وهو يمرر عينيه الحادتين بالكتابة السوداء المنقوشة على المرمر الأبيض الجليدي:

هنا مقبرة الرجال الذين يموتون
بلا أسماء،
بلا شهادة وفاة،
تواريخ الوفاة هنا «صفر»،
كل شيء يتم هنا في الليل،
الدفن في النهار ممنوع.

تسمرٌ في مكانه لبضع لحظات، ثم تذكر بغتة متى رأى هذا اللوح المرمري... كان ذلك عندما كان طفلاً صغيراً، حيث جاء الى هنا للبحث عن جثة والده التي لم يعثر عليها. وانحدرت من عينيه دمعتان. نهض من مكانه بقوة وعزيمة لم يعهد بها من قبل وهو يقول في نفسه: «لقد سلّمتَ بندقيتك الى قاتل أبيك يا حمزة، فاذا لم تقم بعمل جبار ضد السيد فإن اللعنة ستلاحقك الى الأبد».

مدّ الحارس يده بخفّة الى مكان تحت المرمر فظهر سلم مضاء بنور باهت يؤدي الى سرداب عميق. قال الحارس: أننا حين ندخل الممر فيجب ان أنقطع أنا الآخر عن الكلام. وعند أول إنعطافة سنمر بهيكل عظمي معلق لأحد ضحاياه يجرب به أعصاب من يرشحهم للعمل في الجحيم كما يسميه هو. إنه له هوايات أغرب بكثير من تعليق الهياكل العظيمة على الجدران.

٩

بعد ان رحبَ السيد بضيوفه الكبار، مرَ بالأخرين بسرعة موزعاً عليهم إبتساماته التي يصطنعها بصعوبة كبيرة، فمنذ ان تخلص من بؤسه وتشرده وكوّن لنفسه مقاطعة وراية، يقف ساعات أمام المرآة ليتعلم فن كيفية الإبتسام. فقد ولدته أمه متجهماً عبوساً بملامح قاسية متشنجة وبوجه يكسوه جلد الحرباء. كان لا يجد سعادته وراحته إلاّ عند الجلوس مع أفراد عصابته والتحدث إليهم. فهو حين يجتمع بهم ينزع قناعة ويعلقه الى جانب أقنعته الكثيرة المعلقة في غرفته الخاصة التي يلتقي فيها إلاّ بهم وحدهم. وبالاضافة الى أقنعته التي تمثل وجوه مختلفة يملك عشرات الأقنعة التي تمثل وجهه هو فقد التقطت له ذات يوم صورة وهو يقف مع ثلاثين

من أفراد عصابته وهم يضعون على وجوههم قناع السيد. وهناك نسخة كبيرة من الصورة معلقة في الغرفة الخاصة، وقد سبق له ان عرض الصورة على بعض أصدقائه وطلب اليهم ان يشخصوه هو فلم يتمكنوا. وأحياناً – بدلاً من ان يذهب هو – يرسل أحد رجاله بعد ان يضع على وجهه القناع، ليمثله هو، ولايشك الطرف الآخر في الأمر ولايعرف انه قابل نسخة أخرى من السيد.

كان ينظر اليه أفراد حاشيته بإعجاب وزهو هما فوق أي نوع من العواطف الأخرى، ويضفون عليه الألقاب المختلفة التي يجد هو فيها لذته الوحيدة. انه المعلم وهم التلاميذ، انه القائد وهم الجنود، هو الصنم وهم السدنة. إذا قال لهم ان الشمس لاتشرق غداً، هزّوا رؤوسهم جميعاً بالموافقة وقالوا: ان الشمس لاتشرق غداً. إذا طلب الى أحدهم ان يقتل أخاه، نفذ الأمر دون ان يسأل لماذا..!.

ذات يوم أصاب سوء الحظ أحد أفراد عصابته فشاء سوء حظه ان يتمرد على سيده وولي نعمته، جلبه الى غرفته الخاصة وراح يستجوبه أمام أفراد حاشيته، وبعد ان أذاقه مُر العذاب قطع أنفه وأذنيه ثم أطلق النار على أطرافه حتى يموت ببطء، وأما هم فكانوا يبصقون في وجهه ويركلونه في كل جزء من جسمه.

ألقى نظرة أخيرة على مكان الحفل. كان الجميع قد سكروا. ألتفت الى مساعده الأول وقال:

– أحس بالملل مع هؤلاء. أحب ان نذهب الى الغرفة الخاصة وندردش مع الأخوان.

قال مساعده منحنياً بإحترام:

– أنهم ينتظرون بفارغ الصبر. انهم لم يتنعموا برؤيتك طيلة هذا اليوم.

قال وهو ينظر الى المحتفلين:

– أنظر كيف يتبارون في الأكل والشراب... ان هؤلاء نستطيع ان نشتريهم جميعاً. ما أعظم قوة المال وما قوة سحر الذهب. إنك تستطيع ان تصل بالمال والقوة الى كل ما تبتغيه.

قال المساعد:

– سيدي، إنه لأنانية مقيتة مني ان أتمتع وحدي بهذه الكلمات الذهبية الصادرة من فمك. لماذا لانذهب الى الغرفة الخاصة وترتاح بعد هذا الإرهاق الطويل وتمتعنا جميعاً بكلماتك الحكيمة؟

قال بغطرسته المعهودة:

– أنا فعلاً متعب، ولا أجد الراحة إلاّ في الغرفة الخاصة. هيا بنا.

وأضاف بعد فترة تفكير قصيرة:

– على فكرة، ما هو رأيك بالحفلة؟

– رائعة يا سيدي. كان الجميع ينظرون اليك مسحورين، وكنت تطل عليهم بهيبتك كما لو انك جبل هائل تحدى الزمن لآلاف السنين ومازال يتحداه بكل قوة وجبروت.

– لقد تعلمتم كلكم على الكلام الجيد... ظاهرة حسنة...

قال السيد ذلك وأحس براحة تسريت الى كل خلايا جسمه، رافعة إياه الى ما وراء السحاب فشعر بقدميه لا تمسان الأرض، ولكنه سرعان ما هبط على الأرض وإرتطم بها بقوة حين تذكّر حمزة، فقال بمزاج كدر:

– وحمزة؟ هل كان موجوداً؟

قال المساعد بأرتباك:

– كلا يا سيدي... لقد قلت بنفسك أننا يجب ان نهمله فهو لازال وقحاً لا يتنازل عن غطرسته الفارغة.

قال بلهجة عتاب ممزوجة بأسف:

– كنت أعتقد أنكم دعوتموه. لقد أهنا الرعاة الأخرين على حسابه ونجا هو من الإهانة.

قال المساعد وهو يعظ شفته:

– بسيطة يا سيدي، سنعلمه على الطاعة والرضوخ. انه بحاجة الى أكثر من إهانة.

– لكننا يجب ان نكون حذرين معه، لأنه يستطيع ان يخلق لنا المتاعب.

وبعد ان سارا قليلاً قال السيد بشرود:

– ان بيننا وبين حمزة منازعات قديمة. ان هذه المقاطعة التي نتمتع نحن بخيراتها كان من الممكن ان تكون له، ولذلك فمن المستحيل ان ينسى الماضي. فما قبوله لدعوتنا وتسليمه البندقية بسهولة إلا خدعة لئيمة من جانبه...

قال الحارس بثقة عالية بالنفس:

– سيدي، لقد تغلبنا بفضل حكمتك وقوتك على من هو أقوى بكثير من حمزة...

– أعرف ذلك، ولكن حمزة يختلف عن كل أولئك... انه خطر علينا في كل الحالات فسواء عاش معنا في المقاطعة أو هجرنا فإنه لايكف عن خلق المتاعب.

– نقتله ونتخلص منه.

– كلا... هذه الطريقة ستخلق لنا المتاعب لن تنتهي ثم أننا سنخسر كل الرعاة الذين نحاول

جرهَم الى داخل المقاطعة. أننا لانستطيع مواصلة حياتنا المرفهة داخل المقاطعة بدون هؤلاء الرعاة وقطعانهم...

– ألم تفكر يا سيدي في طريقة تخلصنا من هذا المدعو حمزة؟ انك لم تترك كتاباً دون ان تقرأه...

قال بإعتداد:

– أننا يجب ان نجرده من قطيعه وحصانه وبعد ذلك فهو حُر في أن يعيش معنا أو يتركنا، وأما كيف نرسم الخطة لذلك فهذا ما سنبحثه في الغرفة الخاصة...

١٠

وقف الحارس ممسكاً بالهيكل العظمي ودافعاً إياه فاسحاً الطريق أمام حمزة، وأومأ اليه برأسه ان يمر. في هذه اللحظة أحس حمزة في أعماقه بهاتف يدعوه للرجوع الى قطيعه وحصانه فأومأ هو الآخر الى صاحبه بإشارات من يديه أنه لا يريد مواصلة السير، فهزّ هذا رأسه موضحاً له أنه فهم قصده فأشار له مامعناه أننا قبل ان نترك هذا المكان أحب ان أريك صورة بسيطة لما يجري في السراديب، فطلب اليه بإشارة من يده ان ينظر في كوة تقع خلف الهيكل العظمي مباشرةً. ومدّ حمزة رأسه بفضول. كان ثمة نفق طويل تتلاشى نهايته في الظلام، وقد صلبت على جانبي النفق أجساد لرجال عراة تمتد مثل أعمدة التلفون. وفي منتصف النفق مجرى تسيل عبره الدماء ببطء.

وعندما تركا النفق قال الحارس بهمس:

– ان ما رأيته لا شيء.

لم يتكلم حمزة، بل راح يحث خطاه وهو حاقد على كل شيء، وأفترقا، ذهب الحارس بإتجاه نقطة حراسته، وحمزة بإتجاه الحصان. كان هاجس فطري قد أومأ اليه ان شيئاً ما قد وقع سواء مع الحصان أو مع القطيع، وعندما لمح حصانه الأصهب في جوف الظلام وهو يضرب الأرض بحوافره تعبيراً عن فرحته لعودة ربّه، تنفس حمزة الصعداء. وطوق رقبته العالية بساعديه. وأحس ان الحصان لو كان بإمكانه الكلام لقال له أشياء كثيرة في هذه اللحظة، وهمس حمزة في أذن الحصان: «أعرف انك تلومني لوجودنا في هذا المكان، وانك منذ تواجدنا داخل هذه الأسيجة حرمت من صهيلك الذي تردده الوديان والجبال ، لاتخف يا عزيزي، سنخرج من هذا المكان». وعندما قفز حمزة على ظهر الحصان، أراد هذا ان يطلق صهيلاً، ولكنه كبح جماح رغبته خوفاً من ان يجلب الأذى على صاحبه في سكون هذا الليل الغامض.

عرف حمزة أن الأقدار تحمل له الكثير من المصائب، تذكر اللحظة التي عبر فيها البوابة، فتحسس بصورة لاإرادية خنجره ثم أطلق آهة مسموعة حين تذكر بندقيته وقال في نفسه: «كان ينبغي عليّ ان لا أفعل ذلك... كان ذلك غباءاً كبيراً مني، والآن ماذا أملك؟ خنجراً وسوطاً، لابأس، ان الرجل الحقيقي اذا صمّم على شيء فيمكنه ان يستعين حتى بعصا...». وراح يتأمل النجوم المتلألئة في الظلام العميق. وراح يحث حصانه على الخبب بإتجاه منزله في الطرف الآخر من المقاطعة. وكانت أشرطة الأضواء الملونة الباهتة تترآءى من خلف صفوف الأشجار الداكنة. وترآءى له نفق الطويل والرجال العراة الملطخين بالدم والمصلوبين على جدران النفق، وتذكر التمثال الذي رآه لأول مرة في حياته في كنيسة إحدى القرى المسيحية القريبة من نينوى، وكان أن قال له القس إن هذا هو تمثال للسيد المسيح مصلوباً وهو يتحمل آلام كل البشرية، ومنذ ذلك اليوم سمع الكثير عن السيد المسيح الذي كان يدير خدّه الأيمن لمن يضربه على الايسر. وعندما ألتقى القس ذات مرة وصف له شجاعة المسيح وكيف انه كان يتحمل العذاب دون ان يتأوه. وعندما سأله حمزة عن سبب عدم لجوئه الى القوة ضد أعدائه، أبتسم القس قائلاً: «كلا يا حمزة، كان المسيح روحاً مقدسة ونبياً جاء يعلم الناس على المحبة والسلام والصفح والمسامحة، فكيف بإنسان يؤمن بهذه المثل ان يمسك بيده الخنجر ويطعن أخاه الإنسان؟» وتحسس حمزة خنجره وقبض عليه بقوة وقال: لا ياعزيزي القس ان نصائحك لا تصلح لهذا الزمان. وأحس مرة أخرى بالحقد يكاد يفجر شرايينه: «أيه يا حمزة، كل هذا يجري تحت الأرض وأنت لا تعرف به؟ كل ذلك يحدث على مقربة أمتار منك وأنت تدخل المقاطعة هادىء البال وكأن شيئاً لم يكن؟... ليس هذا حسب، بل تسلم بندقيتك الى سيد المقاطعة، سلاحك الوحيد الذي كان يحميك من الذئاب الشرسة... إيه يا حمزة، كم من مصيبة مررت بها، وكم من مرة كبا فيها حصانك ثم عالجته برفق وواصلتما سيركما وأنتما تحافظان على القطيع محافظتكما على حدقات عينيكما. كم من مرّة هجمت الذئاب الشرسة على القطيع وأبادت نصفها... والآن ماذا ستفعل يا حمزة؟ أنك لا شك مقبل على عمل حاسم، فليس من المعقول ان تطبق هنا نصائح القس وتتحول كالرعاة الآخرين الى لاعق صحون السيد. إذن ينبغي عليك الخروج من هنا، ولكن كيف ستخرج من هنا؟ كما ان خروجك من هنا، هذا إذا خرجت سالماً، ولكن كيف ستخرج من هنا؟ يعني إعلان الحرب بينك وبين السيد، وإلا فلماذا النفق الطويل والأجساد المصلوبة على الجدران؟ إنهم أولئك الرعاة الذين لا يريدون دخول المقاطعة.» وأطلق آهة أخرى: «يا ألهي، ها أنني ألدغ من جحر مرتين. لقد كانت اللدغة هذه المرة أشد وأعظم من أية لدغة أخرى... ولكنني أعرف كيف أعلن حربي عليك أيها السيد اللئيم...».

بدا له كما لو أن الحصان هو الآخر يفكر معه. كان قلقاً يلتفت يمنى ويسرى، تارةً يسرع في

خطاه واخرى يبطئ: «ماذا فعلت بهذا الحصان الأصهب الصامت يا حمزة وبهذا القطيع الذي هو مصدر الخير والعطاء؟... ان القضية ان كانت تكمن في إنقاذ جلدك وحسب، لعبرت السياج بسهولة وتركت الحصان والقطيع لقمة سائغة لهذا السيد الشره الذي لن تشبعه أموال الدنيا كلها... كلا، المسألة أكبر من ان تفلت بجلدك... انك جزء من الحصان الاصهب، والحصان الأصهب جزء منك. وكلاكما جزء من القطيع، والقطيع جزء منكما، انكم ثلاثة أشياء تُكون في الأساس شيئاً واحداً. انكم ثلاثتكم مركب واحد لا يمكن تجزئته. إنك إذن يجب ان تحافظ على الحصان والقطيع محافظتك على حدقة عينك. ولكن كيف ستحافظ عليهما؟... انك تملك سوطاً وخنجراً. وأما السيد فيملك كل شيء، ولكن هناك شيء واحد أنقذك دوماً من المأزق التي وقعت فيها ألا وهو إرادتك وتصميمك...

وصمّم في قراره نفسه ان يترك هذا المكان الذي يحس بهوائه المشبع بالسم والنتانة والجريمة يكاد يخنقه. وتضاربت الأفكار في رأسه وهو يفكر في أسلم طريقة ينقذ بها القطيع دون ان يحس به الحراس، وكان خلال جولاته المستمرة حول السور وجد ثغرات عديدة يمكن عبورها بسهولة، كان قد أحدثها بلا شك بعض اللصوص أو رجال السيد نفسه، وتنفس الصعداء ولكن سرعان ماتكدر مزاجه عندما تذكر كلاب الحراسة المدربة التي تقوم بأداء واجبات الدورية برفقة الحراس بين آن وآخر، هذه الكلاب الشرسة التي لاشك انها لعقت دماء الرجال المصلوبين على جدران النفق السري. وسرت قشعريرة في جسمه عندما مرًت بذهنه صورة بشعة: الكلاب وهي تقطع أوصال الأغنام وتنهش لحمها بأنيابها ومخالبها الحادة.

وعندما أقترب من المنزل، وقف الحصان بغتة في مكانه وراح يضرب الأرض بحوافره بقوة وعصبية غريبتين ثم أطلق صهيلاً متواصلاً شق سكون الليل، وفي هذه اللحظة تحرك القطيع كتلة واحدة وأنطلقت تدور حول نفسها مثل موجة حلزونية وسط دوامة. وأطلق حمزة صيحة تزامن معها صهيل آخر للحصان الأصهب: «هيه... من هناك؟» وهجم مثل الصاعقة على شبحين، كانا يتحركان بين القطيع فراح يلهبهما بسوطه. قفز أحدهما عليه بخفة القط الوحشي فأوقعه من على ظهر الحصان. سحب حمزة خنجره محاولاً طعن الرجل الذي فلت من بين يديه كسمكة. أراد حمزة ان يلحق به، ولكنه عدل عن فكرته ممسكاً بقوة بزمام الحصان، وعندما أراد القفز على ظهره أحس بأحد ساقيه لا يطاوعه، بيد أنه أعاد الكرّة بشكل آخر ولعدة مرات الى ان أستطاع ان يتخذ مكانه على ظهره. إذ ذاك أحس بشيء لزج حار يسيل عبر كتفه الأيمن. ودار حول القطيع دورة سريعة، فلما لمّ شمله، وجهه بأتجاه ثغرة كبيرة في السياج. كان يخشى ان يفاجئه الشبحان في أي لحظة، لذلك كان يمسك بيمناه الخنجر وبيسراه الزمام. وقبل ان يبلغ السياج أحس بضربة قوية على قفاه أفقدته توازنه، فتراءت له آلاف النجوم وهي تتحرك متداخلة في

بقع بيضاء تتصاعد مثل حلقات متلاحقة تتلاشى في اللانهاية. ولما كان رأسه قد أعتاد على تلقي مثل هذه الضربات منذ طفولته، لذلك فانها لم تفقده صوابه، وأحس هذه المرة بشيء لزج أخر حار أيضاً يسيل عبر رقبته. قال في نفسه: «ان هذه الضربة يجب ان لا تلهيني عن إنقاذ القطيع». ولما كان القطيع قد تفرق مرة أخرى، لذا أعاد دورته حوله. وعندما أقترب أكبر عدد ممكن منه من السياج، لمح أكثر من شبحين. وبغتة أنطلقت مجموعة من الكلاب وهي تنبح بهستيرية... وتفرق القطيع مرة أخرى. ودون ان يأبه بالكلاب، أعاد دورة أخرى حول القطيع بسرعة لم يعهدها من قبل، وهاج الحصان، وأطلق حمزة نداءات للقطيع بأن يتبعه، وقفز الحصان عبر ثغرة السياج موسعاً إياها، فتبعه القطيع. وكان حمزة يسمع بألم ثغاء الأغنام التي كانت تشرف على الموت سواء تحت هجمات الكلاب أم عند عبور السياج. وسمع صوتاً غاضباً عالياً يقول: «لقد ظهرت على حقيقيتك يا حمزة... أنتظر، سأقص جناحك حتى إذا أنقلبت طائراً...» قال حمزة من وراء السياج بصوت أجش: « قل لسيدك اللئيم أن يستعد للمعركة الفاصلة يا أبن الزانية، وسوف أجعل من سراديبكم الدموية قبورا لكم...».

وأطبق الصمت على كل شيء، وبعد مسيرة غير قصيرة بلغوا الجبل. وكان الخيط الأبيض قد بدأ يشق الظلام من جهة الشرق. ترجل حمزة. وكان الحصان المتعب يتصبب عرقاً ووغفاً. وكان الدم قد تجمّد على كتفه ورقبته. وهرع الى القطيع الذي بدأ يراه بوضوح تحت أنوار الشفق الأولى، وبنظرة واحدة عرف ان نصفه قد زال أو لم يستطع الخروج من المقاطعة. وكانت البقية الباقية قد تماسكت في كتلة واحدة بيضاء كما لو انها سحابة حطت على الأرض، تاركةً مكانها في أعالي السماء. لم تفاجئه النتيجة. كانت توقعاته أسوأ بكثير. وراح يداوي الأغنام المجروحة بطريقته البدائية وهو يشعر في أعماقه براحة وإطمئنان تكتنفهما غشاوة من الحزن، وتذكر اليوم الذي داهم فيه اللصوص قطيعه فلم يستطع ان ينقذ سوى عدد ضئيل جداً لايتجاوز أصابع اليدين، ورغم ذلك فان القطيع قد تكاثر. وقرر أن يزور الشايب، رغم ان مواجهته ستكون مؤلمة. وبعد ذلك سيلتقي بالرعاة المتفرقين هنا وهناك ويقص عليهم حكاية المقاطعة ومراعيها التي تبدو جميلة جداً من بعيد. ثم راح يتكلم مع نفسه بصوت مسموع وبصورة لاإرادية: «كلا... ان هذا ليس خيالاً ما أفكر فيه.»

كان الظلام يتلاشى بسرعة أمام الشفق الوردي. وعندما أشرقت الشمس نزع قميصه وعرض جروحه للشمس ثم أشعل قطعة قماش راح يغطي برمادها الساخن جروحه. كانت الصخور جرداء قاسية تتخللها شجيرات البلوط والأشواك. وكان عليه ان يقطع مسافة عدة ساعات الى أن يصل الى ينابيع المياه والكلأ، وقدر أنه قبل حلول قيض الظهيرة سيكون قد بلغ المكان.

١١

التفت حمزة الى الشيخ الذي كانت علامات الغضب مازالت بادية على وجهه المهيب وقد جلس على صخرة كبيرة متكئاً على عصاه، كما لو أنه تمثال من العهود الغابرة بقي شامخاً في مكانه دون ان تهزّه عوامل الزمن. وكان يجيل عينيه الحادتين الشبيهتين بعيني صقر تحت حاجبين كثيفين بلون الصوف، بين القطيع والحصان. أراد حمزة ان يقول أي شيء حتى يقطع الصمت المخيم عليهما ولكن لسانه لم يسعفه. كان يعرف ان الشيخ يفكر بعمق، ويقول في قراره نفسه أشياء كثيرة لايعلم محتواها إلاّ اللّه، ولاشك أنه يرسل شتائمه البذيئة بدون حساب، ومهما يكن فإنه لا ولن يغضب عليه. وكان حمزة يحس بضميره يؤنبه بشكل موخز، ولاسيما لأنه لم يستشر الشيخ الذي رباه منذ صباه، الأمر الذي كان يستثير غضب الشيخ. ورأى ان الكلام لاجدوى منه في هذا الجو المكهرب. انه يجب أن يقوم بعمل يريح ضميره وضمير الشيخ. كان يعرف كل خفايا وأسرار الشيخ... طريقة تفكيره ومعالجته للأمور ومواقع قوته وضعفه. كان لايناديه بأبي رغم انه كان أبوه الروحي ولا يناديه بجدي رغم انه كان جده الحقيقي من أبيه. كان يناديه بالشايب ويتعاملان مع بعضهما كصديقين حميمين يفرق بينهما عامل السن حسب. وكان الشيخ يفاجئه أحياناً بضربة من عصاه على مؤخرته، وكانت الضربة عادة غير موجعة بيد انه كان يتظاهر كما لو لدغته حية. وكان الشيخ يفرح ويقهقه مثل صبي صغير.

وعندما عاد حمزة ظهيرة هذا اليوم الى القرية، عرف الشيخ فوراً ان حادثاً ما قد حصل له، فلم يأبه للنقص الكبير في القطيع، لأنه قد أعتاد على ذلك، ثم أنه وجد ذلك شيئاً طبيعياً لراع يجوب البراري والجبال ليلاً ونهاراً، فراح يعالج جروح حمزة وجروح الأغنام بعناية كبيرة. وكان قد أعتاد على مثل هذه المواقف. وفي كل مرة كان يحدثه حمزة عن مغامراته والمشاكل التي صادفته حاملاً له أيضاً تحيات أصدقائه القدامى الذين كان يزورهم عند مروره بالبادية وبساتين النخيل والأهوار ومناطق السبخ المالحة. كان الشيخ يقول له دائماً، إنّ من يخاف الخسائر ويخاف من اللصوص والذئاب فعليه ان لا يمارس مهنة الرعي، بل خير له ان يعمل طباخاً في مطبخ الاقطاعي. ولكن الشيء الذي أذهل الشيخ هذه المرة هو إختفاء البندقية والملامح الغريبة التي تكتسي وجه حمزة، فلم يبادر بتوجيه السؤال، بل راح يعالج الجروح ويقدم العلف للقطيع ويمسد الحصان بفرشاته غاسلا إياه برفق على النبع، ومنتظراً مبادرة حمزة لرواية ما حدث له. وكان حمزة يعرف ما يجول في رأس الشيخ. كان يعرف ان الشايب ينتظرمنه جواباً. حاول عدّة مرات ان يفاتحه بالموضوع، ولكنه كان يحس بتيار كهربائي يمر

بجسده ويشله عن الحركة والتحدث في هذا الموضوع، كان يضطرب الى درجة انه لا يستطيع النطق. واخيراً رأى ان الوقت قد حان، ثم أن الشايب إذا بادر هو بالسؤال فعند ذلك لن يتخلص من لسانه الطويل. وتقدم منه، حيث كان قد انتهى لتوه من رعاية القطيع وغسل الحصان فجلس على الصخرة متكئا على عصاه وهو مستغرق في تأملاته. وعندما لمحه هذا قادما بإتجاهه وهو منكس الرأس، عرف الشايب انه جاء للتحدث في الموضوع فتنفس الصعداء مدمدما بصوت غير مسموع:

«وأخيراً...»

وقف حمزة أمامه بخشوع وصمت كما لو انه يريد ان يؤدي طقوس العبادة، وكان منكس الرأس يحدق في الأرض. وكان ظلّه الطويل يمتد الى الجانب الثاني من الوادي. وقف لعدة دقائق دون ان يفتح فمه. أعتدل الشيخ في مكانه وراح يضرب الأرض أمامه ضربات متلاحقة بعصبية خفيفة، ثم رفع رأسه محدقاً في وجه حمزة:

– تكلم ياولدي... لاتخجل. إنني أعرف أنك قد أقترفت ذنباً. المهم أنك عدت محافظاً على كرامتك... البندقية تعوض والقطيع يعوض، كل شيء يعوض وأما الكرامة، فلا... تكلم يا ولدي... لا تخجل...

الفهرس